الموتى لا يتكلمون

هيثم نافل والي

الكتاب : الموتى لا يتكلمون (مجموعة قصصية)
المؤلف : هيثم نافل والي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤
رقم الإيداع : ٢١٠٦/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 179 - 6

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



الموتى لا يتكلمون

مجموعة قصصية

هيثم نافل والي

إهــداء

إلى عنفوان زوجتي

في العطاء

وأولادي

المتنبي

وآدم

في الحب

والأخلاق

مقدِّمة

شحاذًا يجوب الأزقة، يطرق الأبواب بابًا بابًا، طلبًا لكسرة خبز، أو قطعة نقد بها يسد حاجة صغار عاقه عن إعالتهم بترُ ساقه في واحدة من حروب الطغاة التي لا يخرج منتصرٌ منها سوى مُشعليها، مقامرًا لا يتردد - إنْ خسر الرِّهان - أنْ يتخلى عن سقف بيته، أو عن أعزِّ ما يُفاخر به الرجال كي يستعيد ما غنمه أصحاب السوء... عاشقًا غارقًا في الغرام حتى أُذنيه، تفتِّت الغيرة أكباده فتغشيه عن التمتع بالنعمة التي بين يديه، فتنقلب حياته جحيمًا لا يُطاق... ساحرًا مشعوذًا يستغفل المغفلين، فيقرأ الكفَّ أو يكتب التعاويذ، فيضحك بها على ذقنه؛ وليس على ذقون الآخرين... سياسيًا استبدل بدلة الزيتوني بالجبة والعمَّامة، وألبس أصابع الكفين خواتم فضة بمختلف الفصوص، يقتل من خصومه كل ليلة عدد ركعاته في الخمس أو ما يزيد... رسامًا على لوحاته يجيد نقل ما اختزنتْ ذاكرته من مواضع الجمال... عازفًا يختار ما يطرب النفوس من التقاسيم... نحلة أخفّ من النسيم من زهرة لأخرى تطير فترتشف عسلاً يشفي العليل ويُنعش المصدور... كالفأر يقلِّب الصحائف فينفض عنها الغبار كي يلتقط لؤلؤة عنها تاهتْ الأبصار... بلا عُدة للغوص؛ غواصًا بدائيًا مجازفًا يصارع التماسيح... فلاحًا بكفيه المشققتين يزيح السباخ عن وجه الأرض،

فيغرسها بالمثمرات لتقطف منها قادمات الأجيال... عاملاً يفاخر بما تعلق ببدلته من زيت أو سخام، معلمًا كشمعة تآكلتْ كي تنشر النور في عوالم الظلام، الذي يسعى لنشره رجال دين متخلفون.

هكذا وجدته "هيثم نافل والي"؛ ولم أكن قد التقيته من قبل، لكنْ ليس صعبًا أنْ تقرأ الأديب حين في الأزقة تجده شحاذًا، كما هو في قاعات الدرس مُدرِّسًا، أو بين أَسرَّة المرضى طبيبًا، وقد تجده في ساحات الوغى جنديًّا مقاتلاً، وحين تقرأ له قصصًا قصيرة أو حكايات، كتلك التي يكتبها هيثم والي بها يتقمص شخصياتها فيتوحد معها، وفي خياله يجتر أحداثها، فيستنفر كل ما بجعبته من أدوات القاص: من نسج للخيال، وربط الأحداث بحبكة ترتب الانسجام مع فاعليها من الشخصيات، في زمن يراه مناسبًا فيقدره لتغطية تلك الأحداث، ويستعين برصيده من اللغة العربية إذ شمَّر عن ساعديه؛ لينهل منها ما يعينه على التعبير عمَّا يريد إيصاله للمتلقي من أفكار.

لقد تابعتُ - باهتمام ونشوة - تلك المجموعة القصصية الماثلة صفحاتها بين أيدي القُرَّاء الكرَّام منذ ولادتها طرية تحت أنامل حائكها، فقرأتُ فيها أنَّ الكاتب قد اختار القصيرة منها، والوجبات السريعة الساخنة من الحكايات؛ لأنه يفهم أنَّ القارئ - في هذا العصر- لا يملك وقتًا فائضًا كي يضيعه في متابعة التفاصيل أو الكلام الطويل، فهو متعجل في عصر يتناول طعامه وعبوة القهوة وهو يستقل الباص، أو خلف مقود مركبته، وأنَّ خير الكلام ما قلَّ ودلَّ، التقط من الأفكار ما يناسب الموضع الذي اختاره لنفسه، وما خلفته في نفسه قراءات لكُتَّاب كبار مشهورين عرب وعالميين،

والإنسان غاية وهو الوسيلة، وعليه لا بد من نصرة الخير على الشر، الحق على الباطل، النور على الظلام، فاختار شخصياته وأحداثها من الواقع الذي لا يبحث عنه القارئ خارج الأسوار، بل يجده مُحاطًا به أنى تلفت أو أقام.

ابتعد الكاتب "هيثم والي" عن التعقيد اللفظي أو المعنوي، فمال إلى البساطة في التعبير، ولم يهمل ما اصطاده من عذب اللفظ وجميل العبارات.

أتمنى للكاتب مزيدًا من التألُّق والنجاح، آملاً أنْ تلقى مجموعته القصصية تلك رواجًا واهتمامًا من لدن قرائنا المتعطشين لكل جديد لذيذ.

مديح الصادق

كاتب وفنان مسرحي

كندا- تورونتو



يقفزُ أخوها "أكرم" من مكانه كالملدوغ صارخًا: سأقتلها!...
ودمدمَ قائلاً، بعد أنْ غلى الدم في وجهه فصارَ بلون الجمر: لو أمسكتُها بإصبعي الصغير هذا لأزهقتُ روحها، والشيطان وحده يعلمُ ما يدور في رأسي الآن!.

تمسكهُ الأم بقوة من يده ـ كما يمسك الضرير عصاه ـ وتقول منهكة والقلق يبدو عليها، متوسلة من خلال دموعها:
ـ أرجوك يا بني لا تتهور، أعطنا فرصة كي نفكر لنتدارك الموقف.. ما هذا يا رب!... ثم أردفَتْ: إنك تبدو كالمجنون، تجعلنا لا نستطيع أنْ نحدِّد ما علينا فعله، قلْ لي: ما هذا الذي تحمله بيدك المرتجفة؟ أرني إياه.

يشدُّ أكرم شعره، ويضربُ صدره، ويطقطقُ أسنانه كالكلب المسعور، وقد بحَّ صوته، فيردِّدُ ما قالهُ للمرةِ الألف:
ـ سأقتلها، سأُطهِّرُ شرفنا من عارها الذي لحقَ بنا، سألقي لحمها بعدَ أنْ أُقطعه قِطعًا للكلابِ الضالة، سأُنظفُ سمعتنا التي لوَّثتها بفعلتها المشينة، لا يمكن لي الجلوس هكذا وشرفنا وسمعتنا ملوثة... ثم استطرد: قولي لي، كيفَ سنعيش بعد اليوم؟ كيفَ

سنواجه الناس وبأي شكل؟ لقد كتبتْ لنا أختنا العزيزة الجميلة الدلوعة تاريخًا أسود بلا رحمة أو شرف، سأقتلها لأكون رجلاً يستحق الحياة بكرامة.

ينظرُ لهما الأب بوجه شاحب، وبصمتٍ قاتل دونَ حِراك وكأنه ميت، فصرختْ به زوجته بأسى قائلة:

- ماذا عنك يا تحسين؟ لماذا لا تقولُ شيئًا؟ فإنك ومنذُ أنْ عرفتَ بالمصيبة لم تبدِ تعليقًا سوى جلوسكَ الصامت هكذا كالصنم!.

فطأطأ رأسه، وصرَّ على أسنانه بقوة، كالذئب عندما يريد أنْ يهجم على ضحيته حتى بدا أنَّ الحقد والغيظ يخنقانه، فقالَ باكيًا كما يبكي السكران:

- اصمتي يا امرأة، إنَّ الذي حصلَ لابنتنا سعاد كان بسببكِ، والآن تريدين منِّي أنْ أتخذَ قرارًا، كيفَ ذلك؟ لقد جعلتِها مدللة لاهية، كالطفلة؛ بل كالدمية؛ لا تفقه من الحياة سوى طرفٍ من ظلٍ، وعندما أخطأتْ وأصبحتْ حاملاً دونَ زواج وبهذا السن، رأيتكما تنتحبان وتتوعدانها بالقتل غسلاً للشرف الملطخ، كيفَ هذا؟ إنها أمور لا يستقيمُ لها العقل، فكلما تدخلتُ في حياتكما قليلاً تذمرتما صارخين: لا تتدخل، نحنُ أعلم بما نفعل، لا تجهد نفسك يكفيكَ عملك.. والنتيجة هي أنَّ ابنتي تموت؛ بل أنها ماتتْ، ماذا تظنون؟ وأنتَ قلْ لي - ينظرُ إلى ابنه باشمئزاز- ماذا تحمل في يدك؟ ها.. أتريد أنْ تقتلها؟ ألم تقتلْ نفسها في اللحظة التي وثقتْ بذلك الرجل الذي أغواها ووعدها بالزواج كذِّبًا؟ لقد ماتتْ أختك فعلاً، فلا داعي بعد من قتل الميت!.

فنكسَ رأسه ودخلَ إلى حالة الغيبوبة، والصمت المرعب الذي كان فيه من جديد ليبدو كالحجر.

تدخلُ سعاد الغرفة صامتةً كالظل، وبطنها منتفخة وكأنها في الشهر التاسع من حملها، تتعثر بخطواتها مثل الذي يُساق إلى ساحة الإعدام، بدتْ شاحبة وضعيفة ومنهكة، وهي تلهث، ونفسُّها يكاد ينقطع، كأنها انتهتْ من ارتقاء سلَّم عالٍ للتو، فقالتْ بصوت مرتبك غير مسموع، وكأنها تحدِّث نفسها:

ـ أنا أعترفُ بجُرمي أمامكم لكنني لم أكنْ قد أخطأتُ بمفردي، فقد ساعدتني أمي بدلالها المفرط اللذيذ، وأخي بتهوره وعدم السماح لي بمصاحبته، لم يحاولْ يومًا أنْ يفتح لي قلبه، أو حتى أنْ يكسبَ ودي، كما أنه لم يعاملْني كإنسانة لها مشاعر وأحاسيس، ما كان يؤمن به شيءٌ واحد هو أنه الرجل، لقد كانتْ نظراته لي سُمًّا وكلماته خنجرًا، لأبقى لا شيء في عُرفه.. لقد فعلتُ ما كان يفعله كل يوم، لكنه يحرِّمُ عليَّ ما يحلَّله لنفسه، حتى بِتُّ أهيم بلا معنى وأعيش دون جدوى كدمية ـ كما قالَ أبي بالضبط ـ أحيا بلا حياة.

توقفتْ للحظة، ثم أردفَتْ:

ـ أنا لا أدعي بأني غير مخطئة، بل أنا فاسدة زنديقة كافرة وحقيرة، بل لا أستحق منكم حتى أنْ تلوثوا أيديكم بدمي؛ لأنني في عُرفكم يجب أنْ لا أكون إلا كما ترغبون، فأحيا بلا قلب خاوية مقفرة كالقبر، إذن سأقتل نفسي بإرادتي ودون مساعدتكم، سأعدم نفسي لأكون نِسيًا منسيًا.

تتقهقر، تتشنج، فتنهار ساقطةً على الأرض، تصرخ الأم باكية:
ـ سعاد ابنتي.

لم يعد يطيق أخوها أكرم الصبر أو الانتظار، يهجم عليها كالأسد حاملاً سكينه الحادة، التي تلمع كلمعان الفضة النقية، يمسك بقبضته الحديدية رأسها، فيلوي عنقها. يتدخل الأب في هذه اللحظة الحاسمة الحرجة؛ ليقف كما السد الذي يحجز المياه، ويقول صارخًا:
ـ كفاكم كُفرًا وغباءً، دعوها إنها...

تخرجُ من غرفة سعاد صرخة عارمة مدوية تهز أركان المنزل كله، فتهرع الأم راكضةً إلى غرفة ابنتها التي تجاور غرفة نومها، فتفتح الباب على ابنتها النائمة بقوة وبخفة ساحر، بينما يدخلُ أخوها مسرعًا وكأنه يود إطفاء حريق قد شبَّ في الغرفة، بينما كان الأب يقفُ على رأسهم كالصقر؛ ليجدوا سعاد وهي جالسة على سريرها تبكي بهلع جنوني، تتقدَّم أمها نحوها، فتقول لها وهي تمسح الدموع من على وجنتيها:
ـ ماذا جرى لكِ يا ابنتي؟ إنه مجرد كابوس، لا تقلقي أبدًا، خذي اشربي هذا الكأس من الماء، بلِّلي ريقك أولاً، نحنُ ـ وكما تشاهدين ـ جميعنا بجانبك، هدئي من روعك.

يتوجه الأب نحوها، ويقول مبتسمًا كالطفل:
ـ لقد شغلتِنا عليكِ يا ابنتي، وجعلتِنا نركض كالغُزلان الفزعة!.

نظرتْ سعاد إليهم بعينين لامعتين فاضتْ فيهما الدموع، فتقول ضاحكةً:

ـ أنا أعتذر منكم يا أحبائي، لم يكن في بالي قط أنْ أوقظكم في ساعة متأخرة من اللَّيل، ولكنْ للنائم عذرٌ فيما يحلم به!.

يأخذُ أخوها يدها، فيقبِّلها بحنان أُم، ويقول باسمًا كالصبح:

ـ سوف ننتظر بفارغ الصبر وعند الإفطار، أنْ تخبرينا بقصة الكابوس اللعين هذا، لكي نضحكَ معكِ وعليكِ يا (دلوعة).

جريمة قتل

في غرفة شبه مظلمة، عارية الجدران، تتوسطها طاولة خشبية تركية قديمة ويتيمة لكنها متماسكة، وقد حافظتْ على هيكلها من التآكل رغم قِدمها، واقفة على أرجل غليظة، ليستْ على استقامة تامة كأرجل فيل.. لا يؤنس وحدتها سوى كرسيين متقابلين ومتشابهين؛ وكأنهما تَوْءَم؛ صُنِعا من الحديد الخام دونَ طلاء أو مساند، جلسَ على أحدهما المحقق كاظم منصور، الذي يتمتع برأس كبير وصلعة براقة، كسطح زجاجي نُظف للتو، تنطق عيناه بنظراتٍ وقحة متمردة، متطاولة ومتلصصة كتلك التي يشاهدها المرء في عيون الشاذ جنسيًا، قصير القامة، مكتنز اللَّحم، وفي صوته رنَّة خشنة مخيفة، تبعث الهوس في العقل، والخوف في القلب، وترعب وتوقظ حتى التماسيح النائمة، في الحلقة الخامسة من عمره، لكنه كان يتمتع بلياقة لا تنسجم وهيئة جسمه، التي تشبه لحدٍ ما كيس الدقيق ذا فئة مائة كيلو جرامًا!.. وبلباقة وسرعة بديهة لا يتوقعها المرء منذ الوهلة الأولى أثناء الحديث، وعلى الرغم من ضخامته وسمنته، فهو يمتلك يدين صغيرتين مضحكتين وكأنهما لطفلٍ صغير... كان يتصرَّف بشكلٍ فظ؛ كامرأة عارية من الكبرياء والخجل... وأهم ما يتميز به هو عندما يضحك، فيظهر أقبح ما فيه

أسنان مثرمة وكأنها لقردٍ هرِّم، وهو يصرخ بعنف، وبانفعال شاطرَ وتغلبَ فيه على الشيطان في غضبه.

امتلأ جو الغرفة الكئيبة بصراخه، الذي يشبه صراخ قطة شرسة، والشرر يتطاير من عينيه؛ كماكينة خراطة، وهي تشحذ قطعة من الحديد؛ وهو يستجوب الشاب "ميثم" بقسوة حادة، وبخبرة عالم في مهنته...

ميثم الذي لم يبلغ بعد الرابعة عشر، نحيف الجسم كلاعب في سيرك، ولبشرته لون القمح.. خجول كنبض شخص نائم.. لعينيه لون العسل.. وله شفتان ممتلئتان وكأنهما خُلِقا للتقبيل حين يأتي وقت العناق عندما ينضج ويكبر.. هادئ الطبع، قليل الكلام، متفتح الحواس، مرهف الحس والوعي.. يحب القراءة، ومولع بالقصص والحكايات منذ أنْ تعلَّم القراءة والكتابة، ويتابع وهو في هذا السن المبكر كل نتاج أدبي جديد يظهر على الساحة، وبمساعدة وتوجيه أُمه التي تشجعه وتقتني له كل ما يطلبه بهذا الخصوص، ناهيك عن ميِّزة غلبتْ على كل طباعه، وهي اللُّطف في المعاشرة.

هتفَ ميثم بلهجة مؤدبة، وبكلماتٍ مخنوقة لا تكاد تُسمع، وباحتجاجٍ عذب يتناسب وصغر سنه:
ـ لا أعرف صدقني، لا أعرف لماذا ماتَ مَعين... (وهو يلوِّح بيده محتجًا).. ثم صمتَ، وبدا وكان الصمت يغني بلغة سحرية مجهولة.

ـ كيفَ لا تعرف يا وغد، أنتَ الذي قتلته!.
ثم قالَ مراوغًا، وبلهجة ماكرة غير مرغوب فيها:

ـ في حوزتنا هنا ثعابين مسلية كثيرة، إنْ رغبتَ جعلتُكَ تلعب مع أحدها... ثم ضحك حتى سعل.

دار رأسه وداخله شعور بالأسى، خفض بصره وكأنه يخجل، وهبَّ واقفًا والدموع قد غزتْ عينيه العسليتين دونَ إرادة، وهو يلقي نظراته التي ليس لها معنى صريح على المحقق، ثم أردفَ بصدق:
ـ كل ما فعلته، هو أني أردتُ تأديبه فقط.

عندها استولى الصمت على المكان، كالشعور بالإثم، ثم أدركَ بأنَّ هناك شيئًا يودُّ إضافته، فقال برنَّة جدية وكأنها تعود لشخصٍ بالغ بعدَ أنْ خرج من سكوته المشبع بالخوف والرهبة:
ـ لقد كنتُ خائفًا منه، وأنا أضربه!.

تنهد المحقق بارتياح عميق، بعدَ أنْ شَعُرَ بقول ميثم الأخير بنصرٍ قريب في القضية التي يُحقِّق فيها، فابتسم، وهو يدمدمُ بقولٍ ماكر مخادع:
ـ سوف لنْ ينساكَ الله يا ولدي، وسأذكرُ ذلك في التحقيق أيضًا، ويهزُّ رأسه؛ كالبندول؛ طربًا وانتصارًا، لِمَا آلتْ إليه نتائج التحقيق وبهذه السرعة غير المتوقعة، وأثناء ابتسامه، بانتْ أسنانه الجيرية المثرمة، فظهرتْ خلف شفتيه؛ وكأنها ديدان فارسية ميتة؛ فوقف هو الآخر ليقابل ميثم الذي بدا أمامه كحمَلٍ رضيع، وسأله مباغتًا:
ـ ولكنْ قُلْ لي: لماذا أردتَ أن تؤدِّب معينًا؟!

فكَّرَ قليلاً وكأنه لم يتوقع السؤال، وأجاب وهو يبعد إصبعه الصغير من فمه:

ـ لأنه كان... أقصد... لم أعد أتذكر.

ثم استطرد متسرعًا:

ـ وعليك أنْ تصدِّقني.

ردَّ عليه المحقق بمكرٍ شيطاني خبيث، وهو يقول:

ـ ولماذا تريدني أنْ أُصدَّقك؟!... (قالَ ذلك وهو يجلس مجددًا، واضعًا رِجلاً على رِجل).

ـ لأنني لا أقول إلا الحقيقة... (جلسَ ميثم أيضًا كتلميذٍ مُطيِّع خلف طاولته).

وبنفس الرنَّة المتمادية في الخبث المُبطن المستفز، قال المحقق وهو يبتسم مجددًا؛ كمَنْ أكل بعد جوع حتى امتلأ:

ـ وما هي الحقيقة يا ميثم؟

ـ الحقيقة هو إني...

ثم سرد ما في جعبته من كلام دفعة واحدة:

ـ هي إني كنتُ خائفًا منه وأنا أضربه، ولم يأتِ في ذهني التخلُّص منه، ولم أخطط لقتله.

ثم بلعَ ريقه، وكأنه يشهق وتابعَ قائلاً:

ـ أردتُ فقط تأديبه.

ـ عظيم...

هتفَ المحقق بزهوٍ، ثم استطرد متأملاً، وهو يسأله مجددًا:

ـ إذن تعترف بأنك قد ضربته لأجل تأديبه، وقد كنتَ خائفًا منه وأنتَ تضربه... (وميثم يهزُّ رأسه علامة الإيجاب).

ثم تابع بذكاء محنك قائلاً:

ـ ولكنْ قُلْ لي يا ولد: لماذا تمتلك أسنانًا مكسورة في مقدِّمة فكك؟!

ـ لأنها كُسرتْ!... (وهو يقطب بامتعاض واضح).

هوتْ صفعة من يد المحقق الصغيرة على وجه ميثم، وهو يقول بانفعال شديد تأثرًا بالجواب، صارخًا بأعلى صوته:

ـ يا ابن العاهرة أنا أرى ذلكَ جيدًا، لكني أسألك عن السبب.

نظرَ ميثم من خلف دموعه إليه بخوفٍ قاهر، وهو يجيب كغريق يدعو إلى النجاة، وقال:

ـ لقد سقطتْ يومًا، وأنا أركض... (قال ذلك وكأنه يُمثِّل؛ رغم صدقه).

ـ أين؟... (سأله المحقق بامتعاض وتقزز).

ـ في المدرسة... (أجابه، وهو يحاول أنْ يرنو ببصره بعيدًا عن وجه المحقق، الذي بدا له كوجه دبٍّ جائع متوحش).

من خلال فراسته، شعرَ كاظم منصور بتقدُّم كبير، وهو يستجوب الشاب الذي بدا أمامه كقطة مبللة وخائفة... ثم قال متسائلاً برقة مصطنعة ومبالغ فيها:

ـ ومَنْ كان يركضُّ وراءك يا عزيزي؟

أعجزته انفعالاته عن النطق، فصمتَ طويلاً بعد أنْ تيقن بأنه أُستدرج في حديث لم يشأ أنْ يخوضَ فيه، فأعاد المحقق سؤاله

بطريقة مختلفة وبرنَّة (استغرب منها ميثم كثيرًا، وسأل نفسه سرًّا: كيفَ أتى بها؟! ومن أين؟! ثم أردفَ: يا له من ساحر! كإبليس ففي رنَّته سحر لا يقاوم) وقال مستطلعًا:

ـ مَنْ كان يلعب معك في ذلك الوقت عندما سقطتْ وتكسرتْ أسنانك؟

أجاب سريعًا دونَ تردد:

ـ مَعين... (ثم عضَّ شفتيه الممتلئتين ندمًا على تسرعه).

تفتحتْ أسارير المحقق كزهرة عند الصباح؛ وهو يفرك كعادته جناحا أنفه بحركة من يده اليمنى، إعلانًا منه على أنه مشغول في التفكير، وتابع بلهجة طالما أتقنها في عمله، عندما يأتي دورٌ يُمثِّل فيه المتسامح الرقيق، فقال:

ـ أراك الآن شابًا مهذبًا، وديعًا ومتعاونًا.

ثم أردفَ بعاطفة جياشة مليئة بالودِّ:

ـ يتوجب عليك مساعدة العدالة، ومن خلال ذلك عليك أنْ تخبرني بما أُريد معرفته دونَ خصام، أو صراخ، أو ضرب.

وواصل كلامه على نفس الوزن من الرقة، التي مازجها الجد والابتسام:

ـ قُلْ لي الآن إذن: هل مَعين كان وراء تحطيم أسنانك؟

ـ نعم... (قال ذلك، وهو يقطب حاجبيه)

ـ جيد جدًا.

ثم استطرد المحقق، وهو يفرك يديه سرورًا:

ـ هذا يجعلنا ننهي عملنا اليوم سريعًا دونَ تأخير!.

ثم تابع مستفسرًا:

ـ ولكنْ لم أفهم بعد.. ما السبب الذي جعلك في صراع معه عندما أردتَ تأديبه؟!.

ـ لأنه.. لأنه كان يضايقني دائمًا، ويهزأ بي، وفي أوقات كثيرة... ثم صمتَ كالتمثال.

ـ لا عليك يا عزيزي، فأنتَ إنسان طيب كولدي! وقد سألتُ عنك في المدرسة، وأكد لي مديرها بأنكَ طالبٌ مجتهد، تحب دروسك ومتفوق فيها، ولكَ ميولٌ أدبية رائعة.

ثم غيَّر من لهجته المسالمة فجأة، وقال بحزم دون تودد:

ـ لكنه قال أيضًا: بأنكَ كنتَ غالبًا.

صمتَ برهة، وكأنه يجس وقع كلماته عليه، وأردفَ:

ـ قيل بأنكَ لا تحضر الدرس الأخير.

ثم تابع:

ـ بينما أكدتْ لي أُمك، بأنكَ كنتَ تأتي إلى منزلكم بعد نهاية الدوام المدرسي بشكل منتظم ودقيق! إذن فسر لي الآن هذه المعادلة البسيطة، وبصدق لا يخالطه الكذِّب.

ـ سأقول لك الحقيقة كلها.

ثم أردفَ بثبات:

ـ لكنني لم أنوِ قتل معين!

- أُصدقك يا بني، وما عليك إلا أنْ تقولَ الحقيقة، ونحن سننظر إلى أقوالك، ونختار الحكم فيها بما يتناسب وصدق أقوالك الآن!

ثم قالَ مندفعًا كالطلقة:

- قُلْ الحقيقة فقط، وها أنا أستمع إليك.

احتواه العجز وخذلته قواه، التفتَ ميثم محتارًا حول نفسه، وكأنه يبحث عن مخرجٍ من ورطته، ثم تجلتْ من عينيه العسليتين نظرة شعتْ مرارة، وقلق بعد أنْ دار ببصره بضيقٍ في المكان، ولم يجد ما يسعفه إلا أنْ يسردَ الحقيقة، التي كانتْ جاثمة على صدره كجبلٍ من الهموم؛ فقال برنَّة خفيفة، وبنظرة دامعة، وبتصميمٍ وتحدٍ لا يساومُ عليه:

- سأعترف بكل شيء، ولكنْ يجب أنْ تعرف أولاً؛ وكما قلتُ سلفًا: فأنا لم أنوِ قتله، بل قصدتُ تأديبه فقط... (المحقق ينظر له بعمق وحده دونَ أنْ يطرفَ، وهو صامتٌ لا ينبس، وكأنه يشجعه بسكوته على الكلام).

بدأ في سرد حكايته مع مَعين دونَ أنْ يبلعَ ريقه، بمهارة في الحديث دلتْ على وعيه المتفتح، وأسلوبه الأدبي الجميل، فتردد كلامه من فمه هادرًا كالموج:

- لقد زاملني مَعين في الصف منذ الابتدائية، كان يمتلك حاجبين مخيفين وكأنهما لشيطان، لقد ظلَّ يهدِّدني بالقتل دونَ سببٍ واضح، لقد أصبح بمرور الوقت محل رعب، وقد خِفتُ منه كثيرًا، وحاولتُ أنْ أتجنبه أو أتجاهله دونَ فائدةٍ تُذكر، فقد كان عازمًا على قتلي، أو ترهيبي في أقل تقدير خاصةً عندما كان

يقول لي: سأصطادك بعد انتهاء الدوام المدرسي، وسأنفرد بك دونَ رقيب... لذلك كنتُ غالبًا ما أهرب من المدرسة قبل نهاية دوامها الرسمي، وأختبئ حتى يحين موعد الخروج، فاذهب إلى منزلنا، وكأني رجعتُ للتو من المدرسة! ناهيك عن سقوطي على الأرض بسببه، عندما هجم عليَّ يومًا في ركن مهمل ومركون في المدرسة، وهددني بالقتل، فهربتُ من قبضته، وأثناء ذلك سقطتْ وتحطمتْ ثلاثة من أسناني ـ وكما ترى ـ حتى إني مازلتُ أُعاني من التهابات حادة في اللثة من جرَّاء ذلك.

صمتَ قليلاً ليأخذَ نفسًا بعد أنْ شَعرَ بحاجته لذلك، وهو يسترق النظر إلى المحقق، الذي بدا كالصنم، ثم أردفَ بتأثر وحزن قائلاً:

ـ لقد سألتَ عني وعرفتَ بأنَّ أبي قد مات، وأنا ما زلتُ طفلاً رضيعًا، ولم يكن لي إخوة، ولم أعرف في حياتي سوى أُمي التي أعبدها، لكنني كنتُ خائفًا جدًا من مَعين، وأشعر بالرعب كلما اقترب منِّي؛ لذلك قررتُ إلا أُفصح عن مأساتي لأحد حتى أمي.

ثم بكى، وهو يسرد حكايته بعفوية وصدق وألم، واستطرد:

ـ لم أقلْ لأُمي بأنه كان السبب وراء تحطيم أسناني، وهذه كانتْ غلطتي الوحيدة التي لنْ أُسامح فيها نفسي أبدًا.

واسترسل بذات الرنَّة والحزم:

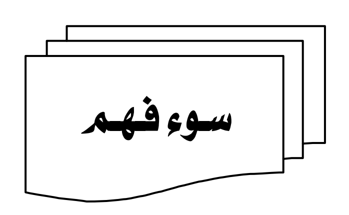
ـ استمرَ الحال هكذا لأكثر من أربع سنوات حتى طفح كيل صبري، فقرَّرتُ مع نفسي في أحد الأيام أنْ أجعلَ نهاية لمأساتي وبثقة وإصرار...

ثم تابع منفعلاً دونَ وعي:

ـ أردتُ أنْ أُوقفه عند حدوده في حال تطاوله، أو الرجوع مجددًا في تهديدي، وجاء ذلك اليوم الذي ضربته على خاصرته بقوة الخائف، وبعزمٍ لا يعود لي.. ولا أعلم من أين أتتني تلك القوة وذلك التصميم الخارق؟ لقد كانتْ ضربة واحدة بقدمي اليمنى، ولم أرَه بعد ذلك واقفًا أمامي مرة أخرى وإلى الأبد.
ثم صمتَ، وكأنه مات.

فاستوقفته أُمه في هذه اللحظة المؤثرة، وقلبها يخفق بابتهالات لا حدود لها، بعد أنْ اجتاحتها موجة عارمة من الفرح والغبطة، فغرقتْ فيها ودموعها تنهمر على خديها حارة وسخية، وهي تُقَبِّله بقوة وحنان، قائلة:
ـ لقد أثبتَ لي اليوم أنك كاتب قصة قصيرة بارع.
ثم تابعتْ بصوتٍ مرتجف:
ـ وأنَّ المستقبل سيشهد ولادة جديدة بل عبقرية فذة، تهز الأوساط الأدبية العربية بموهبتك يا حبيبي وعزيز قلبي.

وهي ما زالت تلثم وجنته بدفءٍ، وحرارة خالطتها الدموع الملتهبة الفرحة الفخورة بابنها الوحيد، وهما ما زالا جالسين حول مائدة الطعام في منزلهما الصغير عند الغداء، وهو يقرأ عليها قصته الأخيرة، والتي كانتْ تحمل عنوان: "جريمة قتل".



تصرخ عبير متذرعةً مبتهلةً بطريقة متوسلة خاضعة، وهي تبكي:

ـ لا أريد الزواج، ولا أفكِّر فيه الآن، فأنا ما زلتُ صغيرة، ولم أنتهِ من دراستي الإعدادية بعد.

ثم يعلو صوتها أكثر؛ وكأنها قد كسرتْ الخجل؛ فتشجعتْ:

ـ لماذا تجبروني على دفعي إلى معترك الحياة وأنا لم أستعد له؟!

ثم تشرع بلهجة خاضعة مقهورة أرجوكم دعوني وشأني؛ لتعيدَ ما قالته للمرة الألف وبصوتٍ مبحوح:

ـ لا أريد، لقد قلتُ لكم، لا أرغب في الزواج الآن، لا تستطيعون إجباري على الزواج هكذا، وبهذه الطريقة.

ثم ينخفضُ صوتها بعد أنْ بدا عليها التعب والإرهاق، فتقول هامسةً، وهي تنتحب بزفراتٍ متقطعة مناجية:

ـ أرجوكم، أتوسل إليكم، ارحموني، لا أريد الزواج الآن.

يقفزُ أخوها "وسام" الهُمام من خلفها كالصقر؛ فينتزع خصلة كبيرة من شعرها؛ لتتناثر على الأرض كالريش، وهو يدمدم:

ـ نحنُ لا نريد أنْ نسمعَ رأيك، ومَنْ قال ذلك؟! بل نريدكِ أنْ تستعدي للقاء خطيبك، لقد قرَّرنا وانتهى الأمر، وما عليكِ الآن سوى التنفيذ.

ثم يصفعها على خدها بقوة؛ لتصرخ عبير عاليًا مستغيثة بأمها الواقفة كالتمثال أمامها؛ دون أنْ تحرِّكَ ساكنًا؛ـ كعادة الأم في العائلة الشرقية، فمسؤوليات كهذه تكون من اختصاص الرجال، ولا شأن للنساء فيها... بينما يبصق أبوها على الأرض وكأنه يتقيأ؛ وهو يرى منظر ابنته أمامه بتقزز؛ وكأن كرامته الإنسانية قد أُهينتْ!.. فيعقِّب على ما يشاهده قائلاً:

ـ ما عدتِ تنفعين حتى للزواج يا بنت... (وكأنها قد اقترفتْ خطيئة وأنَّ بكارتها قد فُضتْ قبل ساعات فقط)!.

ثم يشرع:

ـ حرام فيكِ التربية وما قدمناه لكِ طوال هذه السنين... (وكأنه ينتظر مكافأة لقاء ذلك)!.

يردف متأففًا حانقًا بعد أنْ غلى الدم في وجهه فصار بلون الطماطم:

ـ يا عديمة الحيلة فكِّري قليلاً يا ما لا نفع فيكِ أبدًا.

وواصل قائلاً:

ـ احسبيها جيدًا، فالزوج غني جدًا وأسرته معروفة.

ثم يرفع نظارته الكبيرة السوداء ـ وكأنها نظارة مكفوف ـ من على عينيه؛ لتظهر عيناه الجاحظتان لتبدوان كعيني التمساح، فيقول شارحًا كالمحامي، وهو يترافع:

ـ صحيح أنه قد تجاوز الأربعين عامًا بقليل، لكنْ لا ينقصهُ شيء سوى الزوجة التي تربي أولاده.

ثم يتغيَّر أسلوبه الواثق فجأة، فيصرخ هائجًا كالذي لسعته نحلة، ويقول:

ـ ثبتي عقلكِ في رأسك يا جاحدة، انهضي الآن، ولا تضيعي مزيدًا من الوقت هكذا هباءً، فهو في الطريق وسيكون بعد قليل هنا مع أسرته.

عندها يرفع يده وكأنه يودِّعُ أحدًا، ويستدرك قائلاً:

ـ لقد اتفقنا وحُسم الأمر، فلا داعي للكلام أو المماطلة، ولنْ يفيدكِ شيءٌ الآن أبدًا، هيا انهضي.

ثم يبصق على الأرض مجددًا، وهو يتحدَّث مع نفسه:

ـ حرام فيها الأكل والشرب.

تنهار عبير نتيجة الجهد الذي بذلته طوال الوقت؛ للدفاع عن حريتها وحقوقها الإنسانية التي تراها تُغتصب دونَ وجه حق، ولكنَّ مَنْ يسمع؟ وأخوها لا يعرف طريقة للتفاهم سوى الضرب والشتم والسب، وأُمها الخائفة الضعيفة التي ليس لها حول أو قوة؛ تشاهد منظر ابنتها المروع أمامها بصمت، والدموع تطفر من عينيها كحبات المطر، وتقول في سرها:

ـ ليعاقبني الله على ضعفي...

لكنها بقيتْ صامتة مستغرقة في التفكير بكآبة، وكأنها تخدع نفسها أو تحتقرها.

عندها يسود الصمت، فيطبق على كل المكان ليبدو وكان كل الأشياء قد تآمرتْ عن عمدٍ للتو!.

يصل كل من سعيد (الزوج المنتظر) وأُمه وأبيه وأخته هناء، وهم في نشوة عارمة، بينما تفوح من غرفة الجلوس رائحة كرائحة الخريف، فتسأل هناء عن غرفة عبير، فيشير وسام لها بيده هناك... تتوجه إلى غرفتها؛ لتصدم بالصورة التي تراها أمامها، فعبير مغشيٌ عليها، وأمها تحاول إسعافها بصمت وبذهول، وهي تقرِّب من أنفها عطرًا، فتهرع هناء مسرعةً إليهما؛ لتسكب كأس الماء الذي بجانب عبير، فترتعش عبير فجأة، ثم تجفل ثانيةً بعد أنْ استعادتْ وعيها، فتحاول الكلام بعجز؛ وكأنها فقدتْ النطق... تقترب هناء منها، وتسألها بارتباك:

ـ ماذا جرى يا أختاه؟!

ـ لا أعلم يا أختي العزيزة... (تجيبها عبير بصوت غير مسموع منهك وكأنها ما زالت تعاني من مفعول المخدر!).

ثم شرعتْ:

ـ في لحظةٍ ما لم أعدْ السيطرة على نفسي، فسقطتُ على الأرض دون شعور، ولم أعرف ما يجري حولي.

ـ لا تتكلمي يا عزيزتي الآن، اهدأي قليلاً وأنا سأهتم بكِ... (أجابتها هناء، وهي تدلك يدها، وتنظر لها بوجل، وكأنها في معبد وأمام الآلهة).

ثم أردفَتْ:

ـ ما هذا يا حلوة، نحنُ لا نملك سواكِ، وكم عبير نعرف.. أعوذ بالله.

ثم ترفع رأسها إلى أُم عبير متسائلةً بحيرة؛ وكأنها تسأل عن الطريق بعد أنْ تاهتْ وتقطعتْ فيها السُّبل؛ فقالتْ:

ـ أين هي سمر؟ فأنا لا أراها هنا؟

ـ لقد ذهبتْ إلى المكتبة لاستعارة بعض الكتب، ستأتي حالاً.. (أجابتْ الأُم برأفة، وبقليل من الهمة بعد أنْ رأتْ ابنتها في تحسُّن).

تنهض عبير بعد أنْ استعادتْ نشاطها؛ لتغسلَ وجهها الملائكي، وتسرح شعرها الذهبي، فتضحك مجددًا، ثم ترحِّب بهناء قائلةً:

ـ أنا آسفة جدًا يا عزيزتي، لقد شغلتُكِ معي فهذا ليس وقته، ولكنَّ الموضوع كبير، ولم أستطع استيعابه هكذا دفعةً واحدة.

في تلك الأثناء يدخل وسام، وهو يزأر كالأسد دونَ خجلٍ وبتهور، فقال:

ـ ما زلتِ لم تغيِّري ملابسك بعد؟! فالناس في الخارج ينتظرون قدومك، هيا.. ولا تجعليني أتخذ معكِ أسلوبًا آخر.

ثم أردفَ باستهتار:

ـ أنتِ تعرفينني يا.. هيا.. افعلي ما أمرتكِ به.

تتقدَّم هناء منه ببطء، كالشرطي، وتقول بحماس وصدق:

ـ ما هذا يا وسام، انظر إلى أختك إنها لا تقوى على الوقوف، وأنتَ تطلب منها أنْ ترحبَ بضيوفكم! أنا أستغرب من تصرُّفكَ هذا حقًّا

ثم أردفَتْ ـ كالذي يعاتب أحدًا:

ـ هناك أبوك وأُمك، وستأتي أختك سمر قريبًا، فلا داعي من وجود عبير إذن، دعها أرجوك، وأنا أعدك سأتكفل بأمرها، أرجوك.

طأطأ وسام رأسه كالحيران، وهو يمشي في الغرفة من ركنٍ إلى ركن؛ وكأنه يفكِّر في مسألة حسابية صَعُبَ عليه حلها، عاقدًا يديه خلف ظهره؛ ليبدو كالمعلم، وهو يمشي وسط طلابه، فنظر إلى أخته باحتقار، وقال:

ـ سأقتلها عاجلاً أم آجلاً، فأنا لم أعدْ أتحمل تصرُّفاتها غير المسؤولة... (قال ذلك بإحساس غريب؛ كمَنْ يخدع نفسه عن قصد!).

ثم خرج دون أنْ يلتفتَ، وهو مكفهر الوجه؛ كالغمامة، يدمدم:

ـ الشيطان نفسه سوف لنْ يخلِّصها منِّي سأقتلها.

ومَنْ يراه في تلك اللحظة وهو هكذا حانق وقلبه يدق بقوة، سيقول بأنَّ هذا الرجل مستعد أنْ يقترفَ الآثام كلها الآن عن طيب خاطر!.

يرحب أبو وسام بالضيوف مجاملاً؛ وكأنه في حفلة؛ فيقول:

ـ مرحبًا، أهلاً وسهلاً بكم، لقد زارنا السعد والله.

يرد عليه أبو سعيد مبتسمًا بشوشًا، ووجهه يبدو جميلاً يُدخل المسرة والفرحة لكل مَنْ حوله ـ كالشجرة التي تطليها الثلوج شتاءً ـ وهو يقول:

ـ شكرًا يا أخي أبا وسام، هذا من حُسن ذوقك، وكرم ضيافتك، وعلو وسمو أخلاقك.

عندها تدخل سمر المنزل باسمة فرحة؛ وكأنها تحفظ نكتة وتريد أنْ تقولها؛ فترحب بالضيوف بحرارة، فيقف سعيد أمامها صامتًا متأملاً، وهو ينظر لها بعيون مفتوحة مفتونة واسعة، فيقول:

ـ لقد انتظرنا قدومكِ يا سمر طويلاً.

ترد عليه ضاحكةً بغنج:

ـ وها أنا هنا.

ثم أردفَتْ:

ـ تفضل بالجلوس.

تصمت للحظة؛ وكأنها تريد أنْ تتأكد من أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام، فقالتْ معتذرة:

ـ سأعود حالاً.

وتوجهتْ لرؤية أختها.

دخلتْ سمر الغرفة لتجد أختها عبير في أحسن حال من الصفاء والانسجام مع ضيفتهم، فتقترب من هناء وتُقبِّلها، وتقول:

ـ كم أنا سعيدة برؤيتك يا أختي العزيزة.

ترد عليها هناء بكل أدب:

ـ وأنا أسعد يا أختاه.

تبدأ هناء بالاسترسال في الحديث مع سمر بصوتٍ هادئٍ كصوت جريان النهر الصغير:

ـ ها.. ما هو رأيك بأخي؟

تخفض سمر رأسها بين يديها، وهي تقول:

ـ إنه لا يُعاب على شيءٍ، وسيم، متعلِّم، وسنه يعجبني كثيرًا.
ثم شرعتْ:
ـ الرجل يجب أنْ يكون قد خَبِرَ الحياة، كي يستطيع أنْ يحافظ عليَّ.
في هذه الأثناء انتبهتْ عبير لما يدور حولها من حديث، فصعقتْ من الذهول، وقفتْ فجأة، وهي تصرخ:
ـ ماذا أسمع؟ وأكاد لا أصدق.
فتتوجه إلى هناء، وهي في حالة من الفزع والرهبة، فتسألها بعمق، إذ كانتْ تقف عند كل كلمة تقولها:
ـ أنتم تريدون أختي لأخيكِ، وماذا عني؟ يا إلهي، شيء غريب يحدث، غير معقول.
وبدأتْ ترطن بكلماتٍ غير مفهومة، وكأنها تهذي وقلبها يدق بعنف، ثم تردف:
ـ ولكنْ ماذا يعني إصرار أخي وأبي والضغط علي لأجل القبول؟ والقبول على مَنْ؟ وعلى ماذا؟ إن كان أخوكِ يريد الزواج من سمر وليس منِّي؟!
ثم تردد باستنكار:
ـ ردوا على أسئلتي، قولوا لي كلمة واحدة، وماذا يدور حولي؟ آه يارب، رأسي يكاد ينفجر.
تسمع هناء باستغرابٍ شديد ـ كالذي دخل منزلاً غير منزله ـ فقالتْ بتردد وارتباك:
ـ لابد أنَّ هناك سوء فهم قد حصل.

ثم أردفَتْ دونَ تكلُّف بعد أنْ تشجعتْ قليلاً، فقالتْ:

ـ أخي لا يريد الارتباط بكِ، وهو يحب سمر حد الجنون، ومن أول نظرة عندما رآها في الجامعة ذات يوم، وهو في زيارة لصديقة؛ لذلك قرَّر أبي في حينها أنْ يمهد للموضوع، فتكلَّم مع أبيكِ ولكنْ قد يكون الأمر لبسهُ سوء الفهم، إذ أننا نجهل اسم سمر إلا منذ فترة قصيرة؛ لذلك أعتقد أنَّ أباكِ قد فَهِمَ النوايا على أنها موجة لكِ وليس لسمر.

ثم تضحك بصوتٍ عالٍ، وتضحك معها سمر، فتضحك عبير هي الأخرى، فيهرع الجميع إلى دخول الغرفة؛ ليتأكدوا ماذا يجري هناك؟ فالضحك والقهقهات العالية كانتْ تهز أركان المنزل كلِّه وبقوة، كالضحكات التي يطلقها الچنرالات هئ هئ هئ.



في ساعة حُزنٍ شديدٍ؛ كالبكاء الأخرس؛ من نهارٍ لم يعرف سوى الهدوء والوجوم، الجو خانق وغارق بالسكون كالحِداد، لا صوت ولا حركة، وحتى الهواء الذي يدور في المكان كان ثقيلاً، ولا يدعو إلى ثمة حياة تنبض؛ لتبدو شقة سوزان وكأنها مسكونة بالأشباح!.

رنَّ جرس الهاتف، فقطع الصمت ولوَّثَ الهدوء وبشكلٍ متواصل، الشقة التي لم يكن أحدٌ بداخلها سوى سوزان السارحة في خيالٍ لا بُعد له ولا قرار، وابنها عامر ابن الخمسة أعوام الذي يغطُّ في نومٍ عميقٍ كالمسحور... استمر جرس الهاتف يقرع نفسه بتواصلٍ مزعجٍ كريه، دونَ أنْ يحرِّكَ طرفًا من سوزان، التي كانتْ تحت تأثير عصبي ونفسي عجيب، لم يجعلها تتفاعل مع ما يحيط بها في تلك الأثناء؛ وكأنها في حلمٍ، أو تحت تأثير مخدر قوي المفعول... ظلَّتْ جالسة قُبالة ابنها، وهي تنظر نحو اللا شيء وبلا تحديد؛ وكأنها غائبة عن الوعي.

تزوجتْ سوزان من مديح (الكاتب المعروف في الأوساط الفنية والأدبية) قبل أكثر من عشرين عامًا، بعد قصة حبٍّ خاطفةٍ وسريعة أربكتها، ولم تجعلها تأخذ وقتًا كافيًا في التفكير، أو حتى التعرُّف على ميول وشخص مديح بشكلٍ كاملٍ وصحيح، خاصةً

عندما انكشفتْ لذويها علاقتها بمديح عن طريق الصدفة، تلك العلاقة التي كانتْ في مهدها ـ لا تستطيع النطق بعد ـ عندها مارسَ أهلها دورهم التقليدي المعروف معها، وبكل وسائل الضغط العربي: من إهانات، وتجريح، وشتم، وضرب، ويا لها من أيام قضتها سوزان تحت وطأة القهر والتطاول والخذلان! فلم تجد من طريقة للخلاص إلا الانتحار، فأقدمتْ عليه دونَ أنْ تطرُّفَ لها عين أو يخفق لها قلب، ولكنْ كُتِبَ لها الحياة بإعجوبة خارقة كالمعجزة.. لتتزوج بمديح بعد رحلة عذاب قصيرة لكنها مُرة وقاسية.. وها هي الآن مع ابنها الشقي المحبوب النائم في شقتها الغارقة بالهدوء والسكينة ـ لتبدو وكأنها كهف مهجور ـ وجرس الهاتف ما زال يرنُّ كصوت الرعد في ليلة ماطرة!.

تمتعتْ سوزان منذ صباها بجمالٍ يهوديٍ خارق، تشع عيناها سحرًا غريبًا جذابًا لا يقاوم، يتموج شعرها الحني اللون على أكتافها بعد أنْ فشلتْ كل محاولات ترويضه، فتركته على طبيعته، فتمرَّد على الأكتاف والظهر ووصلَ حد الخصر، في حين كان زوجها يكبرها بثلاث سنوات، وهو الآن في أواسط الحلقة الرابعة، شخصية جدية تصدها عن عبث الهازلين، جميل الطلعة، سهل وهادئ الطباع، واثق من نفسه وثوق الأسد من قوته، قليل الكلام، لكنه متحدِّث جيد عندما يرغب، وله أسلوبٌ خارق في الإقناع ـ كالنبي ـ كثير التفكير والتأمل، له قلبٌ طافح بالرأفة والتسامح، وعندما يضحك تبرُّق أسنانه اللؤلؤية المفعمة بالصحة، يتجنب التجمعات كثيرًا، ويهوى العزلة والهدوء ويفضلهما على كل شيءٍ، غلبتْ على كتاباته سمة الدفاع عن حقوق المرأة، ودافع في أغلب كتاباته عن الفقراء، ونادَ

بالحرية، وتمنى أنْ يختفيَ الشر عن الأرض، ويسود السلام كوكبهم الغارق في الهمِّ والكدر، لاقتْ كتاباته رواجًا كبيرًا، وكتبتْ الصحافة عنه كثيرًا، بينما أطرى النقاد بفخرٍ على قلمه، فأصبح مع الوقت من الشخصيات المعروفة التي يجري وراءها المعجبون والمعجبات على حدٍ سواء، وصورته تتوسط صدور المجلات والصحف كل يومٍ، ومع ذلك ظل مديح وفيًا لزوجته محبًا لابنه... ولكنْ ما هي درجات الوفاء والحبِّ في الأعراف؟ ليبقى كل شيءٍ نسبيًا، حتى الأهواء والعواطف والميول.

ما زال جرس الهاتف يصرخ بعنادٍ، معلنًا عن وجوده المهمل في تلك اللحظات من ذلك النهار الرهيب، الذي تخيِّم فوقه الكآبة ويسوده السكون المشحون بالقلق والتوجُّس. وأخيرًا صحتْ سوزان على نفسها؛ وكأنها أفاقتْ للتو من نومٍ عميقٍ وطويل؛ فرفعتْ سماعة الهاتف بلا رغبة، وبخمولٍ عجيب استولى على كل جسدها، ثم ردتْ بتريُّث، وبصوتٍ لا يكاد يُسمع:

ـ مَنْ هناك؟

ـ وأخيرًا...

أجابتْ هيام (صديقة سوزان الوحيدة والمفضلة لها)، وأردفَتْ مستفسرة بحيرة:

ـ لقد قلقتُ عليكِ كثيرًا، ماذا جرى لكِ؟ وهل أنتِ على ما يرام؟ أرجوكِ أخبريني، فالحسرة والخوف عليكِ يعتصران قلبي بألم.

ردَّتْ سوزان عليها باقتضاب:

ـ لا تقلقي أنا بخير!.

ـ لكنَّ صوتكِ، وتأخركِ برفع سماعة الهاتف، والرد المقتضب كلها أمور لا تنمُّ على إنكِ بخير؛ كما تريدين أنْ توهميني!.

ثم استدركتْ سائلةً:

ـ أليس كذلك يا صديقتي الحبيبة؟!

ـ لا ليس كذلك.

ثم صمتتْ؛ وكأنها ذهبتْ إلى مكانٍ آخر.

تصرخ هيام بشكل عفوي:

ـ سوزان.. سوزان، هل ما زلتِ على الخط؟

صمتٌ وهدوءٌ يعلو المكان وجو المكالمة... ثم أجابتْ سوزان برنَّة حزينة، وكأنها تتأسف:

ـ لا تتعبي نفسك معي يا هيام أكثر، وكما قلتُ لكِ قبل يومين، فقد حزمتُ أمري، وسوف أُنفِّذ ما قرَّرته اليوم دون تأخير، أو تردد.

ثم تابعتْ بانفعالٍ متهدج:

ـ سوف لنْ أندم، ولنْ أعطي فرصة أصلاً للندم! وعلى ماذا أندم؟

واستدركتْ بلهجةٍ ذات دلالة، وبتحمس جنوني قائلةً:

ـ سأُنفذ كل شيءٍ ببرود لا يعرفه سوى المتمرس في الإجرام! ولا يعهد به إلا من ذوي أصحاب السوابق!.

وواصلتْ دونَ وعيٍ:

ـ لنْ نستحق أكثر! لنْ نستحق.

ثم أجهشتْ في البكاءِ، وهي منكمشة على نفسها بذعرٍ مرعب.

سألتها هيام بلُّطفٍ مبالغ فيه، وهي تخفي وراءها رعبًا زائفًا (شعرتْ به سوزان فورًا) بعد أنْ داعبها فجأة أملٌ غامض:

ـ عزيزتي، وحبيبة قلبي سوزان كُفي عن البكاء، وصارحيني.. هل تشكين في حُسن نواياي وحبي لكِ؟ أنا لا أريد إلا السعادة لكِ ولعائلتك صدقيني.

ثم استطردتْ بشيءٍ من الثقة المثيرة للقلق:

ـ لم تجيبي على تساؤلاتي بعد.. هل أنتِ مريضة؟ هل ابنكِ عامر بخير؟ هل اكتشفتِ أنَّ مديح يخونك مثلاً؟! أرجوكِ قولي لي، ولا تجعليني أبكي بصمتٍ كالخرساء المتألمة!.

ـ أنا لستُ بمريضة...

أجابتها سوزان بحرصٍ مثير للفزع، ثم أردفَتْ بنفورٍ غير متوقع كمَنْ يمضغ حسرات هزيمة لحقتْ به للتو، وقالتْ:

ـ عامر بخير وبصحة قد يُحسد عليها، أما عن مديح، فهو يحبني حد الجنون كما أحبه!.

وتابعتْ باعتزازٍ وكبرياء:

ـ لا تقلقي يا صديقتي الغالية، فنحنُ جميعًا بخير!.

خابَ ظنها، وتهاوتْ قدرة هيام على إقناع سوزان بالعدول عن قرارها المجنون ذاك، أو حتى بالتصريح عمَّا تنوي أنْ تفعله بالضبط، فالكثير من أسئلتها بقيتْ مجهولة الجواب، وتنتهي بعلامات استفهام كثيرة (بالنسبة لها) فشعرتْ بتسرُّب اليأس إلى قلبها بعد أنْ شَلَّ تفكيرها، لكنها وعتْ على نفسها فجأة، فصرختْ دونَ إرادة، وهي تقول مقتضبة وبانفعالٍ صريح:

ـ عليكِ أنْ تعلمي يا سوزان، بأنكِ سترتكبين حماقة لا تُحمد عقباها.

ثم أردفَتْ بذات الرنَّة المنذرة:

ـ عندها ستتذكرين كلامي، وتقولين: يا ليت الذي جرى ما حصل!.

ـ وماذا يعني لي كل ذلك؟ لا شيء، فالتعلُّق بالحياة رغم آلامها نوعٌ من الجُبن والتفاهة، وهذا لا أقبله على نفسي.

ثم استطردتْ بتحدٍ وحزم:

ـ فكلمات كالحماقة، والعاقبة، والذنوب، وحتى الموت كلها أسماء لشيءٍ واحدٍ بغيض، اسمه الحياة!.

طوقها القلق كخاتمٍ في إصبع؛ وهي تردد:

ـ أرجوكِ يا سوزان لا تكفري بالقيَّم، ولا تشكِي بوجود الأخلاق.

ثم أردفَتْ بعد أنْ سحبتْ نفسًا عميقًا:

ـ إذا أردتِ سأحضر لأكون بجانبك، ها.. ماذا قلتِ؟

بإصرارٍ جهنمي ردَّتْ سوزان عليها:

ـ قلتُ لا.

ثم تابعتْ بجمودٍ:

ـ سوفَ لنْ تجدي أحدًا يفتح لكِ بابًا، أو يرد عليكِ جوابًا!.

ثم استدركتْ بصدقٍ خالطه الجد والحزم:

ـ أسئلتكِ تبعث في نفسي مسرَّة عمياء، وإحساسًا وهمي بالانتصار أتعلمين ذلك؟

ـ أنتِ عنيدة كالبغل، واعذري لي كلمتي هذه، وتختارين الكبرياء ولو كلفكِ ذلك حياتك.

وواصلتْ بإطراءٍ غريب:

ـ وكما يُقال: الموت في دعةٍ خيرٌ من الحياة في سقمٍ.

ثمَ تابعتْ قائلةً:

ـ دعكِ منِّي الآن، وفكَّري بمستقبلكِ أو في مستقبل أسرتكِ على أقل تقدير!.

ـ المستقبل!... قالت سوزان هازئةً:

ـ المستقبل سيكون للآخرين بعد قليل ذكرى؛ كما الماضي.

ثم تابعتْ قائلةً:

ـ حرف اللوعة (لو) الذي يطمح دائمًا وبحماقة عجيبة؛ لإعادة وخلق كل ما يتمناه المرء دونَ فائدةٍ ترجى؛ كتغيير التاريخ مثلاً، وقد يقطع، أو يأتي في موقعٍ يحفز على الكفر؛ لأنه بذلك يخالف إرادة الله المقتدرة الحكيمة.. أليس كذلك يا صديقتي الحميمة؟ (جاء جوابها قويًا ومؤثرًا كالصفعة)

وخز قول سوزان هيام كطعنةٍ في العين، فانتابها قلقٌ شيطاني حجبته عن الظهور بصعوبة بالغة، لكنها شعرتْ في ذات الوقت بحجم المأساة وخطورة الموقف، فقالتْ بهدوءٍ سترتْ فيه يأسها وقلقها، وهي تسمع تلك الكلمات التي ليس لها إلا معنى واحد، فصاحتْ بذهولٍ حقيقي:

ـ يا إلهي لا أستطيع أنْ أُصدِّق ما سيحدث!.

ثم انقطع الخط فجأة، وساد الأثير صمتٌ قاتلٌ لا يبعث إلى الراحة ولا ينتمي إلى الهدوء أو السكينة.. صمتٌ مريضٌ جنائزي له رائحة ووجه الموت، وهيبة، وجبروت الدمار.. صمتٌ رهيبٌ مخجلٌ، كشعورِ المرءِ أحيانًا بخزيه، أو ذنبه، أو إثمه.



بقيتْ "أُم سعيد" في منزلها، تعاني الوحده المريرة القاسية بعد أنْ ماتَ زوجها في الحرب، وسافرَ ابنها الوحيد مع زوجته خارج أسوار الوطن؛ لتبقى أُمه سجينة العزلة الانفرادية، وهي تحترق في كل لحظة بنار القلق والخوف كما تحرق أعوادُ البخور نفسها عندما تمنح العطر للآخرين.. فالصمت المرعب، الذي لازمَ حياتها الرتيبة المملة، الذي له طعم الألم، ليبدو حبسها لنفسها داخل المنزل كالصورة المطوقة بإطاراتها، إذ تنهض عندَ الصباح وقبلَ أنْ تستجمعَ الشمس حرارتها؛ لتنظر إلى يومها فتراه كسابقه لا جديد فيه، فتعيش أوقاتها بلا حياة أو رغبة ـ كالشخص النائم مغناطيسيًا، يأتي بحركاتٍ معينة ويتكلّم، ويفصح عمَّا تخزنه ذاكرته بلا إرادة ـ ببساطة لقد أُجبرتْ أُم سعيد على أنْ تحيا الحياة بهذه الطريقة المميتة، التي لا تسرُّ السماء، ولا ترضي الشيطان نفسه، قسرًا ودونَ اختيار تتصل بابنها بينَ الحينِ والآخر، وهي تبكي بفزعٍ كمَنْ يسخر من خوفه، لتقول له برجاءٍ مخذول:

ـ يا بني أستحلفُكَ الله أنْ تخلصني من هذا الطوق الذي يخنقني، أودُّ أنْ أكون معكم وبجانبكم، وليستْ لي أمنية أخرى في الحياة سوى أنْ أقضي ما تبقى لي من أيامٍ لخدمتكم وبقربكم.

ثم تشرع، وهي تلوح بيدها في الفراغ كمَنْ يشير لشخصٍ ما عن بُعد:

- أرجوكَ يا بني حقِّق لي طلبي.

وهي تشهق ببكاءٍ مُرٍّ.

اشتعلتْ كلماتها في أذنه، فظل باهتًا، وهو يتعذب بصمتٍ كمَنْ يعرف أجله، ثم وعى على نفسه، وهو غارقٌ في دموعه، فقال لها بلُطفٍ:

- ماما، أرجوكِ أنْ تتوقفي عن البكاء، أتوسل إليكِ، افعلي هذا من أجلي، أرجوكِ، أعدكِ بأنني سأفعل كل ما بوسعي كي أخرجكِ من العراق، لكني أحتاج لبعض الوقت، واعلمي بأني سوفَ لنْ أتخلى عنكِ أبدًا.

جلسَ على حافة السرير خائفًا قلقًا، بينما الأفكار تدور في رأسه بشكلٍ جنوني، وهو يهذي كالمحموم، بعدَ أنْ زحفَ اليأس إلى قلبه كما يزحف الظلام على الأرض وقت الغروب:

- يجب أنْ أحاول أنْ أفعل شيئًا، لقد وعدتها لا يمكن السكوت أكثر، إنها أمي ولا تملك في الحياة غيري، يجب أنْ أكون رجلاً يستحق الحياة بكرامة.

ثم يقف صارخًا بأعلى صوته ـ كالذي أصابه المس للتو:

- سناء، أينَ أنتِ يا سناء؟

تتقدَّم زوجته منه بسرعة، وهي في حالة من الذهول والفزع:

- ماذا هناك يا رجل؟ لماذا تصرخ هكذا كالمجنون؟ ما الذي حصل؟

يدمدمُ سعيد بكلماتٍ سريعة؛ وكأنه ممتلئٌ بها ويريد التخلُّص منها، فقال، وهو يمسك بطرف ثوبها كالطفل:

ـ إنها أمي، وتعيش وحيدة ـ كما تعلمين ـ وقد يصيبها مكروه، ولا يستطيع أحدٌ مساعدتها، فهي امرأة مسنة وبسيطة.. أرجوكِ دعينا نساعدها!.

ردَّتْ عليه زوجته بهدوءٍ بعد تفكيرٍ قصير، وقالت بحزم؛ كعهد المرأة عندما تتخذ القرارات:

ـ لنبعْ السيارة، ونضيف ما جمعناه منذ سنوات، لعلَّ ذلك يكفي لتسديد تكلِّفة وصولها لنا بسلام، مادامتْ هذه هي رغبتها وحلمكَ.

سحبها من يدها وطوَّق خصرها؛ كما يطوُّق الخاتم الإصبع؛ ورسمَ على شفتيها قبلةً حارة، امتنانًا وعرفانًا لشجاعتها، وموقفها الثابت الحميم.

لم يمضِ سوى ثلاثة أشهر؛ لتكون أُم سعيد ضيفة العائلة التي تتكون من ابنها وزوجته وأولادهما الثلاثة، رحبوا بها، وطلبوا منها برجاءٍ صادق أنْ تفصح عن كل ما يضايقها، أو ما تحتاجه كي يعيش الجميع تحتَ سقفٍ واحد بسلامٍ ووئام.

مضتْ الأيام بطيئة على قلب أُم سعيد في موطنها الجديد، وحياة الغُربة لم تكن متوقعة لديها، فأوقاتها كانتْ تسير بجمودٍ دونَ حركة تذكر، وببرود كالسُّبات، وبعزلة وقسوة وخشونة شديدة كالمسجون؛ لم تألفها، فالحياة الجديدة أصبحتْ لها كاللون الأبيض، حيادية كالموت... ولكنْ تبقى جوانب كثيرة من حياة الغربة أنيقة مهذبة،

نظيفة ومسالمة، ولكنْ ما دخل كل هذا بحياة تلك المخلوقة البسيطة، التي لا تجيد القراءة والكتابة، ولا تعلم من أسرار الحياة سوى حبها لابنها ولأسرته، وتحفظ في قلبها ذكرى طيبة لزوجها، فبدأتْ رحلتها معَ حياتها الجديدة في الغربة بطريقٍ شائك لا تعلم معالمه، سوى أنها أصبحتْ بينَ ليلةٍ وضحاها إنسانة مهملة وحيدة، وتعاني العزلة من جديد وبشكلٍ سافر وسط لغة لا تفهم منها سوى طنينها، الذي يؤذي أُذنيها عندما تسمعهم يتحدَّثون بها، بينما كانتْ في العراق تستطيع أنْ تذهب إلى السوق، وأنْ ترى جيرانها وتسامرهم عند العصر أمام عتبة الدار، أو تستقبل بعض الضيوف الذين يسألون عنها بينَ الحينِ والآخر، ولكنَّ الوضع في حياة الغربة قد تغيَّر تمامًا... فبعد أنْ يذهب ابنها وزوجته إلى العمل صباحًا، ويلتحق الأولاد بمدارسهم، تصبح أُم سعيد وحيدة إلى شيءٍ غير ناطق جامد كقطعة من أثاث المنزل؛ لا تتكلَّم، ولا تشعر، ولا تسمع، وإنْ سمعتْ فهي لا تفهم، وإنْ خرجتْ من المنزل، فسوف لنْ تعود إليه ثانيةً، وإنَّ أبسط الأمور التي تحيط بها لا تعرف التعامل معها، أو فك رموزها، حتى أزرار المصعد الكهربائي لنْ تجيد استخدامها، لا أحد يتحدَّث معها، أو يدعوها ـ كما كانتْ سابقًا في العراق ـ لشربِ الشاي عند جيرانها مثلاً، باتتْ تثرثر مع نفسها كالوقواق، تضحك وتبكي وتصمت دونَ شعورٍ، بينما أنفاسها باتتْ محتبسة من الخوف والقلق والجزع الذي تسلَّل إلى روحها... وعندما تجتمع الأسرة مساءً ينظرون لها، وإذا بعيونها حمراء منتفخة، وسحنتها ذابلة شاحبة كالماء، ومَنْ يراها سيقول: إنَّ هذه المرأة ستفارق الحياة قريبًا.

صمتها وعزلتها وعدم مشاركتها لأفراد الأسرة، جعلتْ منها شخصًا منسيًا، أو كمَنْ لا وجود له أصلاً، تذهب للنوم مبكرًا، وغالبًا ما كانوا ينسونها طريحة الفراش ـ كالميت.

وفي إحدى الأيام الباردة، جلستْ أمام ابنها ونظرتْ له دونَ أنْ تطرُّف، وقالتْ بصوتٍ مبحوحٍ؛ كالذي انتهى للتو من نوبةِ بكاء:

ـ أرجوكَ يا بني، أتوسل إليك أنْ تلبي طلبي.

ـ وما هو طلبكِ يا أمي؟

(قالها، وهو يمط شفتيه، ويحاول الكلام بصعوبة)

تجاهلتْ سؤاله، واستمرتْ بعرض مشكلتها؛ وكأنها أمام دكتور يريد فحصها، فأردفَتْ، وبدا الشحوب على وجهها واضحًا، شاخصةً النظر إليه:

ـ أنا لا أملك غيركَ في الحياة، ولا أستطيع اللجوء والرجوع إلا إليك.

قاطعها مقطبًا حاجبيه، وصوته بدأ يتهدج، وهو يهتف بجزع:

ـ قولي يا أُمي ما تريدين مباشرةً، ولا تجعليني صريع الأفكار الشريرة المجهولة، التي تدور في رأسي.

ـ نعم يا عزيزي، أنا أتفهم غضبك جيدًا، لكني أعرف أيضًا بأنَّ ما سأطلبه منكَ ليس بالشيء الهين، إنه صعبٌ وقد لا تنفذه لي.

ـ لا عليكِ أعدكِ بأني سأنزل على رغبتك، وأنفذ كل ما تطلبين.

ثم استأنف كلامه، وهو يلوح بيده، والخوف يزدادُ عمقًا في نبرة صوته، وقال:

ـ أنا مَنْ يتوسل، ويرجو يا أُماه، قولي ما عندكِ كي ترتاحين وتريحين.

رفعتْ نظرها إلى السقف؛ وكأنها تناجي السماء، وتطلب منها العون؛ وهي شاهرة يدها؛ كمَنْ يبتهل، فاستطردتْ قائلةً:

ـ يا بني أنا هنا أشعر بأني كالميت، أقصد كالذي يعيش في قبرـ معذرةً ـ أريد أنْ أقول بأني هناك... وهي تشير بيدها النحيفة كالعصا نحو إحدى زوايا الغرفة... ثم بدأ صوتها يختنق، ولا يكاد يُسمع؛ كشخصٍ استيقظ فجأة من كابوسٍ مرعب، وعلتْ على محياها ابتسامة شاردة، وهي تتمايل في مكانها كلهيبٍ متراقص.. وابنها ينظرُ لها بعيونٍ متعبة؛ كمَنْ لفحته للتو رياح عاتية قوية... فقالت بقلق:

ـ هناك الحياة أفضل لي بكثير.

ثم أردفَتْ بحزمٍ، وبشكلٍ قاطع:

ـ أريد أنْ أرجع إلى العراق.

صمتتْ، كأنها تحاول أنْ تخمن رد فعل ابنها، وأردفَتْ بعد أنْ ارتجفتْ شفتاها، وهي تحاول الابتسام بصعوبة؛ لتخفيف وقع الصدمة على ابنها، الذي يستمع لها بذهول بعدَ أنْ طار لُّب عقله، ثم شرعتْ تقول:

ـ هنا أشعر بأني لستُ أنا، غريبةً على نفسي.

وأردفَتْ بصدقٍ:

ـ يعني كيفَ أشرح لكَ ما يخالجني من ضيقٍ؟

وهي تفرك يدها بقوة كشخصٍ يشعر بالحرج:

- إنني هنا أموت في كل دقيقة، وأنتَ لا ترضى بأنْ يكون حالي هكذا، فهو لا يسعد حتى الشيطان.

انصهر قلبها في دموعٍ حارة ملتهبة، وغاصتْ روحها في فراغٍ ليس له قرار، وهي تستنجد الرحمة بصمت المحتضر، وهي تردد بتوسل كالشحاذ:

- أرجوكَ يا بني اسمح لي بالعودة، فهناك بلدي وناسي ولغتي وبيتي ومقبرتي في انتظاري أيضًا.



تصدر من أُمي صرخةً مدوية، كالتي تطلقها المرأة في حالة الولادة تهز أركان شقة خالتي أُم سامر من جذورها، تنتحب وتبكي، وترثي أختها الملقاة كسجادةٍ على الأرض بعد أنْ فارقتْ الحياة قبلَ لحظات، فتقفزُ أُمي صارخةً، وكأنها تريد تمرير الحبل من تحتها كي لا تقع؛ وتهز رأسها ذات الشمال وذات اليمين كالبندول، وتنفشُ شعرها الفضي بعدَ أنْ مزَّقتْ ثوبها، وتقول:

- أختاه لماذا ذهبتِ وتركتِني هنا وحيدة في هذه الغُربة القاتلة القاسية؟ سأشعر بالتعاسة من بعدكِ، ها.. أجيبيني بالله عليكِ، ولا تجعليني أتحدَّثُ مع نفسي كالمجنونة، فلم يبقَ لي أحدٌ من بعدكِ، لماذا ذهبتِ؟!.

فتصرخ مجددًا، فتحدثُ دويًا عارمًا في الشقة؛ تمامًا كالصفارة التي تطلقها باخرة حينَ تستعد بمغادرة الميناء.

تجرحُ أُمي خدودها بأظافر يدها دونَ وعيٍ أو إدراكٍ، وهي في حالة إعياءٍ شديدٍ، فتنزف، فتسقط الدموع على الجروح الملتهبة؛ ليزداد المنظر هولاً ورعبًا، تنزلّق الدماء والدموع الحارة على صدرها العاري المكشوف، وأبقى أنا انظر إلى هذه المأساة كما تنظر الغزال إلى النمر في لحظة صيدها.. كانتْ نظراتي شاردة

ساكنة، لا تمثلني، ولا تنتمي إلى هذا العالم، وتكاد تنطق بمليون سؤال وسؤال دونَ أنْ أجد لها أي جواب.

يرتعشُ جسدي، ويهتز كقصبة في مهب الريح؛ من الخوف والفزع والمنظر المرعب، الذي أشاهدهُ أمامي، فيعتصر قلبي حرقة لم آلفها فيكاد ينفجر، عندها لم أشعر بأنَّ ساقيَّ تستطيعان حملي، أو كأنهما ليسا موجودين، فأخرُّ ساقطًا على الأرض بينَ الوعي واللا شعور، وفي هذه اللحظة بالذات يدخلُ ابن خالتي "سامر" مرعوبًا راكضًا كمَنْ شاهدَ حريقًا هائلاً شريرًا، وهو يدمدمُ:
ـ أُمي حبيبتي، لا تتركيني وحيدًا هنا، أرجوكِ.

ثم يقول كلماتٍ لم أفهم لها معنى، ويحاول أنْ ينتشلني من الأرض، ولكنَّ المنظر جعلهُ أكثرَ برودًا كالمصدوم لا يتحرك، فأُمي أصبحتْ تبكي بهستيريا أكبر، وتدقُّ صدرها العاري بقوة براحة يدها، حتى بانَ لي بأنَّ قفصها الصدري الهرِّم سيتحطم لا محال؛ كعيدان ثقاب؛ تحت تأثير ضرباتها القاسية تلك، وتنتحبُ وكأنها تعاني، أو تقاوم لحظة الموت المفاجئ.

انتبه سامر على نفسه، فدفعني إلى خارج الشقة، وهناك حضرَ المدير الفني لصيانة البناية؛ النمساوي الأصل؛ هلعًا، وهو يقول:
ـ ما هذا؟ وما الذي يحصل هنا؟

فينزع نظارته ذات الإطار الفضي، والعدسة الدائرية؛ وكأنها نظارة المقاتل الليبي عمر المختار، ثمَ أردفَ بتهالك قائلاً:
ـ لقد فزع سكان البناية من هذه الأصوات التي تخرجُ من شقتكما كالرعود.

وواصلَ كلامه منهارًا:
ـ علمتُ بأنهم اتصلوا بالبوليس، وهم في طريقهم إلينا الآن، أرجوكما قولا لي: ما الذي يحدث؟

وما أنْ استعدتُ قوتي، وبدأتُ في الوقوف مجددًا، حاولتُ النطق وكأنني عشتُ طوال حياتي أخرس، وها أنا أحاول التكلُّم لأولِ مرة، فقلتُ:

ـ خالتي.. خالتي قد توفيت، وأُمي.. أُمي في حالة يائسة تُعزي أُختها بطريقتها الشرقية، وأنا.. أنا وابن خالتي ـ كما ترى ـ لا نقوى على الوقوف، أرجوك قدِّر ظرفنا وحالنا البائس، ودعنا نتدارك الموقف لنفعل شيئًا...

لم أُكمل كلامي، ليحضر البوليس، وهيئتهم وحدها كانتْ كافية لإدخال الرعب في قلوبنا المحطمة، ليبدو وكأنهم حضروا ليلقوا القبض علينا، فأشارَ سامر بيده، وهي ترتعش:
ـ كانتْ ناقصة وستكمل على أيديهم!.

ظهرَ ضابط البوليس مع زميلته الجميلة، التي تبدو وكأنها قادمة لتوها من حفلة، تعلو الابتسامة محياها، لتقف أمامي كما يقف الچنرال في ميدان الحرب بساقين مبتعدتين عن بعضهما البعض ليكونا كرقم ثمانية، فبادر الضابط بسؤالي ببرودٍ حادٍ ـ وكأنه يطلب من النادل أنْ يحضر له نبيذه المفضل ـ فقال:
ـ ما الذي يحدث هنا؟

قلتُ، وأنا أفركُ رأسي ـ كالقرد عندما يفكِّر ـ في الحقيقة كل ما في الأمر... ثم شرعتُ مسرعًا كالطلقة، فقلتُ له:

ـ من الأفضل أنْ تفتح باب الشقة لتلقي نظرة لما يحدث في الداخل بنفسك، فأنا أعجزُ عن التعبير، وكما ترى منهار جدًا، والشيطان وحده يعلم ما أعانيه في هذه اللحظات الحرجة القاسية.

عندها تقربتْ منِّي زميلته لأشمَّ فيها رائحة زكية كعطرٍ فرنسي أجهل نوعه، لكنه ساحر، فأنتفضُ مجددًا وكأني ولدتُ من جديد، فتسألني بعيونها الزرقاء بلون السماء، حتى كدتُ أُصدق بأنَّ عينيها هما اللتان كانتا تنطقان:

ـ مَنْ هذا الذي بجانبك؟

قلتُ منتعشًا:

ـ إنه سامر ابن خالتي، وأُمه هي التي توفيت منذ قليل، وهذا الصراخ والعويل الذي تسمعينه، فهو صادرٌ من حنجرةِ أمي، التي ترثي أختها بطريقتها الشرقية.

ثم استطردتُ :

ـ تفضلي.. يمكن لكِ أنْ تتأكدي بنفسك، كما أنَّ المنظر أراه استثنائيًا للغاية لكم، ولنْ يحدث عندكم إلا مرة في كل ألف عام، وقد لا يحدث أبدًا.. تفضلي وألقي نظرة.

استغربتْ من طريقة حديثي، ووصفي للأشياء، ومن عدم اكتراثي، وحتى لاستعادة نشاطي بشكلٍ مفاجئ، ومَنْ ينظر لي في تلك اللحظة، يعتقد جازمًا، بأنني قد ربحتُ للتو "بطاقة يا نصيب"!.. فالنشوة التي كنتُ فيها لم أعهدها في طبعي من قبل، وأنا استغرب من تصرُّفاتي معها، ومن طريقة كلامي، ووصفي للموقف، وأنا

الذي كنتُ قبل لحظاتٍ لا أستطيع النطق أو الوقوف ـ سبحان مغيِّر الأحوال ـ قلتُ ذلك، وأنا أضحك كالهمس في داخلي كالطفل، بصوتٍ لم يسمعه سامر.

رجعَ الضابط إلى الوراء مصعوقًا، وهو يشهر مسدسه عاليًا كالسيف، ويقول آمرًا:

ـ قفا ولا تتحركا.

ويطلب من زميلته الاتصال بزملائهما لمساعدتهما، ويردف صارخًا بعدَ أنْ فقدَ توازنه، قولي لهم محاولة انتحار، واطلبي سيارة إسعاف حالاً، فالموقف خطير جدًا وحساس للغاية!.

ثم يتقدَّم نحوي، ويبادرني بالسؤال بحذرٍ شديدٍ، وعن بُعد مترين تقريبًا، وهو شاهر سيفه (أقصد مسدسه) وكأنه يحملُ بيرقًا في يده:

ـ كيفَ توافق على تصرُّفاتِ أُمك، وأنتَ تنظر لها، وهي تشرع بقتل نفسها؟! إنها محاولة انتحار واضحة، يعاقب عليها القانون المدني.

ثم يشرع بالشرح:

ـ محاولة قتل النفس جريمة إلا تعلم ذلك؟

وأردفَ متقهقرًا:

ـ كما أنَّ الجريمة الأخرى التي أراها أمامي ماثلة، والتي لا تحتاج إلى شهود عيان، إنكم تقومون بتلويث قدسية الميت بتصرُّفاتكم هذه، فللميت قدسية يجب أنْ تُحترم وتُقدَّر، كما هي للإنسان الحيِّ تمامًا، وقد تكون أكثر قدسية وإجلالاً، فالشخص الحي يستطيع أنْ يدافع على حقوقه وحريته متى تسلب منه، لكنَّ الميت لا يستطيع

فعل ذلك، ولو كان الميت حيًّا لأقام الدعوة القضائية عليكم بنفسه!.. وتحت هذه الظروف الماثلة أمامي، أرى من واجبي أنْ نقيم الدعوة نحن بدلاً من المرحومة.

ويردفُ متململاً:

ـ أعوذُ بالله، أي نوع من البشر أنتم؟! فللميت هيبة آدمية لم تراعوها، فأزعجتم المرحومة، وهي في نومها الهادئ القدسي الجليل، كما أنكم...

وبدتْ من بين أسنانه ضحكة خبيثة ـ وكأنه يستشفي فينا ـ فقال:

ـ الجريمة الثالثة: هي أنكم قد أزعجتم سكان البناية كلها، وأرهبتموهم بأصواتكم العالية هذه، التي تشبه صراخ الفيلة.

ثم فجأة غلى الدم في وجهه، وبدأ يتكلَّم كالقاضي، بعدَ أنْ بانتْ شرايين رقبته واضحة لي وكأنها تريد أنْ تنفجر، فقال:

ـ هناك ثلاث جرائم حدثتْ، سأكتبُ فيها محضرًا حالاً، وستنالون عقابكم عليها بإذن الله.

وهو ينظر لي بحقد، وكأنني كنتُ قد قتلتُ أباه منذ أسبوع فقط.

بهتَ سامر، وكأنه نائم فلم ينبس ببنت شفة، أما أنا فبقيتُ جامدًا في مكاني أهذي مع نفسي كالمجنون، وأقول:

ـ إنه جنون الحزن في عُرفنا نحنُ الشرقيين يا سيدي، كيفَ أستطيع أنْ أشرح لكم؟ وحتى لو فعلتُ فسوفَ لنْ تفهموا علينا شيئًا، وكأنني سأرطن معكم بلغةٍ لا تجيدونها، فالشرقي منا عندما يحب؛ يقتل نفسه حبًا، وعندما يكره؛ يكره بكل ما يحمل من حقد دفين،

وما جمعه لسنواتٍ طوال، فيظهره على دفعةٍ واحدة إلى ضحيته، أما ما نؤمن ونعتقد به سواء بدينٍ، أو فكرٍ، أو عقيدة معينة ترانا سرعان ما نتعصب لها دونَ رؤيةٍ واضحة، أو مبدأٍ عام، وحتى الموت عندنا مختلف، ولم يبرئ من هذا السيل الجارف من الغرابة والتناقض، وكما ترى يا سيدي أُمي لا تريد إلا أن تعبِّر عن حزنها في أُختها!.. إننا نأخذ أمور الحياة هكذا على عليتها دونَ تفسيرٍ أو تحليلٍ، ألم تسمع يا سيدي بأَنَّ معدل عمر الإنسان الشرقي يضربُ فيه المثل لقصره؟! أستغفر الله، ماذا أقول لكم؟ نحنُ نعيش كزهرةِ الكتان تمامًا، ففي اللَّيل تستيقظ، وعند النهار تنهار وتنام، وأما الإنتاج فهو آخر ما نفكر به، وأما التغيير والتجديد، فهي قد محتْ من قاموسنا منذُ زمنٍ بعيد وانقرضتْ.

رفعتُ رأسي إلى سامر بعطفٍ، وقلتُ له بصوتٍ رائقٍ هذه المرة:
ـ أرجوك اجلب لي ورقتين وقلمًا سريعًا!.

دخلَ شقتهم مذهولاً من طلبي الغريب، وأتى بما طلبتُ، فوضعتُ الورقتين أمامي، وافترشتُ الأرض، وكأنني أنوي الصلاة؛ لأكون وجهًا لوجه مع الضابط، وهو يدوِّن محضره الرسمي:
ـ هناك ثلاث جرائم أولاً...

بينما أهمُّ أنا بكتابة هذا المنظر قصة، قبلَ أن يبتعد فينا الزمن فتختفي الأفكار كالدخان، فأكتب:
ـ تصدر من أمي صرخةً مدوية، كالتي تطلقها المرأة في حالة الولادة.

سياج الدار

لا يمر يومٌ من عمر المحلة إلا ونسمع صوت شجارٍ قد قام، أو ألسنًا وهي تتصارع بالشتائم والسباب، أو بأحجارٍ ترمى وتسقط، يعقبها تحطم لزجاج النوافذ، أو بسقوط طيور بريئة، وهي مثخنة بالجراح دونَ سببٍ وجيه في أغلب الأحيان... لكنَّ هذه المرة هي عكس سابقاتها تمامًا.

فيما كانتْ عائلة "أبي قاسم النجار" تغطُّ في نومٍ عميق عندَ ظهرِ ذلكَ اليوم من الصيف الساخن، حتى دوى صوتٌ عالٍ كالانفجار!، جعلَ جميع سكان المحلة يسمعونه، فهبَّ الجيران يركضون دونَ وعيٍ تجاه موقع الحدث... اختلطتْ الأصوات مع بعضها البعض، كما علتْ موجة من الضحك، وهمسات الشامتين والمنافقين، والبعض منهم ركبه الهلع، في حين استيقظَ أهلُ الدار فزعين ودونَ وعيٍ كالمجانين، وهم يحاولون الهرب بشكلٍ عشوائي، وكأن نار مسعورة قد اشتعلتْ في ثيابهم، حتى تبيَّن الأمر وانكشفَ الحجاب، لقدَ قادَ أحد ضيوف عائلة "أبي علي الحداد"، ويدعى "صاحب" سيارة "أبي علي" نوع (بيك أب) وهو لا يستطيع قيادة حمار هرِّم! فما أنْ أدار مفتاح تشغيل المحرك، حتى قفزتْ السيارة كالكنغر لتصطدم بسياج دار أبي قاسم، وتحطم واجهته المتهالكة أصلاً!.

انقطعَ النور عليهم فورًا، وارتفعتْ المياه عاليًا كالنافورة من تحت الأرض، فانتفضَ أبو قاسم واقفًا والغضب يركبه، فهتفَ صارخًا:
ـ ما الذي حدث؟!
ثم استطردَ مستنكرًا، وهو يقف قُبالة "صاحب" الذي بدا شاحبًا وخائفًا:
ـ ما هذا الذي سببته؟!
وأضاف:
ـ لعنكَ الله ليوم الدين!
وهو يدمدم متقهقرًا:
ـ لقد هدمتَ دارنا الآمنة، ونحن نيام، ثم هذا لا يرضي حتى الشيطان.
وهو يهذي صارخًا متذمرًا:
ـ تبًا لكَ من وغد.

انتشر الجيران، والخبر في المحلة سريعًا كالنار في نشارة الخشب، وهبَّ جارهم أبو علي مع عائلته المكونة من أربعة عشر فردًا متأهبين للقتال دونَ رادعٍ أو خوف... ثم علا صوت ساجدة ابنتهم، وهي تخطب في الجمهور بصوتٍ رجالي خشن:
ـ انظر يا أبا قاسم (وهي تلوح بيدها اليمنى كالسيف) لقد صبرنا عليكم كثيرًا!.
ثم استكملتْ بكل جسارة دونَ اعتبارٍ لأحد قائلةً:

ـ أنتم ملة صغيرة، ولا تتخذون الإسلام دينًا لكم!، ومع ذلك ترفعون أصواتكم وكأنكم أسياد هذه المحلة!.

ثم دفعتْ بنفسها وسط الجموع المتجمهرة، والتي تجمعتْ للفرجة! وهي ترفس الباب الذي لا يقوى على الوقوف، فتهاوى ساقطًا كالسكران على الأرض، مما جعلَ أبا قاسم يفقد صوابه.. جحظتْ عيناه من هول الموقف، فصاحَ بأعلى صوته:

ـ الويل لكم أيُّها الأوغاد.

وجابههم وهو يقف كالأفعى المتوثبة للافتراس، وصاحَ بهم حانقًا:

ـ لنْ يفيد معكم الطيبة، وحسن الجوار، وها أنتم مازلتم ترددون الدين، وتحشرون الأنبياء بيننا.

ثم حاول أنْ يرد الجموع المندفعة كالجراد عن داره.

عندها خرجَ قاسم بلباس النوم محتجًا، وصاحَ بالمتفرجين بغضبٍ جنوني:

ـ أرجوكم اذهبوا إلى دياركم، أو لأعمالكم؛ إنْ كانتْ لكم أعمال!.. هيا.. اذهبوا، فليس هناك ما يستحق النظر.

ثمَ أشارَ إلى أبيه قائلاً:

ـ ادخل يا أبي إلى الدار، وأنا سأتكلَّم مع "أبي علي" بشكلٍ ودي.

لم تمضِ إلا دقائق قليلة حتى أتى قاسم بالحمار، الذي يسحب عربة فيها الرمل والأسمنت، وهو يحاول إصلاح ما أفسده صاحب.. وإذا به يرى "أبا علي" وهو يتجه نحوه راكضًا بشجاعة تثير الدهشة والتساؤل مبتسمًا، ويدمدمُ بانشراح:

ـ لا والله، أبدًا لنْ أقبل!.. لقد أقسمتُ بالحسين.

وهو يقهقه حتى سعل، فتعجبَ قاسم من أمر جاره غاية العجب، وهو يسمعه يقول:

- لا يُرَّمم داركم إلا بمالي، وقد أقسمتُ على ذلك برأس سيد الشهداء!.



ليلة، ليستْ ككل اللَّيالي، فالزفة اختلفتْ عن سابقاتها، رغم أنَّ بطلها "خِماس السكير" لم يطرأ عليه أي تغيُّر، لقد كان اسمًا على مسمى! له وجه الهر الجائع، وفي خده الأيمن آثار خدوش وجراح قديمة لم تندمل بعد، ولم يستطع الزمن بجبروته محوها دونَ بصمةٍ، فتبدو كالمشط القصير المتهدِّم الأسنان، لتبقى علامة فارقة تميِّزه عن باقي البشر... لقد كان طويل القامة، وله أكتاف سباح، حليق الوجه، وحين يصمت ترتجف شفته السفلى دونَ إرادة، وعندما لا يجد سببًا للضحك تراه يضحك؛ لأنه لا يستطيع إلا أنْ يضحك، وكأنه خُلِّقَ للضحك والمجون فقط... سكير من الطراز الأول، وكأنه يعيش في عصر هارون الرشيد!، إذ لا نراه يصحو حتى يسكر مجددًا، كإسفنجة مبللة ما أنْ تعصرها حتى تقطر ما تعلَّق فيها... سيء السمعة والصورة، عاطل عن العمل، ولا يجيد سوى حرفة السُّكر.. قبيح النظرات، بذيء الكلمات إنْ نطق، ميَّال للمجون، والعربدة في طبعه، وكأنه بذلك يودُّ القول: بأنَّ الإنسان لم يبتدع في حياته، ما هو أجدر وأصدَّق من التفاهة والتهريج!.

له ثلاث أخوات غير متزوجاتٍ، جميلات، وأنوثتهنَّ جذابة، وصدورهنَّ ثرية، تفوح منهنَّ رائحة عنفوان ثورة الشباب، وفورة

دمائهم، يأسرنَّ القلوب؛ كالأميرات رغم فقرهنَّ، ولهنَّ حظٌّ أسود من اللَّيل بسبب تصرُّفات أخيهنَّ خِماس، لا يتعدى عملهنَّ غير الاعتناء بأخيهنَّ السكير دونَ هدى أو أملٍ.

زارَ القمر السماء في تلكَ اللَّيلة وقتًا قصيرًا، ثمَ اختفى وكأنه لا يحب أنْ يشهد الزفة التي توقَّع حدوثها!.. ولم تشع النجوم، التي ازدهرتْ بها السماء إلا ضوءًا خافتًا ليس من عاداتها، فطلي الحي الذي يقطنه خِماس بلون أسودَ كئيب داكن غريب.

نعم، لقد كانتْ صولات وجولات خِماس اللَّيلة، تضرَّبُ فيها الأمثال، وكلها من النوع النادر الفريد، لكنْ تبقى ذكرى تلكَ اللَّيلة لها طعم ونكهة خاصة، جعلتْ من جمهور المتفرجين يضحكون بملءِ عيونهم، وهم في حالة من الذهول، والإعجاب، والسخط، واللوم مع كثير من الشتائم، واللعنات، والسب لشخص خِماس القاهر المقامر، الذي لا يريد أنْ يتوب، ولا أنْ يجعلهم في منأى عن مغامراته اللَّيلية المستمرة.

تنشطتْ الشياطين، التي كانتْ نائمة في أعماق خِماس، وتحفزتْ مجددًا للخبث، فهمسَ في أُذن صديقه وزميل حرفته في السُّكر واللهو "قدوري الأعرج" الذي عُرِفَ بعرجه، فلُقِّب بالأعرج، له سحنة داكنة مستمدة من القذارة، يتمتع بقوة جسمانية خارقة، عاطل عن العمل بسبب إعاقته، وعندما يسير متمايلاً تهتز الأرض من تحته، له صوتٌ جهوري يعادل عشرة أصواتٍ لرجالٍ، عندما يصرخون في آنٍ واحد، يا لها من حنجرة، لم تعرف يومًا الخجل أو الهمس! لقد كان قدوري جبارًا وماردًا في طبعه، ومن صغره يحب

العراك ويصفِّق له، ويدخل في مشاجرات بسببٍ أو بدون، وكل ما يهتم به هو إبراز قدرته العجيبة الخارقة تلك؛ كي يخافه ويهابه الجميع ـ ويا له من مرضٍ مخيفٍ ومجلجل ـ.. أما عن لسانه فهو لا يستقيم له النطق مذ كان طفلاً حيث قيل: بأنه شرب كمية كبيرة من النفط الأبيض تباهيًا أمام أصحابه، فأفقده النفط استقامة اللفظ، وبذلك تراه يلفظ الحروف بشكلٍ ملفت للنظر والضحك، فيقول الثاء وكأنها الفاء، ويجعل الراء غينًا، والظاء زاي، وعلى هذا النحو اللَّطيف المسلي!.

وهما ما زالا جالسين في التاكسي، الذي نقلهما إلى محلتهما في تلكَ اللَّيلة اللَّيلاء، بعدَ رحلةِ طيشٍ ومجون جديدة، لم تدم أو تعمر طويلاً، تلقى قدوري الهمس بنفسٍ راضية، بعدما كان الحنق يأكله ويسيطر عليه، فهتفَ فجأة كالصغار: هيه.
ثمَ صفق من الضحك، وقال مقتضبًا:
ـ فبها.
واستطرد:
ـ سوفَ لنْ نخسرَ شيئًا! وأنا منذُ زمنٍ بعيد أتوق لفعلِ ذلك.
ثم واصل بنفس مقدار الاهتمام والحماس والاندفاع، وهو ما زال غارقًا في الضحك المجلجل، وبلفظه للكلمات بطريقته تلك العجيبة، وقال بجدٍ مازجه المرح:
ـ سأبرهن لجمهوري، بأنَّ مواهبي لنْ تقف عندَ حدود القوة فقط.
(قالَ ذلك وهما يتناطحان برؤوسهما كالكباش، ويقهقهان كالسحرة وبفجورٍ ساقطٍ متدني رخيص).

طلبَ خِماس بعصبية، وبلسانٍ ملتوي من سائق التاكسي أنْ يتوقف، وقال:
ـ أراكَ تلبس نقاب المكر! لقد قلنا لكَ أنْ تتوقف منذ أكثر من ساعة.
ثم أردفَ بلا خجلٍ:
ـ وقح ومتكبر.
وهو يصرخ به:
ـ لماذا لم تتوقف؟ ها...

هَمَّ السائق بالكلام، فمنعه خِماس مقاطعًا:
ـ لا تبرر ولا تعتذر، أنزلنا هنا، ومع ألف ألف سلامة.
ثم أردفَ ساخرًا:
ـ اذهب مصحوبًا، ومشفوعًا باللعنات ليومِ الدين!.

توقفَ السائق، وهو ينظر لهما بنظراتٍ خلتْ من أي عاطفة، باردة، يداري بها قلقه وخوفه، ثم قال:
ـ وماذا عن الأجرة؟

سألَ قدوري خِماس بصوتٍ فاضح، جعلَ السائق يرتعش دونَ إرادة:
ـ أنا لم أسمع جيدًا.. ماذا قال؟

أجابه خِماس بنبرةٍ مداعبة، وهو يحاول أنْ يتقيأ؛ كمجرى طافَ فيها الكيل:
ـ لا تهتم كثيرًا لما يقول ويطلب، فهو ما زال لم يرتقِ سلَّم البشر بعد!.

ثم تابع باستخفاف:
ـ انظر له إنه يبدو كالمدمن، وجلالة منظره كفجوره، ولا يغرنكَ ما ترى، بل انظر إلى ما هو خفي.

السائق، وهو يغمغم بنبرةٍ كأنه يبكي:
ـ ماذا عن أُجرتي؟

ثم شرعَ، يقول بتوسل:
ـ أنا لا أقود التاكسي كي أتمتع، بل لأجل أنْ أعيش، فأنا لي أسرة علي إطعامها، أرجوكما كفًّا عن المزاح معي.

وواصل كلامه بنبرةٍ جدية حميمة:
ـ أعطياني أجرتي، واجعلاني اذهب بسلام.

خِماس يتبادل النظرات مع قدوري باستياءٍ، بعدَ أنْ ترجلا من التاكسي (فبانا كالأشباح تحت أضواءِ النجوم الخافتة الخجلة) وبالكاد تستطيع أقدامهما الثبات على الأرض، وقال:
ـ أن ن ن.
ثم أردفَ:
ـ لقد نسيتُ.. ماذا أريد أنْ أقول؟!

فمسك بقميص قدوري بتراخٍ، وهو يتلوى كالمذبوح:
ـ قلْ لي: أنتَ أرجوكَ يا صديقي وعزيزي.. ماذا أردتُ أنْ أقول؟ ها..

يشير له قدوري بيده دونَ أنْ ينبس، علامة الاستغراب، وجواب بعدم الفهم!.

عندها صرخَ خِماس من مكانه، وهو يهتف:

ـ نعم، لقد تذكرتُ ماذا أريد أنْ أقول؟ وسأقول.

ووجَّه خطابه للسائق:

ـ أنتَ لا تستحق منا أي فلس أحمر، وستقول: لماذا؟ سأقول لكَ وأنتَ الممنون: لأنكَ أردتَ أنْ تغدر بنا، وقد فكرتَ فينا السوء، وقلتُ تحدَّث نفسك: إنهما سكارى، ولا يعلمان من أمرهما شيئًا.. أليس كذلك؟

ثم استمر بالكلام، وكأنه تلقى الجواب، واستدركَ قائلاً:

ـ ومن ثمَّ إنكَ لم تتوقف عندما طلبنا منكَ ذلك، وهذا جزاء كل مَنْ لا يستمع إلى زبائنه، ولا يلبي رغباتهم؛ لذلكَ قررنا أنْ لا ندفع لكَ فلسًا واحدًا.

ثم وجَّه سؤاله إلى قدوري، الذي بدا متعبًا هو الآخر، وقال:

ـ أليس ما أقوله عين الحق والحكمة؟

ـ نعم يا حميمي، تبًا لي، أقصد يا حبيبي، هذا هو العقاب، وأنا موافق عليه.

أغمضَ السائق عينيه ليبدو مثالاً للحزن، ثم تمتمَ بكلماتٍ غير مفهومة، وبصوتٍ ضعيف، وهو يزدرد ريقه الجاف بألم، فردَّ عليه خِماس بوقاحة:

ـ اذهب مصحوبًا بالسلامة، ولا تؤخر نفسكَ أكثر مع مَنْ لا يستحقان.

وهو يبصق على الأرض بتقزز، ويقول:

ـ انظر له عزيزي قدوري، فهو يبدو كحمارٍ يشعر بالنعاس بعدَ يومٍ مرهقٍ وطويل من العمل.

ثم قهقه:

ـ ها ها ها

ردَّ عليه قدوري باستهتارٍ عجيب، وبصوتٍ كالرعد:

ـ نعم، إنه يوحي لي بأنه السبب الرئيسي وراء معاناة العالم، وغموض الكون!.

وضحكَ بصوتٍ كريه مخيف: هههههه

قَلَّبَ السائق نظراته فيهما بحقدٍ، وهو يراقبهما بحذرٍ وتوجُّسٍ وقلقٍ، ثم دمدم برنَّة منهزمة، وهو يتلعثم بالكلام كصبيٍ خجول:

ـ بسكرِّهما هكذا كالشياطينَ، يبرهنان لأنفسهما وللآخرين بأنهما يخافان الحياة أكثر من الموت!، وكلما زادا في المجون والسُّكر وتمردا، كلما زادتْ هيبتهما من الحياة، وقلَّ خوفهما من الموت.

ثم تركهما السائق، وغادرَ المكان بسيارته بسرعة، وهو يلعنهما بالسرِّ والعلن دونَ هوادة، ولكنْ بعدَ أنْ أصبحَ بعيدًا عنهما.

عندها بدأتْ الزفة، واجتمعَ الناس حولهما...

هتفَ أحد المتجمهرين بترددٍ واضح:

ـ لقد سمعنا كل شيءٍ ولم نفهم! ما الذي حصل؟

ظهر صوتٌ آخر من بين الأصوات، يسأل مستفسرًا:

ـ ما لنا نراكم اليوم كالأصحاء، لا سُّكر واضح، ولا تخبط في المشي، ولا صراخ كالعادة؟

جالَ صوتٌ ثالث، وهو يقول:

ـ اللهم اجعلهما من الصالحين، وأبعدنا عن فجورِ وشرورِ الماجنين.

قهقه خِماس بصوتٍ أبح، وهو يسعل بقوة كالمصاب بالسلِّ، وقال:

ـ كل ما في الأمر...

ثم سمع صوت قدوري يدوي كالبوق:

ـ لا تقل لهم شيئًا، فهم أفسقُ منا أخلاقًا، وأكثرُ كفرًا وإلحادًا.

واستطردَ بتحدٍ:

ـ انظر لهم، إنهم يصرخون كعواء الريح التي تصكُّ الآذان.

أجابه خِماس، وهو ما زال يقهقه ويسعل:

ـ لا تنسَ صوتكَ، فهو لا يقلُّ دمارًا وخرابًا لكل مَنْ يسمعه.

ثم أردفَ:

ـ إنه جمهورنا الذي تعودنا على رؤيته في كل ليلةٍ، فلا تبخس حقه في التسلية.

ثم تهيأ، وكأنه يريد أنْ يخطب، فقال بتراخٍ مصحوبٍ بروح الفوز:

ـ لقد ذهبنا إلى رحلتنا اليومية المعتادة للسُّكر، ولم نرَ حانةً واحدة تقبل أنْ تفتح أبوابها لنا، والسبب كانوا يدعون أنه أول يومٍ في رمضان.

ثم هتفَ باستنكار:

ـ تبًا لهم!

وواصل بلهجة جدية كاذبة:

ـ استقلينا التاكسي، وقبلَ أنْ نصل، أوحيتْ لي الشياطين، التي كانتْ في سُّباتٍ بداخلي بعدَ أنْ تحفزتْ فجأة للعبث، بفكرة لذيذة ومسلية، وهي أنْ نمثِّل دور السكران، ونحن لا نجيد في حياتنا غير هذا الدور، ووافقني القرار صديقي وعزيز قلبي قدوري البطل؛ كي لا ندفع حقَّ أُجرة التاكسي، ونحن لم تذقْ شفاهنا طعم الخمر.

ثم هتفَ كأنه يؤذِّن:

ـ ويا حسرتاه!.. كما ذهبنا رجعنا فهانتْ علينا أنفسنا، فمثَّلنا دور السكران على صاحب التاكسي الملعون، الذي لم يتوانَ عن شتمنا وسبنا، لكنني أظن بأنَّ طيبته ليس لها مثيل إلا صبره، ومع ذلك فهو ابن كلب!.

ثم جلجلَ صوت قدوري بذات الوزن والمعيار:

ـ يا ويلتاه! ريقنا جاف من دون الخمرِ.

وتابعَ قائلاً:

ـ تبًا لهم من أوغاد!.

وهو يضحك، وجسمه يتموج كموج البحر، ثم علتْ الضحكات.

انتشر الخبر، وهبَّ الغلِّمان والصبية إلى دار خِماس؛ كي يبيحوا بسرِّ الخبر إلى أخوات خِماس، وهم متأكدون بأنهم سيرونهنَّ؛ كالعادة؛ بملابس النوم الرقيقة، التي تظهر مفاتن أجسامهنَّ أكثر مما تخفي، وهم يصرخون بالقول:

ـ هيه هيه هيه (توبة بس هاي اللَّيلة توبة بس هاي النوبة)

ثم يهتفون بمرحٍ كالزغاريد:

- رجعَ خِماس بصحبةِ قدوري، وهم بكاملِ وعيهما دونَ خمرٍ، وبلا سُّكرٍ اللَّيلة، هيههيه.

ثم علتْ أصواتٌ، كانتْ تخرج من نوافذ المنازل المغلَّقة والمفتوحة، وهي تهدر:

- صوت نسائي: أي ليلة هذه؟ سنذكرها حكمة لأولادنا من بعدنا، لقد سكِّروا عندما لم يسكروا.

- صوت رجالي: تبًا لهما على هذا الفسق الشنيع.

ثم استطردَ هاتفًا: باطنهما أجوف وقبيح كمنظرهما، الذي تفوح منه النتانة، لقطاء لا نعرف أبًا لهما ولا أُمًّا، كأولاد الحرام!.

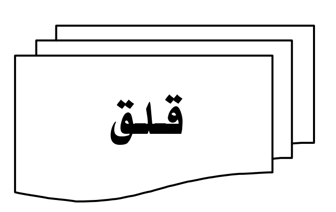
- صوت شاب متدين، يردُّ عليه: وهذا الانحطاط العميق، والانحلال السلبي الواطئ المنحدر نحو السفاهة والمقامرة اللذين لا يتورعان من ارتكاب أي جريمة إذا آمنا من العقاب!.

- صوت شيخ مسن، وهو يسعل بضراوة: وعلى أفكار خِماس الشريرة التي تفوق خبث إبليس بجلالة قدره.

واستدركَ قائلاً: عربيد ساقط، ومتفسخ بشروره، وفجوره لا يريد توطيد الهدوء، أو السلام في المحلة؛ كي لا يشله الملَّل.

ثم أردفَ بحنقٍ: ليأخذهما الشيطان، وهما في جلسة سُّكرٍ ومجون وعربدة كلاهما في ليلةٍ واحدةٍ.

ثم نادتْ الأصوات المخنوقة الخائفة المترددة واليائسة، كأنينِ المرضى: - آمين يا رب العالمين.



لم تنقطع توسلاتهم طوال الفترة المنصرمة، وها هو أخيرًا الجدُّ توفيق ذو القامة الطويلة، عريض المنكبين، برأسه الكبيرة التي يفرشها الشعر المجعد الأبيض اللون فيغطيه، وغالبًا ما كان يرتدي بدلة سوداء دونَ ربطةِ عنق، فقد كان يمقتُ التقييد ولا يتحدد به، له عينان تلمعان كعيون القطة في اللَّيل، تعلوها نظارة طبية سميكة العدسات كعدسة مجهر، وعندما يبتسم تبرقُ أسنانه البيضاء الاصطناعية بخطوطٍ رفيعة شفافة تحتَ شاربه الفضي الكثيف، يقبل دعوة ابنته من زوجته التي عُني بها، وتولى تربيتها ورعايتها منذُ صغرها، وأولادها الشياطين: تحسين وسلام، بعدَ أنْ أعدَّ حقيبة السفر السوداء، والوحيدة التي يملكها لمثل هذه المناسبة، فوضعَ فيها قرطاسه وقلمه وخمسة من الكتب التي يودُّ قراءتها، ثم دسَ فيها بعض الملابس، التي سيحتاج لها بعدَ أنْ رتَّبَ كل تلك الأشياء بدقة تكاد تكون مقصودة؛ كالفقير عندما يعد نقوده!.

نزلَ على رغبتهم، فحلَّ ضيفًا عليهم في مساءٍ، كان المطر فيه يسامر سطوح النوافذ عندَ سقوطه عليها بحنانٍ وهدوءٍ... استقبلوه أحسنَ استقبال، وغمرته السعادة، وهو يرى نفسه بينَ أحضان أسرة ابنته ليلى بعدَ طول غياب، فهو لم يزُرهم منذ أكثر من سنة، إذ أنَّ

صحته قد تدهورتْ في السنوات الأخيرة بعد وفاة زوجته سعاد أُم ليلى، فظل وحيدًا يهتم بنفسه؛ كما يهتم الطفل اليتيم بشؤونه وحسب خبرته، بينما اعتاد في أوقاتِ العصر على الجلوس في المقهى المقابل لمنزله، وحتى ساعة متأخرة من اللَّيل، ثم يعود لينام وهو راضٍ وسعيد، لكنَّ سعاله الحاد المتواصل يعيق النوم؛ ليبقى يعاني القلق والسُّهد، وهو في حالة من الاضطراب النفسي والتعب الجسدي، عندها يسمع أول صياحٍ للديوك، فينهض من سريره شاحب الوجه، شاخص البصر، منتفخ العينين اللتين تماثلان عيون سرطان البحر، لكنه كان دائمًا يحدِّث نفسه بهمسٍ كعادته، وهو يضحك ضحكاتٍ هستيرية، وكأنه لا يعرف غيرها:

ـ ها ها ها لقد هانتْ، فمضى الكثير ولم يبقَ إلا القليل.

عندها يصبِّر نفسه ويواسيها، ثم يحرِّرها من لحظات الخوف ويؤهلها؛ كي تستعد عندما يقابل فيها شبح الموت الصامت، الذي لا يُقهر.

اقتربَ منه تحسين، وقال، وهو يبتسم بجذلٍ، وعيناه مفتوحتان كالمسحور:

ـ جدِّي احكِ لي حكاية، أرجوك.

ثمَ أردفَ بمرح:

ـ أنا لا أشبع من القصص التي ترويها لي أبدًا.

قبَّلهُ جدُّه بحنانٍ، وهو يضمه إلى صدره، وأجابه بعدَ أنْ مدَّ رقبته إلى الأمام كطير الإوز:

ـ ليس الآن، لكني أعدُّك بأني سأحكي لكَ قصة جميلة قبلَ أنْ تنام.

ثم تابع كلامه:

ـ هيا اذهب، والعب مع أخيكَ، ودعني أتحدَّثُ مع أُمكَ قليلاً.

لم تمضِ إلا دقائق معدودة، حتى شَعُرَ الجدُّ بإحساسٍ غريبٍ مفاجئ وهو ينفخ بمنخريه كالحصانِ، فلمعتْ عيناه لتبدو كخرزٍ زجاجي!..

ثم وقف وسط الغرفة كعمودِ النور، وقال:

ـ أريد أنْ أكون وحدي، هلا سمحتِ لي يا ابنتي العزيزة؟

نظرتْ ليلى له بذهولٍ، وهي صامتة كتمثال من حجر، وعيونها تصبُّ دفئًا لمَنْ حولها، بعدَ أنْ أشارتْ له إلى غرفة زوجها، وقالت بصوتٍ ناعم:

ـ هناك يا أبي ستكون بخير، فالهدوء يعمُّ الغرفة، وأصوات الأطفال وجلبة الشارع، لنْ تصلك.

ثم تابعتْ برفقٍ:

ـ اذهب هناك، وأنا سأكون جاهزة لكل ما تحتاجه.

وأردفَتْ:

ـ ما عليكَ إلا أنْ تطلب.

عندها انحنتْ عليه، ورسمتْ قُبلة على جبينه العريض الأسمر، الذي بانتْ عليه التجاعيد بشكلٍ واضح.

جلسَ الجدُّ توفيق على كرسي بلا مساندَ، أمام طاولة شبه مستديرة دونَ أنْ يسند ظهره إلى الخلف.

سادَ المنزل صمتٌ رهيبٌ كصمت القبور، ثم علتْ منه ضحكة متشنجة كصراخ القطة، وانحنى على الطاولة، وبدأ يكتب شيئًا ما.

سمعتْ ابنته دوي الضحكة الغريبة التي انطلقتْ من الغرفة، وكأنها آتية من بعيدا!، فذهلتْ للحظة، وتبادلتْ النظرات مع أولادها باستغرابٍ وحيرة، وقالتْ في سرِّها:

ـ الشيطان نفسه لا يعلم ما الذي يحصل داخل الغرفة!.

لكنها لم تتجرأ وتزعج أبيها، ومنعتْ الأولاد من الدخول إليه.. حتى انطلقتْ موجة جديدة من الضحكات المتقطعة كأزيز الطائرات!، فانتاب ليلى نوع من القلق والحيرة لوضع أبيها، وظلتْ ساهية، غارقة في التفكير، وكأنها تنوي اتخاذ قرار بشأن ما يحصل... تسمرَّتْ باهتة في مكانها، وهي تنظر صوب الغرفة، وكأنَّ الجنَّ يسكنها!، وحاولتْ جاهدةً أنْ لا تقلق الأولاد من جرَّاءِ الموقف المتأزم، فعمدتْ باصطحاب أولادها إلى المطبخ بغية تحضير الطعام حجة... لكنَّ ابنها الصغير تحسين تسلَّل بهدوءٍ كاللص، واسترق السمع بحذرٍ من خلف باب الغرفة، فبُهر من أنَّ هناك مَنْ يتحدَّث مع جده وبصوتٍ واضح، ففزع راكضًا مسرعًا إلى أُمه، وهو يدقُّ الأرض بقدميه الصغيرتين مغتاظًا كديكٍ ينبش الأرض!، وهو يقول:

ـ ماما هناك مَنْ يتحدَّث مع جدِّي في الغرفة!.

سرعان ما انزلق الطبق من يدها، فارتطم على الأرض محدثًا جلبة، ثم مسكتْ يد ابنها معاتبةً، والغيظ يشتعل من عيونها شررًا، وقالتْ له بحزمٍ:

ـ يا ولد ألا تعلم بأنَّ من العيب الاستماع إلى الآخرين هكذا؛ كالسارقين؟!

دمدمَ تحسين بصوتٍ منخفض بعدَ أنْ طأطأ رأسه بخجلٍ، وقال:
ـ أنا آسف يا ماما، لكنني أحب جدي توفيق كثيرًا، وقد قلقتُ عليه حدَّ الخوف.

لذلك فقاطعته أمه قائلةً:

ـ هذا لا يكفي من عذرٍ؛ كي تسترق السمع على الآخرين.
ثم استطردتْ:
ـ اذهب من هنا الآن وخذ أخاك معك، وسأحضِّر حالاً ما تأكلانه.

بقيتْ ليلى باهتة قلقة، والحُزن والألم باتَ قد تسرَّب إلى قلبها فعصره حرقة، تنهدتْ، وقالتْ تكلِّم نفسها:
ـ آه يا أبي، لقد كبرتَ، وها أنت تتكلَّم مع نفسك، وما كنتُ أتوقعه قد حصل!.

طفرتْ من عيونها حباتٌ كبيرة حارقة من الدموع دونَ إرادةٍ، وهي تدمدم؛ كمَنْ يعاتب نفسه، ويعاقبها على خطيئة اقترفها قبلَ وقتٍ قصير:
ـ لم أكن أعلم من حالكَ هذا شيئًا، آه كم أحبكَ يا بابا توفيق.
ثم شرعتْ:
ـ الموقف لا يبهج القلب أبدًا، وأنا أشعر بالتعاسة لما آلتْ إليه صحتكَ.

بدأتْ الأصواتُ التي تصدر من الغرفة تعلو وتنخفض، تتخلَّلها صيحات وقهقهات وحوارات مبهمة، لا يعلم أحد سببًا لها، ولم تعد ليلى تطيق الصبر أو تتحمله، فقررتْ اقتحام الغرفة لمساعدة أبيها؛ كي لا يقع في مصيدة الشر والوسواس.

فتحتْ الباب عليه دونَ أنْ تطرقه؛ لتقف وسط الغرفة، وكأنها هبطتْ من السقف!... تفاجأ الجدُّ مذهولاً من هذا الاقتحام غير المبرر، فوقف بارتباكٍ قُبالتها؛ كمَنْ يرى سيارة مسرعة تتجه نحوه، وتريد دهسه.. فقال صارخًا، وبنبرةٍ حادة لها رنَّة الذهب، وهو ينظر لها وكأنه يراها للمرةِ الأولى:

- ما هناك يا ابنتي؟! هل الأولاد بخير؟! ولماذا تدخلين علي هكذا كالقدر المستعجل؟!

ابتسمتْ ابتسامة ضيقة ملتوية ساخرة، مضطربة بمرارة بعدَ أنْ اختفتْ شفتاها، وهي تحاول الكلام.. ارتمتْ في أحضانه، وهي في حالة من البؤس الشديد، وقالت:

- إنَّ حبي لكَ يا بابا، جعلني أقلق عليكَ كثيرًا، لذلك أردتُ الاطمئنان بطريقتي الغبية هذه.

ثم خفضتْ رأسها نحو الأرض، وكأنها تبحث عن شيءٍ قد أضاعته للتو، وقالت بتردد:

- اعذر لي تصرُّفي الشائن هذا.

فاحمرتْ وجنتاها، واستطردتْ:

- يعني عذرًا يا أبي، فخوفي عليكَ كان الدافع طبعًا من الدخول هكذا بهمجية، سوفَ لنْ أسامح نفسي أبدًا.

وبدأتْ تبكي بتشنجٍ، كمَنْ يعاني من ألمٍ حاد.

ربتَ أبوها على كتفها برفقٍ وحنان كراهبٍ، وقالَ لها هامسًا؛ كمَنْ يغني بصوتٍ منخفض:

ـ كوني صريحة معي ومباشرة يا عزيزتي، فأنا لم أعدْ صغيرًا منذُ عشرات السنين!.

ثم وجَّه لها سؤالاً محددًا:

ـ لماذا دخلتِ علي هكذا وبشكلٍ مفاجئ؟

وهو ينظر لها بعيونٍ ثابتة دونَ أنْ تطرُّفَ، كعيون النسر.

ـ لقد....

ثم ترددتْ للحظة، وأردفَتْ:

ـ أقصد سمعناك، وأنتَ تكلِّم نفسك، ودارتْ في رأسنا الظنون والأفكار الشريرة، فلم أستطع الانتظار، ونحن نراكَ هكذا، وبهذا الوضع الصعب الذي أرعب نفوسنا، وفي لحظةٍ ما، فكرتُ بالاتصال بالطبيب، ولكني قلتُ: لأتأكد بنفسي أولاً!.

قهقه أبوها بكل عنفوان، وقالَ بمرحٍ كالأطفال وهم يلهون ويلعبون:

ـ يا عزيزتي الغالية، لماذا لا تريدين أنْ تكبري؟! فإني أراكِ ما زلتِ طفلة صغيرة.

ثم اقتربَ منها، وكأنه يودُّ شم رائحتها، وقال:

ـ أنتِ تعرفين بأني كاتبٌ مسرحي، وقد تعودتُ منذُ سنواتٍ طوال أنْ أُدير الحديث بين أبطال مسرحياتي التي أكتبها؛ لأتأكد من سلامة الجُمل، وأنَّ الحوار لا ينقصه شيءٌ!، لذلك أتكلَّم بلسان الممثلين الذين أصنعهم بنفسي.

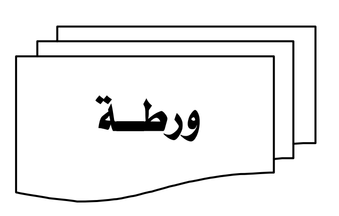
ثم قطبَ حاجبيه، وهو ينظر إلى ابنته، فشاهدها تصيخ السمع وكأنها تريد أنْ تحفظ ما يقوله! وتابعَ قائلاً:

ـ أعزائي خوفكم علي كان غير مبرر إطلاقًا، وها أنا أمامكِ وبكامل قواي العقلية.

رجعتْ ليلى إلى الوراء، وهي تبتسم بعدَ أنْ ضربتْ خدها جرَّاء الصدمة والخيبة التي تلقتها، وقالتْ، وهي تبكي من الفرح:

ـ آه يا أبي لقد قلقنا عليكَ كثيرًا.

ثم نادتْ أولادها، فقصتْ عليهما بتعجلٍ ـ كمَنْ يركض وراءها شخص ويحاول اللحاق بها ـ ما حدث، فضحكَ الجميع ببراءة؛ ليسود جو العائلة المرح، والحب، والرضا مجددًا، ولا تسمع سوى أصوات القهقهات العالية: ها ها ها.



انتصفَ النهار واشتدَّ الحر، حَرقتْ الرياح الملتهبة الوجوه، كما تحرق نار جهنم الأجسادَ يوم الحساب؛ لذا كان الظهور في الطرقات في مثل هذا الوقت؛ أمرًا عسيرًا.. دخلَ سامي ابن العشرة أعوام منزله عائدًا من المدرسة، وعصافير معدته تزقزق من الجوع، كان نحيف الجسم، صاحب عيون صغيرة جدًا، وكأنَّ لا مكان لها في وجهه، متفوقًا دراسيًا بشكلٍ ملفت للنظر وموضعًا للحسد من قِبل زملائه في المدرسة، عاشَ متأملاً مفكرًا، وهو في هذا العمر؛ لذا تراه نادرًا ما يتكلَّم؛ إلا إذا طُلِبَ منه أو سُئل، فيجيب مقتضبًا مختصرًا، وكأنه يوزن كلماته قبل النطق بها.

ما أنْ رمى حقيبته المدرسية في إحدى الزوايا، حتى تقدَّمتْ زوجة أبيه منه بحزمٍ مادةً يدها له، وهي تعطيه حقَّ تذاكر الحافلة باتجاهٍ واحد، وهي تلمظ شفتيها، وتقول له بصرامة ، وكأنها تؤنبه:

ـ اذهب إلى العمل حالاً، وها هي حقُّ التذاكر، وقلْ لصاحب المتجر الذي ستعمل عنده منذُ اليوم، بأنكَ جائع.

وواصلتْ:

ـ هو سيتكفل بأمركَ، وسيعطيكَ عند المساء أجرتكَ وحقَّ العودة.

ينظر لها سامي بخوفٍ، يتطلع لها وكأنها أفعى، لا ينوي الاقتراب منها، والجوع ينهش معدته، وهو صامتٌ كالصنم، لا ينطق.

ـ هيا يا سامي، ما لي أراكَ باهتًا كالأبله، ألم تسمع ما قلته؟ فهو الآن بانتظاركَ، وهذا ما اتفقنا عليه اليوم صباحًا.

ثم علا صوتها، وهي تلوح بيدها عاليًا ـ كالسيف ـ محذرةً إياه:

ـ يا ولد، اذهب فورًا ولا تتأخر أكثر.

ثم استطردتْ:

ـ أعوذ بالله، ما هذا؟ أي نوع من الأطفال أنتم؟

وبدأتْ تندب حظها العاثر الخائب، الذي جعلها زوجةً لأبيه ـ كعادة النساء العربيات عمومًا، في نقد حياتهنَّ!.

يمد سامي يده الصغيرة، وهو يرتعش هلعًا من منظر زوجة أبيه الغاضبة، يتجه بنظره إلى ناحية المطبخ، بعد أنْ كان قد شمَّ رائحة الطعام الذي يتوق لتناوله الآن، عندها صرَّ على أسنانه وكأنه يمضغ قطعة من اللحم، وأخذَ اللُّعاب في فمه يلهو كما يطاب له في أوقات كهذه!، وهو يتراجع متقهقرًا بتضرُّعٍ، وبخيبةِ أملٍ قاسية، لم يستطع إلا الخضوع لأوامر لا يمكن رفضها، فمضى مسرعًا، حاملاً جوعه معه وإلى قدره المرسوم.

وصل السوق، بممراته الضيقة الملتوية؛ وكأنها الأمعاء؛ الذي يضم في حناياه متجر بنيامين اليهودي، بائع العطور المعروف حينَذاك في بغداد، لكنه تفاجأ، عندما رأى المتجر مغلقًا، مدَّ يده إلى بطنه التي تؤلمه، فالجوع ينهش في معدته كآفة المرض، أسند ظهره إلى

الحائط منتظرًا قلقًا، لا يعرف كيف يتصرَّف بعد أنْ غزا السكون عقله، الذي له صوت الصمت؟ فلم يهتدِ إلى طريقة للخلاص من هذا الموقف المتأزم الذي يصادفه، وهذه اللحظات الطويلة بعمر الدهر بالنسبةِ له، والتي أبتْ أنْ تمضيَ، فاستسلم لقدره بضعفٍ طفولي مُهلِّك.

نظر حوله..، فرأى متجرًا يبيع الخبز، تقدَّم نحوه دونَ شعورٍ؛ كالحالم، وأشار لصاحب المتجر بإعطائه قطعة واحدة من الخبز، الذي تفوح منه رائحة زكية عطرة، فتذكَّر أُمه، وهو يلتهم الخبز سريعًا، فتكسرتْ على خده دمعة ملتهبة كحرارة الخبز الذي بين يديه، ثم فجأة ودونَ ارتباكٍ، صاحَ بصاحبِ المتجر بعنادٍ وصرامة:
ـ هيا أريد أنْ أذهب، إني على عجلةٍ من أمري، وزوجة أبي في انتظاري!.

ثم أردفَ بكل عنفوان المنتصر:
ـ خذ حقك، وأرجع لي باقي النقود.

نظرَ له صاحب المتجر، والعرق يتصبب من على وجهه المنهك المحروق بسبب حرارة الجو والفرن المُتقد، وأجابه باستخفاف:
ماذا تريد؟ باقي نقودكَ!.
فضرب كفًا بكف، وكأنه يصفق، وقال صارخًا:
ـ يا لكَ من وغد، لص وشرير!.
ثم بصق بقوة في وجهه، تفوه، وأضاف:
ـ لم تكتفِ بمحاولة الأكل مجانًا، بل تسرق.

ثم علتْ الأصواتُ التي تجمعتْ فجأة، وكان حريقًا هائلاً قد شبَّ، بدأتْ السواعد القاسية الخشنة، تمرر يدها على سامي من كل صوبٍ وجانب، فهذا مَنْ يشده من أذنه، وأحدهم يمرر أصابعه في موقعٍ لا يفقه سامي لتلكَ الأصابع الجريئة من معنى! وآخر يضربه على قفاه، وثالث يركله بكل وحشية، وكأنَّ الطفل قاتل أبيهم، بينما ظل سامي يتحمل الآلام والصفعات، وهو صامتٌ جامد كالحجر، وكأنه يستقبلها عن طيبِ خاطر!.

وسط الجموع المحاصرةِ كالجراد؛ ظهرَ صوت بنيامين اليهودي، وهو يردد:

ـ انتظروا.. إنه عاملي الجديد، أرجوكم، كفوا عن ضربه ـ ليأخذنكم الشيطان ـ إلا ترون أنه ما زالَ طفلاً، اعتقوه لوجه الله.. أرجوكم.

دفعَ بنيامين حقَّ الخبز، واستمع من سامي القصة كاملة.. أخذه من يده وهو مثخن بالجراح، وكأنه خارج من معركةٍ للتو، أشار له بأنْ يعمل اليوم مجانًا دونَ أجرٍ، نظرًا لتصرُّفه غير الأخلاقي، واكتفى بما دفعه من نقودٍ حقًّا للخبز المنهوب.

حلَّ المساء، وتذكَّر سامي زوجة أبيه، وهي تنتظر؛ كي تستولي على نقوده التي لم يحصل عليها.. ودَّعه بنيامين بكلماتٍ مبهمة، لم يفهم منها سامي شيئًا، فقد كان غارقًا في ورطته التي لم يجد لها منفذًا لحلها.

جلسَ في الشارع يتأمل المارة ـ كعادته ـ وهم يسيرون على عجلةٍ من أمامه كالأشباح؛ كلٌّ في سبيله ونحو هدفه، إلا هو؛ ما زال

ينتظر المعجزة التي تنقذه... ولكنْ هيهات أنْ يكون القدر عادلاً، ولماذا يكون عادلاً؟

رفعَ رأسه الصغيرة إلى السماء، وبكى، ثم نبح كالجرو:
ـ كيفَ سأواجه غضبها تلك اللئيمة القاسية، متحجرة القلب، الفارغة من الشعور؟

فندتْ عنه صرخة مدوية، وهو يمضي مسرعًا في الطرقات يبحث عن حلٍّ لورطته الخانقة الثقيلة كالهمِّ بوزن الحجر وهو جاثمٌ على صدرهِ، يعدو إلى المجهول طالبًا ساعيًا، لعلَّه يهتدي إلى جوابٍ يكون مقنعًا وشافيًا، تصدَّقه زوجة أبيه؛ لتغفر له ما اقترفتْ يداه من إثمٍ لا يغتفر.



بين شدٍّ وجذبٍ، ونقاشات حامية بين أهل "مراد" وعائلة "سوسن" التي يودون خطبتها، اتفقتْ الأسرتان إقامة مراسيم الخطوبة والزواج في يومٍ واحد، على أنْ يكون بعد شهرٍ من تاريخ الجلسة، ثم انطلقتْ الزغاريد الرنانة تشقُّ الآفاق، وانتشر الخبر كالبرق سريعًا بين الجيران.

جلسَ مراد صامتًا مفكرًا مهمومًا، وهو يقلِّب عينيه بالأشياء دونَ وعيٍ، وكأنه يغمز لأحدٍ، على الرغم من السعادة التي حظي بها فور إعلان الموافقة، التي كلفته سهر ليالٍ بطولها إضافةً إلى الأرق والقلق والحزن، الذي كان ينتابه طول مدة الانتظار... لكنَّ خطورة الأمر الذي يفكر فيه يراه أبعد وأعمق من الموافقة التي حصلَ عليها بعدَ طول عذاب، وها هو الآن يجلسُ في استسلامٍ عجيب لم يحسب له حسابه، ثمَ صاحَ بشكلٍ عفوي:

ـ كيفَ يمكن لي التأكد؟.. كيف؟

ثم وقفَ يتوسط الغرفة واجمًا كالمتردد، وهو يدمدم:

ـ يجب أنْ أجد طريقة مناسبة للاختبار، دونَ أنْ أُثير الشك أو الريبة.

فركَ فروة رأسه، وسألَ نفسه متمتمًا:
ـ كيفَ يمكن لي فعل ذلكَ دونَ خسارة أو خطأ؟
ثم استطردَ مقطبًا:
ـ علي توخي الحذر؛ كي لا أجرح إحساسًا، أو أهين كرامةً.

وما أنْ توصلَ إلى هذه النتيجة، حتى انبعثتْ من وجهه إشراقة بهجة وسرور، احتلتْ ذاكرته سريعًا وطغتْ عليها، بعدَ أنْ كان غائصًا في بحرٍ من القلق والحيرة.

لم يتهاون أو يتمهل كثيرًا، رفعَ سماعة الهاتف بإكبارٍ وتكلَّمَ مع صديقه فرحان، وهو ينقل له خبر إعلان خطوبته، وعبَّرَ له عن سعادته وغبطته، ثم سأله عن رغبته بلقائه.. وأبدى صديقه موافقته عن طيب خاطر، وهو يهنئه ويتمنى له حياة جميلة مفعمة بالسعادة والطمأنينة.

استباح الغروب الأرض، وفرشَ أجنحته بكل اعتدادٍ وجمال، انبعثتْ في الأجواء رائحة تشبه رائحة الخريف، متقلِّبة، منعشة ورطبة.

جلسا في مقهى شعبي، وهما يتبادلان أطراف الحديث، ويحتسيان الشاي بلذة، فبادرَ مراد بسؤاله:
ـ هل تتذكر يا صديقي متى وكيفَ التقينا؟
ـ كيفَ لي أنْ أنسى؟ قبلَ شهرين وعشرة أيام بالتحديد، وعند عتبة المكتبة الأهلية.
ثم واصلَ بجدٍ، وبلهفة قائلاً:

ـ لكنكَ أقلقتني وشغلتني عليكَ كثيرًا، أرجوكَ أخبرني، ما وراءك؟ ولماذا طلبتني متعجلاً؟ قلْ، ولا تجعلني صريع الهواجس والأفكار، وهي تدور في ذهني كدوامة البحر.

ـ هذا صحيح... (أجابه مراد، وقلبه ظافر بالنصر)

ثم أردفَ، وهو يبادله النظرات المشحونة بالتوجُّس:

ـ أريدُ أنْ أعترفَ لك بشيءٍ قد يسبب لي الهناء أو المأساة.

ـ ما هذه الألغاز الغريبة.

ردَّ عليه مراد كالسهم:

ـ هل تساعدني؟

ـ على ماذا؟

ثم أردفَ مستفسرًا:

ـ أفصح ولا تتردد.

جفَّفَ مراد عرقه، وهو يحاول كبحَ تطرُّف نفسه في الاسترسال بالحديث مرغمًا، لكنه وبعد ترددٍ قال:

ـ في الحقيقة أقصد...

ثم صمتَ برهةً، جعلتْ فرحان يشعر بذعرٍ حقيقي تجاه صديقه الغارق في صراعٍ داخلي ينتابه الآن، وهو يحاول الشروع بالكلام، فسأله مستوضحًا:

ـ تقصد ماذا؟

ـ لا أعرف كيفَ أشرحُ لكَ الموقف؟ (أجابه مراد)

ـ ابدأ من حيثُ تريد.

ـ نعم، سأقول لكَ دونَ لفٍّ أو دوران، وليكن ما يكون.

ـ هل الأمر بهذه الخطورة والتعقيد؟

ـ عزيزي فرحان، أنتَ الشخص الوحيد الذي أثق به، رغم قصر عمر صداقتنا، وأنا...

ثم صمتَ، وكأنه يتفاءل بالصمت.

ـ أنتَ ماذا؟

ـ أنا أقترح عليكَ أنْ تقوم بدورٍ تمثيلي من أجلي.

ثم شرعَ يقول كالمعتذر:

ـ الهدف نبيل، وشروطه لا تسعى إلا للخير والتوفيق.

ثم باغته بالسؤال:

ـ ها ماذا تقول؟

ـ كيفَ تريد أنْ أجيبكَ؟

ثم أردفَ بحنانٍ ظاهري:

ـ بل الأصح، عن ماذا أجيبكَ؟ فإنكَ لم تقلْ شيئًا.

وهو يدمدمُ:

ـ سبحان الله في أمركَ يا صديقي... (قالَ فرحان ذلك، وهو يشعر بالغثيان)

ـ اغفر لي حماقتي وخجلي، سأقولُ لكَ ما أُفكر فيه مباشرةً، وكما يقول المثل: (إذا كنتَ سندانًا فأصبر، وإذا كنتَ مطرقةً فأوجع) ولكنْ أعطني أُذنكَ الصاغية، وقرِّبها من فمي.

وهمسَ فيها ما كان يجول بخاطره دفعةً واحدة، ليشعر بعدها بالانشراح والراحة، وكأن همًّا أثقل من الحجر، قد انزاحَ للتو من على صدره.. بينما ظلَّ فرحان واجمًا صامتًا كالتمثال، وهو يردد بشفاهٍ شبه مطبقة:

ـ المثل (إذا تفرقتْ الغنم، قادتها العنزة الجرباء).

وقد أساءَ الظن بصديقه.

تربصتْ نظرات فرحان بالفتاة سوسن أينما ذهبتْ وطاردتها كظلها، وبطلبٍ خاص من خطيبها، الذي يحبها حدَّ العشق والعبادة، وكأنه تناسى أيام الصبر، والانتظار، وتوسلاته المتكررة، وبكائه الذي ما أنْ ينقطع إلا ويعاود النزول كمطر إنجلترا، وها هو صديقه يجس نبضات خطيبته في الصاعدة والنازلة، وهو ينتظر النتائج بجزعٍ رهيب أقسى من الموت.

لم تكن سوسن تعرف فرحان، ولا صادفَ أنْ التقتْ به، مما سهلَ الرقابة التي يقوم بها بكل إخلاصٍ لأجل صديقه... وفي إحدى الأيام وبعدَ ترصد محكم، تقربَ منها في شارعٍ جانبي يؤدي إلى السوق، وإذا به يستوقفها بلُطفٍ ساحر، ويشير لها مبتسمًا:

ـ عذرًا أردتُ فقط أنْ أقول كلمة واحدة لا أكثر، فهل تسمحي لي بذلك؟

انشرحتْ أساريرها فجأة، وكأنها لم تصدِّق، وهي تجيبه بعفوية وغنج:

ـ تفضل.

ـ أنا فرحان، طالب في كلية الهندسة، رأيتكِ قبل فترة قصيرة عن كثب، ولم أستطع أنْ أتجاهل ابتسامتكِ الساحرة، وجاذبية عينيكِ التي تفوق الوصف.

ثم أردفَ بحماسٍ جدي:

ـ لقد انشغلتُ بكِ دونَ إرادةٍ، وهذا ما دفعني إلى أنْ أستوقفكِ الآن.

رنَّتْ منها ضحكة، اهتزَ قلبه من مكانه، وغادرته وهي ترمقه بعينيها، وكأنها تغازله.

عندَ مساءِ نفس اليوم، قابله مراد في المقهى، وطلبَ منه إيضاح ما خرجَ به من نتائج، فسأله بلهفة كادتْ تخنقه:

ـ ها.. بشَّرني؟ أأُقْدم أم أُحجم؟

تلوح من عينيه نظرة رزانة ومسؤولية، هَمَّ بالكلام ولم ينطق، حركَ شفتيه، وكأنه يبتسم، سألَ نفسه، وهو يغمغم: ماذا أقولُ له؟ خطيبتكَ على استعدادٍ أنْ تتعرف على أول شخصٍ صادفها وبسهولة، وماذا لو فسخَ خطوبته باندفاعٍ وجنون؟! أو أنْ أجعله مغمضًا، وستلهو به كما تشاء كالعجينة.

ثم همسَ في سرِّه شاردَ اللُّب: لكنني أحببتها فعلاً، وهذا نصيبي وقدري، وقد بادلتني نفس الشعور، وكأننا نعرف بعضنا منذُ سنين، يا ربي ماذا أفعل وهو صديقي؟!

ـ هل ستجعلني أنتظر كثيرًا؟ أرجوكَ قلْ لي:ما الذي جرى وحصل؟

اشتعلتْ في قلبه أحاسيس الشباب، وعنفوان الحب، والشهوة، فأضمرها كالسرِّ، وأجابَ مراد برقةٍ مصطنعة:

ـ لم يحصل شيء يا صديقي، إنها ملاك يجب أنْ يعبد، وليس فقط أنْ يحب.

ثم أردفَ بكذبٍ:

ـ يا رجل إنها تحبكَ كثيرًا، حتى أنني لم أُصدق بأنَّ هناك فتاة في العالم أجمع تحب خطيبها، كما تحبكَ هي.

ثم هتفَ بانفعالٍ:

ـ هل تصدق؟

ببرودٍ قاتل تلقى مراد كلماته، وكأنها سهامٌ تدخل من صدره وتخرج من ظهره، فقال بجمودٍ هالك:

ـ كذاب!

ـ مَنْ؟.. أنا؟ (وهو يبلع ريقه بصعوبة)

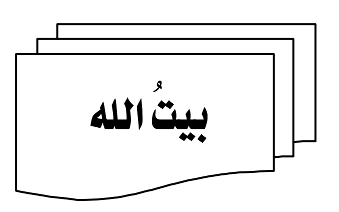
ـ نعم أنتَ كاذب.

ثم استطردَ، يقول بتأثرٍ صارخ، وكأنه يحتضر:

ـ لقد خيَّبتُ أملي فيكَ يا صديقي، كنتُ أُفكر كيفَ تكون نفسي؟ وهذا طموحي وطبعي، حتى أنني حدَّثتُ نفسي قائلاً: سأجعله يدخلُ داري وأنا آمن... لكنكَ خسرتني، وخنتني، وخدعتني من أول اختبارٍ أضعكَ فيه... يا للأسف على شبابنا السطحي البغيض، يتباهى بالكلمات، ويخدع الآخرين بالعواطف المزيفة... تبًا لكَ من منافقٍ حقير.

صمتَ، وهو يخفض بصره، وكأنه لا يحب النظر إليه مجددًا، فقال بعدم اكتراث:

ـ لقد اتفقتُ مع سوسن على أنْ نختبر إخلاصكَ ووفاءكَ!.. وها أنتَ تنجح في إرغامي على تركك، وقلبي يظفر بحبٍّ واحترام خطيبتي عن جدارة.



انتصفَ النهار، وتمادتْ الشمس حتى وصلتْ الذروة، وقمة الجنون في حرارتها، التي كانتْ تصبها كالحمم بكل عنفٍ وجبروت، وكأنها غاضبة، فأصبحتْ الأجواء في تلكَ اللحظات من عمر الزمن لا تُطاق مع وجود العواصف الترابية، التي كانتْ هي الأخرى تعبِّر عن حنقها ومقتها لساكنين الأرض وما يقبع عليها.

جلسَ "يحيى" الذي كان من أبرز صفاته: الصدق، الوفاء والإخلاص، جميل الطلعة، هادئًا وذكيًا، يسحر لُبَّ وخاطر كل مَنْ يراه، وكأنه القمر في تمامه، القرفصاء على حافة سريره مفكِّرًا، حائرًا، قلقًا، متضايقًا، والعرق ينصبُّ من أعلى جسمه حتى أسفل ظهره، يتنفس بصعوبة بالغة من جرَّاء موجة الحر القاتلة، والعواصف الترابية الخانقة، وهو يعاني من مرض الربو الذي باتَ يهدد حياته بشكلٍ صارخ في مثل أجواءٍ كهذه، التي يعيشها الآن.

لاحظه زميله، الذي يقاسمه الغرفة في المعسكر الطلابي، الذي أُجبرَ على الاشتراك في ألويته أثناء العطلة الصيفية، وها هو الآن يعاني الاختناق وسط الصحراء، فتقربَ منه أحمد مرتبكًا قلقًا، وهمسَ في أُذنه سائلاً:

ـ ما لي أراكَ يا يحيى شاحبًا، ووجهكَ أصفر، كأنك انتهيتُ للتو من ارتقاء سلَّم عالي الدرجات.

ثم أردفَ مسامرًا:

ـ يا رجل، صورتكَ وأنتَ هكذا تثير الرهبة والشفقة ممن حولك.

ـ أنتَ تعلم يا صاحبي، بأنني أعاني من ضيقٍ في التنفس، وهذه الأجواء اللعينة تجعل الأمر أكثر تعقيدًا، وصعوبة لشخصٍ مثلي.

ثم استطردَ بهمسٍ خافت، وصوته لا يكاد يُسمع قائلاً:

ـ انظر لي فإنني كالذي يسرق الهواء كي يعيش!.

ـ طيب لماذا لا تذهب إلى الجامع الذي لا يبعد من هنا كثيرًا؟

ثم شرعَ، يقول بثقةٍ وتفاؤل:

ـ هناك ستجد الهواء النقي البارد، والهدوء الذي تبتغيه، ويمكن لكَ أنْ تمكث بعض الوقت لحين ما تهدأ العواصف، وتخف قليلاً حرارة الشمس ها.. ما رأيك؟

نظرَ لهُ يحيى بتوجُّسٍ، ثم أجابه بصدقٍ فرحًا:

ـ إنها فكرة رائعة، وسآخذ معي كتابًا لقراءته، ولقضاء وقت طيب وممتع، وأنا أجلسُ تحت قبة بيت الله وحمايته!.

لم تمضِ إلا دقائق قليلة، حتى احتل يحيى ركنًا هادئًا وباردًا في الجامع الموجود في المعسكر، ثم فتحَ كتابه الذي كان لطاغور، ذلكَ الشاعر الهندي الروحي العظيم، عندها انتظمَ نبضه وباتَ يتنفس بحرية وبصورة طبيعية! ارتاحَ للأجواء النظيفة، والهدوء الذي يطغى على المكان، وقالَ واعدًا: مكانٌ رائع، سأحاول أنْ آتي إليه،

كلما وجدتُ نفسي محاصرًا بين المرض، والضجر، والأجواء التعيسة.
ثم غرقَ في بحر الشاعر، وتأملاته الشعرية الساحرة مسرورًا، هائمًا، سارحًا، وحالمًا.

فجأة هبطَ عليه ظلٌّ جسدٍ عامرٍ بالقوة والضخامة، وكأنه سقطَ عليه من السقف!، إذ كان الهيكل يعود لضابطٍ في المعسكر.. وقفَ قُبالته كالصقر وكرشه الذي يشبه سِنام الجمل يتقدَّم بدنه، وهو يقول آمرًا:
- ماذا تفعل هنا يا عسكري؟

أنصتَ له السمع بقلبٍ راجف، ثم أجابه بإنكار:
- أتحدثني يا سيدي؟!
- ومَنْ غيركَ أقفُ أمامه؟
- لقد وجهتُ كلامكَ إلى عسكري، وأنا طالب.
ثم استطردَ بمكرٍ قائلاً:
- حتى ظننتُ بأنكم يا سيدي تعنونَ شخصًا آخر!.

بينما ظلتْ نظرات الضابط شاخصة نحوه لا يطرفُ له جفن، ففهمَ يحيى الموقف، عندها هتفَ بجدٍ قائلاً:
- أنا هنا أستمتعُ بالوقت، وبالأجواء النظيفة الهادئة التي لم أجدها في مكانٍ آخر من هذا المعسكر.
- جميل أنْ أستمع منكَ هذا الإطراء، والمديح في بيت الله!.. ولكن لم تقلْ لي لماذا لا تقوم للصلاة بدلاً من جلوسكَ هكذا كالشحاذ؟
- أصلِّي؟... (أجابه يحيى باستغرابٍ شديد).

ـ ماذا، ألم تسمعني؟!
ثم أردفَ الضابط مؤكِّدًا بنبرةٍ لا تخلو من تهكُّم:
ـ نعم، تصلي مثلَ هؤلاء، وهو يشير بيده ناحية المصلين.
ثم أردفَ بإغراء:
ـ انظر إلى المؤمنين الذين تراهم هناك، وهم يعبدون الله، ويؤدون واجب الصلاة تجاه خالقهم!.

أجابه يحيى مقتضبًا يائسًا:
ـ أنا...
وهمَّ بالكلام، لكنه تردد في الإفصاح، فصمتَ ولم ينبس ببنت شفه.
ـ ماذا أنتْ؟
ثم استرسل بالاستجواب بازدراء:
ـ أنا ما زلتُ أنتظر ردًّا شافيًا منكَ يا مستهتر بالدين، وفي حرمة هذا البيت الذي لا تقدره حقَّ التقدير.

ثم لفت انتباهه الكتاب الذي يحضنه يحيى، فسألهُ بامتعاضٍ:
ـ ما هذا الذي بين يديك؟
ـ هذا؟ (وهو يرفع الكتاب أمام عينيه، وكأنه ينوي تقبيله)
ثم شرعَ، يقول شارحًا:
ـ إنه كتاب شعر، لشاعرٍ هندي عظيم.

قاطعهُ الضابط بحدّة، وقد جنَّ جنونه، فانقلبَ فجأة من ضابطٍ فضولي ووقح إلى نمرٍ مجروح، يصرخ ويزمجر بعنفٍ، ويقذفُ بالكلمات دونَ حذرٍ أو خجلٍ:
ـ إنكَ شخصٌ تثير الحنق فعلاً!.

ثم سارعَ في القول محتجًا:

ـ تجلسُ هنا في الجامع في بيت الله، لتقرأ شعرًا؟! ما هذا الفسق والكفر الذي أنتَ فيه؟!.

ثم تفجَّر صوته كالقنبلة في المكان، وهو يشتم ويسب كالمهووس:

ـ انهض يا حقير يا زنديق.

ثم شدّهُ بقوةٍ، وهو يدمدم:

ـ هذا جامع وليس مكتبة.

وصرخَ به بكل نذالة:

ـ اخرج من هنا يا سافل.

ردَّ عليه يحيى بكل أدبٍ ووقار، وهو يدفع يده الخشنة عنه:

ـ نعم أنا أعلم جيدًا بأنني هنا في جامع إسلامي، وكما هو واضحٌ من اسمه جامع لكل شيءٍ على شرط أنْ لا يُغضب الرب أو خلقه.

ثم شرعَ، يقول بكل اعتدادٍ وثقة:

ـ سيدي الكريم، الجامع هو بيت الله، بيت للصلاة والعبادة، بيت للتأمل والتفكير، بيت للسلام والراحة والطمأنينة، وأنا هنا لم أخالف هذه الأعراف، ولا تقاليدها.

ثم أردفَ بنبرةٍ حازمة:

ـ كما ترى يا سيدي الضابط، فأنا أقرأ، وأتأمل الروح، وهي تحلِّق في رحاب عالية كالملاك يرفرف فوقَ رؤوس المؤمنين، فما الضير في ذلك؟!

طافَ كيل صبر الضابط، فدقَّ الأرض بقدمه بقوةٍ، وبصقَ في وجه يحيى بكل حقارة وجرأة، وقالَ شاتمًا ومهددًا:

ـ أخرج من هنا يا كافر.

ثم صرخَ باستهتارٍ:

ـ إنَّ وجودكَ هنا يلوِّث بيت الله، وكلماتكَ الرعناء تسمِّم أفكار المؤمنين الصالحين.

ثم عوى، وهو يتوعد بالويل قائلاً:

ـ لا أريد أنْ أراكَ هنا ثانيةًً... (قالَ ذلك، والزبد يخرج من فمه أكوامًا، ووجهه باتَ أحمرَ كوجه سرطان البحر).

نهضَ يحيى متأسفًا على قراره في الحضور، والجلوس في بيت الله، وهمسَ في سرِّه بانقباضٍ، يعاتب زميله أحمد على نصيحته تلك، التي لم يفكر فيها كثيرًا قبلَ دخوله الجامع، وهو على غير دين الإسلام.

رجعَ يحيى إلى غرفتهِ، وسريره المتهالك الذي لا ينقطع عن إصدار صريرٍ؛ كنقيق الضفادع؛ من نوابضه الحديدية التي يكسوها الصدأ، كلما جلسَ عليه أو تحرك! بانكسارٍ، وهو يجرُّ أذيال المهانة، والخيبة وراءه ثقيلة، وقاسية كحرارة شمس ذلكَ النهار، وقوة عواصفه الترابية الغاضبة.



قَبَّلَ عدنان ابنه حديث الولادة، ليودِّع الأخير حياة الصخب والموسيقى العجيبة، التي تخرق الآذان، والتي تسمع طوال النهار من الساكنين الأفارقة الجدد الذينَ حلوا ضيوفًا قبلَ أيامٍ على المجمع السكني للاجئين، ذلك الذي يسكنه عدنان وزوجته منذ عامين في ألمانيا، غَداةَ هروبهم من العراق بعدَ أنْ ضاقتْ بهم السُّبل.

تسلَّل النعاس إلى عيون أسامة الصغير خفية كالسحر، فاستسلم جسده النحيف، وأرخى سدوله، فنام في سريره على عجلٍ، وكأنه لم يذقْ طعم النوم منذ أيامٍ.

انحنتْ أُمه بلقيس عليه فقبلته، قُبلة دافئة تطفح بالحنانِ، وكأنه سيرحل عنها،.. ضمته إلى صدرها بقوةٍ بعدَ أنْ رفعته من سريره، فكادَ يستيقظ.

صاحَ بها زوجها برقةٍ لا تخلو من صرامة:

ـ أرجوكِ دعيه في سريره.

فأرجعته... واستطردَ قائلاً:

ـ ألا ترين أنه متعب من أثر النهار الصاخب، وكأننا نقيم في سوق!.

ثم دعا ربه، وقال بانكسارٍ:

- يا صاحب الأرض والسماء متى ننال رضاكَ ورحمتكَ؟!

صمتَ برهةً، وتنفس بعمقٍ، ثم تابع دعاءه بعدَ أنْ سالتْ دمعة ثقيلة على خده:

- يا ربي... كما ترى؛ فغرفتنا التي نقطنها من خشبٍ، جدرانها باردة كالثلج، وصغيرة كزنزانة سجن، يتوسطها موقد من الغاز له لهب لا يعجز عن الرقص أبدًا!، ولا تتسع إلا لسريرين أحدهما لأسامة ينام فيه كالملاك، وآخر يضمنا أنا وزوجتي، ولا نستطيع عليه أنْ نتقلَّب، أو نتحرك؛ لضيق مساحته، وخزانة للملابس صغيرة كالصندوق، وطاولة بعرض كتابين لو صُفَّا إلى بعض.

ثم هتفَ قائلاً:

- يا أرض احفظي ما عليكِ، ويا دافع البلاء قلِّل من شقائنا.

زحفَ الظلام، وجلبَ معه الصمت والرهبة والخشوع، تخدرتْ الأبدان شيئًا فشيئًا، وذابتْ الأصوات رويدًا، وسكنتْ كالملح في الماء، وأطبقَ الهدوء على المجمع السكني تمامًا.

وقع أقدام على البلاط الخشبي، تأوهات خافتة مضطربة، وهمس مبهم كصدى لصوتٍ قادم من بعيد يقبع وراء الباب، لا تُسمع خطاه إلا بالكاد، يدنو ويذهب، ثم تطرق باب الغرفة عليهم برنَّة تشبه سير الريح الهادئ، لا يمكن تمييزها أو التنبؤ بسرِّها.

فيما كان عدنان غارقًا في نومه بعمقٍ لا يعرف الحدود كالموت، وعتْ بلقيس على حركاتٍ، وهمساتٍ، وصوت الطارق بوجلٍ، جعلها ترتجف من الخوف، وأطرافها لا تسعفها على الترجُّل من السرير أو الوثوب، سهتْ وهي تنادي بصوتٍ مخنوق:

- مَنْ مَنْ هناك؟

تحركتْ قبضة الباب بهدوءٍ، ثم فُتحتْ بسهولة، وبيدٍ خفية بلون الضباب، ودخلتْ سناء أخت بلقيس، التي تسكن في بغداد بثوبٍ ممزق، وملطخ ببقع الدم، يعلو وجهها جراح حديثة الولادة! مطوقة الرأس بشالٍ معفر بالتراب تسير بخطى ثقيلة، وئيدة وهي تردد:

- لقد افتضَّ الوحوش بكارتي يا أختاه! ثم قتلوني، وأنا مازلتُ في مقتبل العمر كالزهرة!.

ثم شرعتْ تتنهد، وهي تقول بتعثرٍ:

- جئتُ لأُلقي نظرةً عليكم قبلَ أنْ تفيض روحي، وأرحل إلى عالمي الجديد.

فدنتْ من أسامة وقبلته، وهو يغطُّ في نومٍ عجيب بسريره، ومن ثمَّ غادرتْ الغرفة بسكينة وهدوء كالشبح دونَ جلبة، وسط متابعة عيون بلقيس التي لاحقتها، وهي تختفي وراء الباب كما أتتْ!.

كانتْ زيارة سناء قصيرة جدًا، لكنها جثمتْ على بدن أختها أثقل من المرض وأقسى من الخوف، اتسعتْ عيناها دهشةً، وكأنها تحتضر! سادَ وجهها الشحوب كوجه ميت!.. ثم انتبهتْ على نفسها، وإذا هي غارقة في دموعها، وحبيسة خرسها الذي استولى على لسانها فجأة! ثم حاولتْ الصراخ، فلم يخرج صوتها إلا متهدجًا، منكسرًا، فصاحتْ بانقباضٍ:

- لماذا هذا الصمت القاتل؟ يا ربَّ!.

ثم استطردتْ بإنكارٍ:

ـ لقد حدث كل هذا تحت سمعكَ وبصركَ!، ولم تفعل شيئًا؛ لتنقذ أختي من تلك الأيادي البربرية القاسية، التي لا تستطيع أنْ تعيش إلا أنْ تشرب الدم ماءً، وتأكل وتنهش لحوم البشر زادًا! وأنتَ أنتَ لا تحرك ساكنًا، وكان الأمر ملهاةٌ لكم!.

ثم أردفَتْ بتحدٍ وغيظ، وكأنها تفضح سرًّا، وهي تقول:

ـ إنكَ لستَ موجودًا البتة! ولو كنتَ هنا لمنعتَ وقوع الجريمة، أو حتى حميتَ أختي الطاهرة البريئة!.

ثم تقهقرتْ وأغمضتْ عينيها كمَنْ يغوص في الذاكرة، واستطردتْ بقلبٍ منقبض:

ـ وما دامَ الأمر هكذا، سوفَ لنْ تبكينا عينٌ بعد اليوم، وها أنا أقول لكَ ذلك بملءِ فمي، لنْ أعترف بوجودكَ منذ اللحظة، ولنْ أطلب منكَ شيئًا أو عونًا.

ثم شرعتْ، تقول بتهكُّمٍ:

ـ يا رب السموات والأرض، هه هه.. (وهي تضحك بقسوة من شدة الألم)

فجأة انفتحَ سقف الغرفة، لتبدو السماء بأجمل حُلَّة، ثم انتشر ضوءٌ حاد في الغرفة يعمي البصر؛ كقرص الشمس؛ يردد بنبرةٍ تشبه صوت الناي حزين وخافت، وهو يقول بكل حزمٍ ووقار واعتداد:

ـ لا تكوني يا بلقيس تَيْهانة كقوم موسى!.

ثم أردفَ باطمئنانٍ عجيب يفوق تصوُّر العقل أو إدراكه:

ـ أنتِ يا بلقيس إنسانة رائعة نقية، ورقيقة كالرحمة، جئتُ بنفسي أزوركِ، وألقي نظرةً عليكِ، وأُسمعكِ كلماتي التي ستخرق أُذنيكِ

دونَ إرادة، أو حقِّ الاختيار!.. فهي عظمتي، التي لا ترى وتقدر، ولا تقهر، ولا تزول.

ثم قالَ بصرامةٍ دونَ محاباة:

ـ أنا لم أزر أحدًا من قبل إلا الأنبياء، كي تعرفي معزتكِ عندي! لقد كفرتِ جهرًا، وشككتِ بوجودي دونَ وجه حق، وسأثبتُ لكِ حالاً أني رب الكون وخالقه، فقال بكل ثقةٍ واتزان والنور يملأ المكان: قبلَ لحظات نامَ ابنكِ في سريره، كما تعلمين وبشهادة أبيه، أليس كذلك؟!

ثم أمرها بلهجةٍ حازمة:

ـ انهضي يا بلقيس.

ثم كرَّر نداءه:

ـ انهضي، واجلسي في سريركِ الآن، وستجدين ابنكِ بين أحضانك، وهو يلثم حلمة صدركِ؛ لأنني جعلته جائعًا من بعد شبع!.. استيقظي يا بلقيس، وستعرفين أنْ ما يقوله الله ليس إلا الحق اليقين

استمعتْ بلقيس له، وهي ترتعش من الخوف والرهبة، ترى وتسمع ولا تصدق! ثم استيقظتْ من نومها والفزع يركبها، وهي تصرخ بصوتٍ مخنوق:

ـ عدنان عدنان انهض أرجوكَ، استيقظ لقد...

فلم تخرج كلماتها إلا بصعوبة:

ـ لقد كلَّمني الله.

ثم استطردتْ بانفعالٍ واستسلامٍ عجيب:

ـ لقد رأيتُ نور الله وهو يحدِّثني!.

ثم سقطتْ نظراتها المصلوبة على ابنها الجاثم على صدرها، وهو يلثم صدرها العاري بهدوءٍ، وسكينة، وبنهمٍ غريب، وكأنه لم يذقْ الحليب منذُ زمنٍ طويل! صرختْ بذهولٍ، وهي تقذف بابنها نحو أبيه، وهي تتلعثم بالكلام، وتشد شعرها بجنون، وتصفع خدها هولاً:

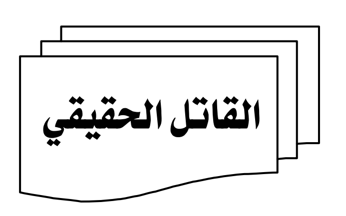
ـ أقول لكَ إني رأيتُ الله، واستمعتُ لحديثه، لقد كلمني.

ثم قالتْ بحزمٍ:

ـ إنه موجود يا عدنان موجود!.

جفَّفَ زوجها دموعها، وغسلَ وجهها المرهق، ثم قالَ لها برقةٍ:

ـ حدثيني الآن يا عزيزتي بهدوءٍ ودونَ انفعال، ما الذي رأيتِه؟ ولماذا قذفتِ بأسامة هكذا كالجرو الصغير في وجهي؟ وكيفَ جاءَ في حضنكِ بعدَ أنْ تركناه غارقًا بالنوم في سريره؟.



جلسَ ماجد، الذي عُرِفَ بسُمعته الطيبة الرائعة كسُمعة الياسمين!.. له عقلٌ عبقريٌّ فذٌّ، أدمنَ القراءة منذ صغره، يتناول فطوره عندَ الصباح الباكر في منطقة الصالحية، قبلَ سفره إلى كلية الزراعة الكائنة في أبي غريب، لقد كانتْ بالفعل رحلة صباحية شاقة ومتعبة، خاصةً عندما يتخلَّلها الزحام الخانق، والأمواج البشرية التي تتزين باللبس العسكري، بحكم موقع الكلية وسط معسكرات، وثكنات الجيش، لتبدو الجامعة وكأنها بستانٌ للمعسكرات!.

كان صباحًا ممطرًا، وكانتْ السماء تبكي وتنعي أحدًا، انهمك بتناول فطوره المكوَّن من طبق القيمر العراقي الذائع الصيت المحلي الصنع مع العسل البلدي والخبز الحار، فإذا به يسمع "أبا جعفر" صاحب المطعم، الذي يتمتع برأسٍ كبيرة كالبطيخة وصدرٍ عريض، قصير القامة؛ ليبدو كالمصارع، وهو يصرخ ويدق الأرض بقدمه بقوة كحصان نافر، متذمرًا، مكفهر الوجه، وهو يقول:

ـ ماذا؟ لا تملك نقودًا؟! ماذا يعني ذلك؟ ها..

ـ نعم يا سيدي، وأنا لا أقول إلا الحق.

ثم أردفَ:

ـ كما ترى، فأنا جندي، أقصد لا أملك شيئًا، يعني معذرةً عليكَ أنْ تصدقني!، وها أنا سألتحق بمعسكري حالاً... (يجيبه الزبون ببرودٍ وغفلة، وكأنه استيقظ من النوم للتو).

ـ أي حق يا هذا؟ (أجابه صاحب المطعم غاضبًا، وسحنته انقلبتْ صفراءَ بلون اللَّيمون، وهو يقول: لماذا تأكل قيمرًا عندَ الصباح ومع العسل إنْ كنتَ لا تملك مالاً؟

حَنَّ قلب ماجد وأشفقَ عليه، وهو يصيخ السمع:
ـ لقد أعجبني منظره، ولم أجد نفسي إلا وأنا أجلس، وأطلب الفطور دونَ تفكير!
ثم شرعَ، يقول:
ـ اعذر لي تصرُّفي غير المسؤول هذا وعلى تسولي!.

لم يعد صاحبنا يطيق الصبر، فهجمَ عليه مقطب الجبين، وكأنه ينوي أكله!.. وهو يدمدم:
ـ كلما كَثُرَ الذباب هانَ قتله!.

ولم يبقَ لماجد من خيار إلا التدخل للفصل بينهما قبلَ أنْ تقع مصيبة، علمًا بأنَّ المطعم كان خاليًا من سواهم، فقالَ محدِّثًا نفسه: يكفينا ما يجري في الخارج من قتلٍ وتهجيرٍ وسلبٍ للممتلكات والحريات، إذن علي أنْ أمنع ما قد لا تحمد عقباه.
حاولَ تهدئة أبي جعفر متوسلاً:
ـ أرجوكَ عليكَ أنْ تعتني بصحتك.
ثمَ استطردَ:

ـ الرجل، وكما هو واضح من كلامه وأسلوبه يمكن التفاهم معه.
وأردفَ بثقةٍ مصطنعة محاولاً إقناعه:
ـ انظر له، إنه ودود وهادئ، ويمكن التحدُّث معه في كل شيءٍ!.
وهو يصوِّب نظراته المستغربة نحو الزبون، الذي يلحس أصابعه بعدَ أنْ عَلِقَ العسل فيها!.

ثم قال، وهو يصطنع الحزم بعدَ أنْ وضعَ نفسه قاضيًا بالتبرع:
ـ كم تملك من المال؟... (وهو يوجه سؤاله، ونظره إلى الزبون المنشغل عنهم).

أجابَ، وهو يقطب جبينه، وكان السؤال غير موجه له:
ـ لا أملك سوى هذه المسبحة التي تراها في يدي!.

عندها جنَّ جنون صاحب المطعم عند سماعه كلمة مسبحة، صكَّ على أسنانه كالذئب، وهو يزمجر بتهالك:
ـ مسبحة! ومَنْ قال لكَ بأنَّ الفطور عندنا يقدَّم لقاء مسبحة؟ هه.
ثم دمدمَ بقرفٍ:
ـ أجبني وإلا اقترفتُ جريمة الآن!.

سحبه ماجد بحركةٍ خفيفة وسريعة نحو أحد أركان المطعم، وهمسَ في أُذنه بخبثٍ مسالم، وكأنه يحاول استرضاء طفلاً يبكي، وقال:
ـ خذ المسبحة! فأنا أعمل في هذا المجال، بل أتاجر فيها، خذها فهي من النوع النادر، لا عليكَ إنها تساوي ثروة، وأنا أعرف قيمتها جيدًا، بينما هذا الأبله لا يفقه عنها شيئًا، فكل ما يفكر به إشباع معدته، خذها واطرده ولا تجعله يدخل مطعمك ثانيةً، سوف لنْ

تخسر شيئًا، بل العكس، ستجني ثروة خرافية من ورائها... (قال له ذلك بعد أنْ عجز عن إيجاد حلٍّ يرضي الطرفين، سوى هذه الحيلة البريئة، على الرغم من أنه لا يحب المسابح، ولم يلمس واحدة في حياته قط، لا خيوطها ولا خرزها، وتذكر المثل القائل: أي قميص لا يصلح للعريان).

صدقه الرجل عن طيب خاطر عجيب كالطفل تمامًا، وقالَ باسمًا:

ـ أحقًّا ما تقول؟

أومأ برأسه، علامة الإيجاب.

فقالَ حازمًا:

ـ هل تقسم على ذلك؟

ـ نعم أُقسم... (وهو لا ينوي سوى فعل الخير فأقسم، وروحه راضية مطمئنة ونفسه مسرورة!).

اقتنع صاحبنا بالفوز العظيم بعدَ أنْ استحوذ على الكنز، وهو يضغط على المسبحة بقوة، وكأنه يخاف عليها من أنْ تطير... يخرج ماجد منتشيًا لكون المشكلة انتهتْ بسلام!.

انقطعتْ زيارات ماجد إلى المطعم بسبب مرضه المفاجئ الذي أقعده عدة أيام، وبعدَ أنْ تعافى وعادت صحته تتحسن، تاقَ إلى القيمر والعسل والخبز الحار، فوجَّه دعوة إلى صديقه وزميله في الكلية عامر؛ كي يتناولا فطورهما في ذاك المطعم.

وقفَ ماجد عندَ ذلك الصباح مذهولاً، خجولاً أمام عامر، لا يعرف كيفَ يعتذر منه، فقد وجدا المطعم مغلقًا، فإذا بماجد يدمدم بكلماتٍ غير مفهومة، وهو يقول:

ـ سأسأل عنه.

ثم هبَّ منصرفًا إلى أحد المحال القريبة، وإذا به يصعق من هول الخبر... رجع إلى صديقه منهارًا، وأطرافه ترتجف من الخوف والانفعال، وهو يروي قصة الخبر بتهالك مفضوح:

ـ لقد قُتِلَ صاحب المطعم قبلَ يومين.

ثم باتتْ كلماته تتدحرج من فمه ثقيلة متقطعة، وهو يقول متشنجًا:

ـ لقد ساعدتُ وخططتُ لارتكاب هذه الجريمة الشنيعة دونَ قصدٍ، أو إدراك، أو حتى سوء نية، حين رفضَ أبو جعفر إرجاع المسبحة آه يا إلهي كيف لم يخطر ببالي ذلك؟

ثم يرد على نفسه كالمجنون بعدَ اشتدتْ آلامه وتداعى صوته:

ـ ولكنْ كيف يمكن لي التكهن فيما سيحصل؟ لقد كنتُ أنوي منع شجار يحدث أمامي، وقد يتطور إلى ماذا؟... لقد قُتل الرجل بسبب المسبحة!.

ثم ردَّد، وهو يتخبط في الكلام كالمحموم:

ـ لقد كان الزبون يسمعنا عندما كنتُ أحاول إقناع صاحب المطعم بأنها ستغني له ثروة.

ثم قال، وصوته يرتجف، وفيه حشرجة اليأس:

ـ يا لي من غبي، لقد كان يسترق السمع! وصدَّق المسكين كذبتي البريئة الساذجة، واستحوذ الطمع على عقله!... هل فهمتَ المصيبة؟ (قالها، وهو يصوب إلى صديقه عامر نظرات قاسية، ليس لها معنى جامدة، وكأنها نظرات ميت).

انكسرتْ دمعة على خده، شعر وكأنها تفجرتْ من بين أضلعه، بينما بهت عامر صامتًا ساكنًا كالحجر، وعيناه تلح عليه بمائة سؤال وسؤال، بعدَ أنْ علتْ آيات الدهشة، والاستغراب، والحيرة على وجهه، وهو ساخط من بؤس صديقه، وحجم الكارثة التي لم يكن يعنيها إطلاقًا.

حاولَ عامر تهدئته، وهو شارد اللُب، ثم استرد جزءًا من شجاعته، رغم خفقان قلبه بقوة، وتدافع أنفاسه، واحتقان الدم في وجهه، وهو يقول برقةٍ مصطنعة:

ـ إنها مجرد صدفة، أي بمعنى آخر: قضاء وقدر ليس إلا، فلم تكن تعلم بأنَّ الأمور يمكن أنْ تسير بهذا الاتجاه المأساوي.

قاطعه ماجد بحدة، بعد أنْ غمرته موجة انفعال مضطرب، وهو يقلِّب عينيه، وكأنه شربَ السم قبل قليل! يبكي ويتلوى، ويصرخ عاليًا:

ـ أنا، أنا القاتل الحقيقي، إنها نصيحتي القاتلة.

ثم سرتْ رعشة في جسده، زلزلتْ قلبه من مكانه، فسقط على الأرض فاقدًا الوعي، وكأنه لا يريد أنْ يعرف عن حياته القادمة شيئًا آخر!.

بينما ظل منظره على رصيف الشارع، وهو مسجى يثير في النفس مكامن الشجن، وصرخاته المدوية، التي أطلقها تجعل الشقاء تحت أقدامه يبكي والأحزان بهيبتها تصمت!.



لم تمضِ إلا أيام قليلة، كعمر السعادة على الأرض، في ليلٍ كان يبتلع الظلام فيه كلَّ ما هو كائن، تغوص في جوفه كلُّ الأشياء بخنوعٍ عجيب دونَ مقاومة؛ لتقبع دونَ حِراك لحين بزوغ أعتى قوى الكون: الفجر، الذي يدنو بخطى بطيئة؛ ليعلن عن بدء الحياة من جديد لتدور دورتها، والبشر هنا أصغر وأضعف كائنات الحياة تسير معَ السائرين دونَ إرادة، راضخون لواقعهم حتى وإنْ تفاخروا بالعلم غرورًا وتباهوا في الدين رمزًا للأخلاق!.

ظهرَ أبو جعفر صاحب المطعم، في غفلةٍ من عالمه الجديد، باسمًا ووجهه يشع نورًا غريبًا، كأنَّ عمره قد عاد عشرين عامًا إلى الوراء، وهو الذي لم يفارق سكان الأرض إلا أيامًا معدودة، ليواجه ماجد وجهًا لوجه كانعكاس الجسد بالمرآة، عندما كان الأخير يغطُّ في نومٍ متقطع مليء بالمشاهد المزعجة المرعبة التي باتتْ منذُ صعود روح أبي جعفر إلى عالم الأموات، لا يرى في منامه إلا صور الموت، وحبال المشانق، ورصاص البنادق، وهي تدق عنق الزبون الذي قتل أبي جعفر.

نهضَ ماجد من سريره كالمصعوق، مذهولاً من المفاجأة.. أرادَ أنْ يصرخ، فخذله صوته:

ـ منْ؟ أبي جعفر؟

ثم أردفَ، وهو يمصُّ شفتيه اليابستين، وجسمه ينزُّف عرقًا من هول الموقف:

ـ ما الذي جاءَ بكَ إلى هنا؟ وكيف خرجتَ من قبرك؟! ما لي أراكَ صغيرًا كالصبي؟ وما هذه الابتسامة التي تعلو محياكَ؟

ثم استطردَ، وهو يبلع ريقه بصعوبة بالغة، وكانتْ الكلمات أبتْ أنْ تخرج من فمه:

ـ إنها بالتأكيد ليستْ لكَ، أقصد إنكَ شخصٌ آخر.

ثمَ تهاوى على الأرض باكيًا، وهو يدمدم، ويتنهد بحزنٍ عميق وبذهولٍ قاسٍ، وكأنه يتجرع شيئًا يجهله، سيموت بسببه:

ـ أرجوكَ أصدَّقني القول مَنْ تكون؟

تقدَّمَ أبو جعفر منه بهيئته الجديدة النظيفة، التي قد يحسد عليها، بهدوءٍ وروية، وهو يضع يده على رأس ماجد، ويقول بصوتٍ ملائكي ناعم كصوتِ النساء:

ـ انهض يا ماجد أنا لا أحب أنْ أراكَ هكذا منهارًا، وكأنكَ اقترفتَ جريمة.

ثم أردفَ بسكينة عجيبة:

ـ مالي أراكَ هكذا متعب الضمير؟ على الرغم من أني لا أرى أي سبب يستدعي ذلك!.

واستطردَ برنَّة جميلة ساحرة:

ـ إنكَ لم تقترف ذنبًا، فلماذا كل هذا العذاب الذي تحيط به نفسك؟

حاول ماجد أنْ ينهض، فلم تسعفه قوته، وهو يهمس متثاقلاً:
ـ كيفَ لم أقترف ذنبًا؟ ألم أجعلكَ تُقْتَلْ نتيجة نصيحتي الرعناء تلك؟

ثم استطردَ متهالكًا، وهو ما زال يستمتع بالجلوس على الأرض:
ـ لقد اقترفتُ جريمتين في آنٍ واحد، جعلتكَ تُقتل، والآخر قاتلاً، وأنتَ تتساءل باستغراب، لِمَ أراكَ متعب الضمير؟

ثم حاول النهوض، فمنعه صاحب المطعم برقةٍ لمسة الفراشة للزهرة، وهو يقول:
ـ أنا لم آتِ إلا لأدعوكَ؛ لأنْ تأتي معي حيث عالمي الجديد، عالم الأنوار، عالم لا يسكنه إلا الخير والصدق والطمأنينة، عالم لا يعرف الخيانة، أو الغش والكذب، أو المنافسة والحسد، أو الزنا والفسق، أو البخل، أو حتى الدكتاتورية الأسطورية، التي ولِّدتْ وهرِّمتْ في عالمنا الشرقي المتهالك.

ثم تابعَ بجلالٍ رهيبٍ، وكأنه الوحي:
ـ هناك في عالمي لا وجود للبغضاء، أو للحقد مكان، وليس هناك ثمة أمر يجعلكَ تعيسًا أو متضايقًا، وفوق كل هذا أننا من عالمنا نراكم جيدًا، وبوضوحٍ خارق، وكأنكم تحت مجهرنا ننظرُ إليكم، ونتأسف على حياتنا التي قضيناها بينكم على الأرض.. فمثلاً رأيتُ قبل يومٍ داعيًا دينيًا، يصلي الفجر مع الناس، ويسكر عند المساء في داره!.. وآخر أمينًا للسرِّ، وهو يبيع بضاعته ببخسٍ عجيب كما يبيع السارق مسروقاته، حتى غمرني الأسف والضحك على الإنسان، وهو يقول الشيء ويفعل النقيض... وسوفَ لنْ أُحدثكَ عن رؤساء

الدول العربية، فإنني رأيتهم بأُم عيني: يقيمون الصلاة، ويقدِّمون الزكاة أمام الملأ، ويهزون بطونهم وصدورهم في قصورهم عند أقدام جواريهم!.

ثم استطردَ بكل عفوية، وهو يقول:
ـ الغريب في الأمر، هو عندما يجنُّ اللَّيل يتذكرون الله، فيدعون أفضل ما عندهم من واعظين، يجعلونهم يغرقون في دموعهم حبًّا وحرقةً واستغفارًا لذنوبهم، التي اقترفوها للتو حتى يصل هيامهم بالله حدَّ الإغماء! بينما في عالمنا النوراني ذاك، لا تجد هذه الأشياء إطلاقًا، فنحن نستمتع بهدوءٍ وسكينة وكل شيءٍ متوفر إلا الشر، وهذا ما لا نحتاجه فنحن هناك لا نجوع، ولا نعطش أبدًا، ولكَ أنْ تعلم أي هناء نحيا ونستمتع به.

ثم أردفَ قائلاً، وهو ينظر إلى ماجد بكل وجلٍ:
ـ ألم يقتلني الزبون قبلَ أيامٍ بسبب طمعي في المسبحة، وما ستدر علي من ثروة؟! ألم يقتلني هو لنفس السبب؟! فلماذا تعذِّب نفسكَ؟ وأنا أراكَ أصيلاً، ذا أخلاق وسريرة رائعة متفتحة، ومهذبة من كل شرور؛ لذلك اتخذتُ قرار زيارتكَ؛ لأدعوكَ أنْ تأتي معي حيث عالم الأمان، والسلام الخالي من الخطيئة والآثام، وكما يقال: (حياتكم على الأرض كذَّنب الحمار لا يزيد ولا ينقص)

نظرَ له ماجد باستغراب ٍ شديد، وهو يغمغم:
ـ ولكنْ لماذا تطلب منِّي أنْ أرحل من عالمي هذا إلى عالمكَ الجديد؟

ثم تابعَ، وهو يرتجف:

ـ أنا ما زلتُ في مقتبل العمر، ولي أحلامٌ لم أحققها بعد، ورسالة لم أنتهِ من كتابتها، فأنا أحلم أنْ أكون كاتبًا يُشار له بالبنان، رغم ما قدَّمته من دعوةٍ مليئة بالصفاء والنقاء، ولكنْ نحن سكان الأرض نجهل كلَّ الجهل حياتكم هناك، ولا نعلم شيئًا عن ماهيتكم، وأنتم في عِداد الموتى، وكل الذي نقوم به هو البكاء والنوح عليكم، ومن ثمَّ الحزن لبضعة أيام عندها تتدخل إرادة الله، فتجعل عقولنا وقلوبنا جائعة للنسيان، فيعود المرء منا إلى حياته ثانيةً وكأنَّ شيئًا لم يكن!.

يجيبه أبو جعفر على عاصفة تساؤلاته بكل رقه قائلاً:

ـ إنْ كنتَ ترفض المجيء معي، فهذا شأنك، لكنني سأجيبكَ على تساؤلاتك وأدعو مَنْ كل قلبي المحب لكَ أن تغّير رأيك في حياة الأرض التي تشقون وتجهدون أنفسكم فيها بلا جدوى.

ثمَ قالَ بصدق لا ينقصه الحزم:

ـ الإنسان منذ نشأته وهو يهاب الموت ويخافه، ولكن صدقني يا ماجد: لحظة تسليم الروح هي من أرقِّ اللحظات التي تنتاب الإنسان وهو يودع الحياة، إنها رعشة لا يشعر المرء فيها بالألم أبدًا، والغريب في الأمر الذي يجهله سكان الأرض هو إنَ الإنسان المحتضر يرى حياتنا وعالمنا قبل أن يصلنا! فهناك رابط خفيَّ يجعل المحتضر يشاهد ويسمع أشخاصا ليس من كوكبكم ولا يتكلمون لغتكم، لقد رأيت في تلك اللحظة أنبياء ديني ووجه الله الذي تعذر عليكم رؤيته حتى هذه الساعة... هل تصدِّق ما أقول؟

عندها خفضَ بصره وهو يسأله جادًا متلهفًا:

- أصدقني القول ولا تخف، فصدري كقبري لا يُنبش أبدًا: هل كانتْ المسبحة فعلاً غالية الثمن ونادرة وتساوي كنزًا كما قلتَ وأقسمتَ على ذلك؟

ثمَ انسحبَ بصمت كالظل كما أتى، ليترك ماجد بينَ النوم واليقظة، وذكرى لم تنشف دمعتها بعد.



شاهدها في الحرم الجامعي وهي تسير كالفراشة، متنقلة بينَ الأزهار، أسرت لُبَّ قلبه من أول نظرة، ولم تفارقه صورتها أبدًا طوال ثلاثة سنوات ذابَ شوقًا وهو يتابعها أينما ذهبت، وازداد لوعة وحرقة وهو يراها تتوسط الجلسات التي تجمعها معَ زملائها وزميلاتها في نادي الكلية، ولم يحاول في يوم أن يقترب منها أو يلفت انتباهها، فظلت هي حقيقة عالمه الذي يحيا من أجله، وطالَ ترديده لتلك الكلمات: (من أجلكِ يا ملاكي سأنتظر العمر كله)... بينما بقي كالشبح لا يعبِّر لها عن شيء سوى وهم أو خيال لا تفقه معنى له، ولم يكن في حسبانها أبدًا.

الصمت كان كل ما يفعله "سعد" حيال "سعاد"؛ تلكَ الفتاة التي دخلت الكلية معه في نفس السنة، لكنها تدرس في قسم آخر، ما بقيت نظراته التي تلاحقها في فترات الاستراحة أو الصدفة أو المتابعة المقصودة، التي دفعَ حقها محاضرات كثيرة، لم يحضرها بسبب انشغاله برصد حركاتها وهو يستمتع بضحكتها الساحرة التي تجعل من روحه تفيض وجدًا وعذابًا دونَ وصوله إلى بر الأمان.

تحدثَ معَ زميله طه، وبكى كالطفل وهو يذرع قاعة المحاضرات من ركنٍ إلى ركن ويقول ممنيًا نفسه:

- آه لو أستطعتُ محادثتها، كي أعبِّر لها عن هيامي وعشقي وشغفي بها...

ولكن صمتَ برهة، استغرقَ في تأملاته ثمَ تابع مكسور الخاطر:

- إنها كل شيء في حياتي تصور يا طه، أنا لا أحبُّ أن أغادر الجامعة بسببها، حتى دروسي أهملتها، وقد بدا تأثري هذا واضحًا لأهلي حتى جعلَ أبي يتذمر من حالة النسيان التي تنتابني بقوة وكأنني في السبعين!.

ثمَ علت ابتسامة باردة على شفتيه اليابستين والتي سرعان ما تحولت إلى توسلات وهو يثير الدهشة ويجذب انتباه صديقه بشكلٍ مُريب، فاستطرد بقلبٍ راجفٍ قائلاً:

- أرجوك يا طه ألستَ صديقي؟! قلْ لي ما يمكن أن أفعله؟ فإني أكاد أجن

- لا عليك يا صديقي فلكل مشكلة حل.

ثمَ أردفَ بتوجس:

- الرجل منا لا يكون رجلاً، إلا إذا أستطاع أن يسيطر على مشاعره، فتلك الأحاسيس هي القوة الكامنة التي تجعل منا شخصًا كالحجر لا ينكسر بسهولة، وإني أراك للأسف ساهيًا، رقيقًا ومعذبًا حتى إنك وهبتَ أجمل ما عندك من مشاعر دون أن تعرف أي شيء عنها إن كانتْ مرتبطة بغيرك أو مخطوبة، وقد تكون متزوجة أصلاً.

قاطعه سعد بامتعاض وقد انهال عليه باللوم والتعنيف:

- لماذا تنذر بالشر وترسم لي صورةً سوداء بلون ليل غابت أقماره، أجئتُ بك كي تعصفَ بي ريح الدمار، أم لتخفف عني هول كابوس الحب هذا وخطورته التي باتت كالمرض أعاني منه؟
- عزيزي، أنا لم أقصد ذلك تمامًا وكل ما أردت قوله هو...
- لا تقل شيئًا لنغادر القاعة، فالمحاضرة ستبدأ، ويبدأ معها عذاب الانتظار الذي يهز الأفئدة...
وهو يدمدم بصوت مرتجف لا يسمع: صديق قال يحاول النصح وهو خالي من البراعة والذوق... (أجابه سعد ساخرًا).

مضت ثلاثة سنوات متتالية على حياة سعد أثناء دراسته الجامعية لا يشوبها الأمل ولا يطويها الارتياح، حياته أصبحت كالظلام في الكهف، باتَ شخصًا سلبيًا جدًا، يشكُّ في كل قول لا يراه في صالحه... ومضت أيامه تسري بسرعة الريح دونَ نجاح يتوقعه فالإهمال كان بطل مسرحياته جميعًا، لا يأكل إلا ما ندر، بعدَ أن أهمل لباسه إلى درجة القسوة، في حين غادرته الفرحة منذ زمن بعيد، وما تبقى له على مواصلة الحياة هو إشباع عيونه من النظر إلى حبيبته التي لا تعي ما حولها وهي ما زالت كالملاك تعيش الحياة وتسعد بلحظاتها حتى العادية منها.

عندها حدثَ ما لم يكن لأحد أن يتوقعه أبدًا.. معجزة في الزمن الراهن؛ حسب تصور سعد؛ تلك المعجزة التي كادت تنهي حياته من الفرحة والاغتباط... سقطت نظراته على سعاد وهم ينتظرون الحافلة التي ستقلهم إلى مركز مدينة بغداد بعدَ خروجهم من الجامعة

وكما تعوَّد لن يتجرأ الاقتراب منها، واكتفى بالتحديق وهو يتابع حركاتها وتموج شعرها وهي تروضه بأناملها.

فجأة تغيرت نواميس الكون عنده، وأصبحت الحياة لعبة على كف عفريت، إذ شاهدها وهي خائفة، ترتجف أطرافها وتحاول الاختباء، عيونها التي كانتْ ملاذًا للأمان، أصبحت فجأة قلقة وساحة للاضطراب.

قالَ في سرِّه ونظراته الملتهبة تتابعها كظلها:

- ما الذي يقلقها؟ إنها تحاول الهروب أو الانزواء؟

وإذا به يجد العلة التي جعلت من ملاكه جسمًا محطمًا لا ينتمي إلى الحياة، شاهدَ رجلاً يتابعها بكل حواسه، يقتربُ منها ويبتعد، يسمعها كلامًا لا يصل إلى مسامعه، يحاول مسكها من ذراعها، فتهربُ زائغة كالزئبق من يده... فاشتعل الغضب في رأسه، ولم يعد يرى سوى سعاد المحطمة أمامه بكل انكسار دونَ رحمة... وجاءت فرصته التي لم يخطِّط لها أبدًا، ولم يجرؤ يومًا على اقترافها، لكنه في هذه اللحظة الحاسمة لم يفكِّر إلا في كيفية إنقاذ ملاكه من براثن الخطر المحدق بها.

توجه إليها بكل عنفوان وهدوء وهمسَ في أذنها باسمًا:

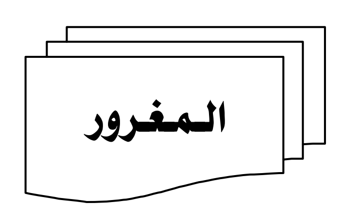
- أنا سعد...

ثمَ صمتَ لحظة كادَ يتقهقر فيها ثمَ تابعَ بحزم:

- أنا زميلكِ في الكلية لقد رأيت هذا الوحش وهو يريد التهامك.. هل لي أن أساعدك؟

- أرجوك قف بجانبي...
أجابته سعاد بلهفة، ثمَ أردفَت بحماس حقيقي:
- قد يفهم وجودك بأنك شخص قريبي ويبتعد ليعتقني، لقد أخافني جدًا وشعرتُ بأني سأموت من الهلع والرعب... وأشارت له: انظر إنه كالأحمق الطائش الذي لا يعرف الخجل أو الوجل...
ثمَ سألته برقة عجيبة:
- ها هل ستساعدني؟

لعنَ نفسه واليوم الذي ولدَ فيه، وهو يغمغم بفرح عارم:
- طبعًا أجل سأساعدكِ وأقفُ بجانبك، بل إذا أستدعى الأمر فإني سأوصلكِ إلى داركِ، إن رغبتِ أو دعت الضرورة.
- آه كم لطيف وشهم، لقد كنتُ أنوي أن أقول لكَ ذلك وخفت أن تحرجني.
- لا لا عليكِ، فأنا لا أفعل هذا دائمًا...
قالَ ذلك وهو يتنفس بصعوبة وبالكاد يبلع ريقه كمن يفسد لعنة أو يفضح سرًا وهو يجد نفسه أخيرًا وبعدَ ثلاث سنوات كاملة من العذاب والأرق والتفكير والوجد جنبًا إلى جنب مع الملاك الذي كان ينظر له ولا يجرؤ على التحدث معه.. وها هي الآن تلهم وجدانه وتحفزهُ على الانطلاق والتسامي، ليستقبل الحياة وكأنه ولدَ من جديد.



المغرور

أُصيبت أسواق الدواجن بالكساد، وتأثرت مصالح الطيور دونَ استثناء (ذكورهم وإناثهم) عندما اشتعلت معركة كلامية صاخبة بينَ الديك والدجاجة، فقبع الهلاك في الأركان متربصًا، وجلست بعض الحيوانات الحاسدة، الفارغة واللاهية تضحك بسخرية كضحك الشياطين تتأمل نتائج النزاع.

تبخترَ الديك في مشيته المتعالية بخيلاء عجيبة، ومطَّ رقبته، وجعلَ رأسه مرفوعًا وكأنه ينظر إلى السماء داعيًا بتباهٍ يقول:

ـ أنا الديك، أنا صاحب العرف الأنيق والعيون الساحرة!.

ثمَ أردفَ بغرورٍ لا يُطاق:

ـ أنا صاحب الصوت الشجي الذي يوقظ الناس دونَ تباطؤ.

وعندما حاول الاسترسال في الإطراء، قاطعته الدجاجة بحدة:

ـ كفاكَ غرورًا وتباهيا... ثمَ شرعت بغيظٍ:

ـ لقد أهلكتنا يا ديك بصوتك وصياحك الذي لا ينقطع.

ثمَ أشارت له بدقة كعادة الدجاج وهي تسأله:

ـ قل لي يا صاحب الصوت الجميل، لماذا لا تملك مثل هذه الزوائد التي نملكها نحن معشر الدجاج؟... وهي تشير إلى موضع في ساقيها والقريب من أقدامها.

ضحكَ الديك مرتبكًا، وصاحَ باستهزاء:

- اصمتي يا دجاجة واتقي الله فالصمت في هذه الأحوال أفضل لكِ.

ثمَ استطردَ بخبث قائلاً:

- كيفَ يمكن لنا الولوج إذن دون هذه السلالم؟

وتابعَ غامزًا:

- ستجعليننا نكفر أو نأتي بفاحشة إن تطرقنا بشرح المزيد من مزايا وفوائد هذه السلالم... وهو يتلفت حوله حرجًا بعدَ أن وشح رقبته وهو يقول: اصمتي يا دجاجة أرجوكِ ستضحكين علينا الطيور وبقية الحيوانات؛ إن سمعتنا ونحن نتحدث ونلهو هكذا بالكلمات بكل علانية ومجون.

أجابته الدجاجة بحزم وهي تقف قبالته كالندِّ:

- أراك تتهرب من سؤالي كالخائف، لماذا لا تملك مثلها؟

ثمَ صمتت بوقار حسبه تكبرا ومباهاة، غلى الدم في وجهه وذاق ذرعًا بالنظر وطافَ كيل صبره فقال متذمرًا وبعصبية حادة:

- هكذا خلقنا الله من دونَ تلك تلكَ الزوائد.

ثمَ صرخَ بحنق:

- هلا تكرمتِ علينا بصمتِك الآن، اتركينا نعيش كما كتب الله لنا بسلام ووئام دونَ نزاع وآلام.

- إذن تعترف بأنَ الله خلقكم هكذا؟... (سألته الدجاجة مجددًا)

- نعم، أعترف.

ثمَ قال بانفعال:

- اعتقينا يا دجاجة.

ثمَ أردفَ بصوت هامس ليس من عادته، بعدَ أن شعرَ بتقهقر ودوران في رأسه:

- لماذا لا نتفق ونتهادن؟

تجيبه الدجاجة بكل ثقة واعتداد:

- لماذا التباهي والتكبر والغرور إذن؟

ثمَ استمرت قائلة:

- فالله لم يخلق فيكم هذه الصفات المتعالية التي هي بعيدة عن روح الخالق وعظمته... (تجيبه وتبدو رائعة الجمال وهي تدافع عن حجتها وتناقشه في أمور غاية في السمو والتعقيد)... إن الله خلقكم هكذا ديوكًا من دونَ غرور وغطرسة.

يتنفس بصعوبة بالغة وبجهد واضح، وهو ينبش الأرض بعصبية ويقول:

- هذا صحيح.

ثمَ هتفَ:

- لكن كيفَ يمكن لنا أن ننتج ونحيا دونَ تباهٍ؟

أجابته بصراحة:

- يمكن لكم العمل والإنتاج والحياة دونَ غرور وتكبر، وهذا أفضل لوجه الله ولمعاني الخلق.

قطبَ جبينه متسائلاً وهو يحدجها بنظرة ارتياب:

- يا لها من معركة خاسرة وحظها أسود من اللَّيل!.

- قل ما تشاء، فلن أتنازل عن ذرة واحدة من مبادئي، ولن أساوم أو أهادن.

ثمَ استطردت قائلة بسرور:

- فاعلم؛ إن كنت لا تعلم؛ هذه هي طبيعة الدجاجات منذ الأزل!... وهي تمشي أمامه بغنج.

أجابها متعجلاً:

- أتمنى أن تهتمي بشؤونكِ الخاصة، وأن لا تنظري كثيرًا لما يفعله الديوك.

- وما هي شؤوني يا ديك؟

- أن تأتي بالبيض كي يفقس عن كتاكيت جميلة تملأ الحياة حُبًّا وبهجة... (قالَ ذلك بتفاخر).

- وماذا بعد؟

- لا شيء

باغتته الدجاجة متسائلة:

- وماذا عنكم؟

- نحن.. نحن ننبش الأرض، ونتسلق أسطح المنازل، ونصيح ونثقب آذان السامعين بصياحنا.

ثمَ ردَّ متسائلاً:

- ألا يمجِّد التاريخ لنا ذلك؟ وهو يدقق فيها النظر باهتمام واستعلاء.

نظرت له بعينين حذرتين متطلعتين وقالت بإجلال:

- عظيم، إذن تعترف أمامي وأمام كل الطيور التي تجمعت، والحيوانات التي تتسلى وهي تستمع لما تقوله؛ بأنكم لا تجيدون سوى الصياح ونبش الأرض والاعتداء على حرمات المنازل بتسلقكم أسطحها؟

ضاق الديك ذرعًا من هول الجدال وما آلت إليه نتيجته، فصرخَ وكأنه ينذر بالويل فقال:

- أنا لم أقصد ذلك، لكنكم يا معشر الدجاجات تؤولنَّ كلامنا دائمًا بما يخدم مصالحكن!.

ثمَ أردفَ:

- أرجوكِ يا دجاجة إذا استمرَ بنا النقاش هكذا فسوفَ لن ننتهي أبدًا.

- وماذا تطلب مني أن أفعل؟

- ارقصي مثلاً.

- وأنت؟

صمتَ برهة مفكرًا، وقال:

- سأصفق وأصيح.

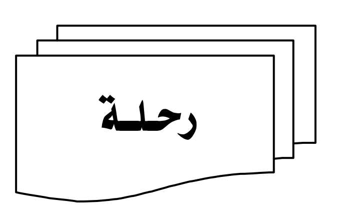
- تعني ستنظر وتتمتع وتطرب وتصيح.

- نعم هذا صحيح، ثمَ أصيح وأجعل الآفاق تغرق بصياحي...

وهو يدمدم:

- انظري، هكذا...

وإذا به يطلق ساقيه للريح ويتسلق سطح أحد المنازل، وتهيأ وكأنه يريد أن يبيض، وصاحَ بأعلى صوته: عيعو عيعو.



يرجع، وينتشر الغبار وراءها متقهقرًا، متناثرًا، حاقدًا وغاضبًا حينَ كانتْ الحافلة تسير كحصان نافر، وهي تشقُ طريقها وسط طريق صحراوي قاحل في وقتٍ كانتْ الشمس تتوسط كبد السماء بكل عنفوان وشموخ؛ والسائحون يستمتعون إلى صوت وشجن الموسيقى الشرقية المصرية الخفيفة، التي تجعل الصدور والبطون تهتز دونَ إرادة أو سيطرة، والسائق كمال الشيخ الذي جلسَ وراء المقود، بجلال وثبات واضح كأنه يقود طائرة؛ يبدو قد قاربَ السبعين من عمره، والرافض لأي طلب أو رجاء يتعلق بالتنحي عن قيادة الحافلات إذ تراه دائم القول: لقد خلقتُ سائقًا، وسأموت وأنا أجلس خلف مقود الحافلة.

لم يسأل نفسه يومًا: ماذا لو جاءته النوب وهو يقود الحافلة التي تضجُّ بالركاب.. لم يفكر في هذا الأمر أبدًا، وكل ما كان ينازعه، هو عشقه لعمله.

بدأت الرحلة بالمرح والفرح، وتعلقَ الركاب بأحلامهم التي سيرونها حالَ وصولهم إلى واحة الأساطير تلكَ الواحة التي سمعوا عنها أن فيها ما يدعو للعجب حيث ماؤها الساحر، وشذا أزهارها العطرة الأخّاذة التي تأسر العيون قبلَ القلوب

همسَ رجلَ الأعمَّال فاروق بأذن الذي يجلسُ بجانبه - الرجل الذي يبدو لأول وهله وكأنه متدين- بفتور مصطنع:

- الأجواء داخل الحافلة جميلة، والسعادة تلوح في وجوه الركاب، حتى ليبدو وكأنهم يحلقون في منطاد عالي الارتفاع.

ثمَ قالَ بتراخٍ: انظر إليهم.

يجيبه العجوز المتدين في هيئته، وله عيون غائرة، وجبين عريض، بعرض كفه:

- عندكم حق يا صاحب المعالي.

وصمتا برهة وكأنهم يتبادلان الاتهام سرًّا.. ثمَ أخذَ العجوز يتنحنح ويدمدم بصوت ناعم: يا دافع البلاء ارحمنا، ونجنا من شرور الشياطين، ثمَ سعل وهو يوجه سؤاله بعفوية إلى فاروق قائلاً:

- ماذا لو تعطلت الحافلة هنا ونحنُ في مجاهل الصحراء؟

وتابعَ:

- والله ستأكلنا الضباع قبلَ أن تدبغ جلودنا حرارة الشمس الملتهبة.

- يا رجل... وهو ينظر له بعين ملؤها السخط فجأة، فقال متندرًا: لماذا تتصور الشر وتحتاطَ له قبلَ وقوعه؟

وواصلَ متهكمًا:

- يا مؤمن، قل لن يصيبنا إلا ما كتبَ الله لنا.

ثمَ أردفَ بتكبر:

- أنا أحملُ معي دائمًا هاتفي المحمول، وبرنة قصيرة، أكون في منزلي دونَ جهد أو عناء... وهو يبتسم بغرورٍ وتباهِ.

ردَّ عليه العجوز دونَ مبالاة وبإشفاق:

- لقد جرَّبتُ هاتفي قبلَ دقائق؛ وجدته خارج نطاق عمل الشبكة، يعني كالميت، لا نبضَ فيه ولا روح.

احتلت مظاهر الوجوم والقلق والخوف كل كيان رجل الأعمَّال، وبسرعة الصاروخ تبددت فجأة كل علامات الفرح والسرور والغرور، واستقرت مكانها معالم الحزن والرهبة.. ثمَ شعرَ بأنَ زميل الرحلة ينتظر جوابًا على ما قاله، فاستفاق من ذهوله المفاجئ، وشرعَ يقول:

- الحقيقة (لحظة سكون وصمت قاسية علت في مكانهما) ثمَ همسَ بصوت مخنوق: أريد أن أقول بأني لستُ مقياس الخير أو الشر في الوجود، وكل ما فكرت فيه هو أن لا نستبق الأحداث، فإذا أرادَ الله لنا السلامة، كانتْ، وإذا لم يشأ...

ثمَ صمتَ وكأنه شعرَ بمرارة ما سيقوله، فصمت.

أجابه العجوز بندم لما وصلت له نتائج تخميناته الجهنمية، فقالَ مهدئًا:

- لا عليك يا صاحب المعالي، إنها مجرد أوهام، صدقني لقد نسينا أنفسنا وتمادينا في الخيال، وها نحن جعلنا أرواحنا تحتضر ونحنُ مازلنا أحياءً نُرزق.

ثمَ أردفَ بإطراء:

- انظر، فصحتنا جيدة، ونحنُ ذاهبون للمتعة والاستجمام.

وتابعَ منشرح الأسارير:

- يا رجل انظر عبرَ النافذة إلى تلكَ السموم التي تتراقص متموجة إذ قد تصل الحرارة إلى ما يزيد عن ثمانٍ وأربعين درجة مئوية، في حين نتمتع هنا بدرجة أقصاها اثنان وعشرون.

فجأة مالت الحافلة عن طريقها بشكل مرعب، بدأت تهتز وتعلو وتنخفض كالأفعى الهاربة، بينما تناثرت الحقائب وأغراض المسافرين في كل مكان من الحافلة، وبدأ الصراخ والبكاء والنحيب يسود أجواء الحافلة بعدَ أن ركبهم الرعب والخوف.

نظرَ رجلَ الأعمَّال، وهو يتمايل كورقة في مهب الريح بعين باكية إلى السائق كمال الشيخ، فرآه كالنائم وراء المقود، لا يتحرك في مكانه، فصرخ منهارًا:

- أرجوكم انظروا إليه، إنه نائم.

توجهت الأنظار إلى كل صوبٍ، ثمَ علا صوت فاروق مستنكرًا:

- إلى ماذا تنظرون؟

ثمَ صاحَ بأعلى صوته:

- أقصد السائق، انظروا إليه؛ إنه نائم.

استمرت الحافلة تصعد المنعطفات وتنزل، تميل شرقًا وغربًا... تقدم أحدهم من السائق فإذا به يصعق من المفاجأة؛ فصرخَ كالمجنون قائلاً:

- لقد مات السائق.

- ماذا؟...

أصوات وأنفاس متحشرجة مكتومة وصارخة:

- ماذا تقول؟ ماتَ السائق؟

- أحد الركاب: ما العمل؟ سنهلك لا محالة.

- آخر: ستنقلب بنا الحافلة وتشتعل فيها النيران... (قالَ ذلكَ وهو يبكي كالطفل).

انتصب فاروق واقفًا وهو يزمجر كنمر مثخن بالجراح:

- يجب أن نوقف الحافلة، وبأية طريقة وإلا سنموت جميعًا.

ثمَ نظر إلى العجوز المتدين (نظرة ازدراء) وقال:

- لقد استبشروا بالموت، وها نحن نموت.

ثمَ بصقَ على أرض الحافلة وهو يدمدم:

- إبليس بهيئة ملاك.

- ماذا تقصد؟

- لا شيء، ستزور الجنة قريبًا جدًا، بإذن الله...

قالها فاروق متهكمًا هازئًا.. في حين ظلَّ العجوز صامتًا، وهو يردِّد كلمات مبهمة غير مسموعة، ووجهه صارَ ممتقعًا وشاحبًا، كوجه ميت.

فجأة توقفت الحافلة على حين غرة، بعدَ أن اصطدمت بإحدى التلال الرملية...

تنفسَ الركاب الصعداء، وبدأت الأصوات تنخفض، وحاول البعض إعادة الحقائب إلى موضعها السابق، في حين تقدم البعض نحو السائق، وإذا بهم يقولون: إنه ما زال على قيد الحياة لكنه لا يتحرك، إنها أزمة قلبية، أرجوكم علينا مساعدته.

حملوه إلى أحد المقاعد القريبة منه، وحاولوا فتحَ أزرار قميصه، بينما وقفَ فاروق وسط الحافلة كأنه ينوي أن يخطب، فقال مصرحًا:

- هل منكم منْ يستطيع فحص الحافلة وإعادة تشغيل محركها، ومن ثمَّ قيادتها؟

لا جواب... وكأنه وحده في الحافلة !.

كرَّر النداء بعدَ أن دقَّ بقدمه أرض الحافلة بقوة وحنق وغضب، ونادى بصوتٍ عالٍ، وبصرامةٍ أكبر:

- هل منكم من يجيد تصليح وقيادة الحافلة؟

- نعم، أنا...

يلتفتُ فاروق نحوه، فيرى العجوز المتدين يهتف بوقار:

- نعم، أنا أمتلك الخبرة ورخصة القيادة.

علت شفتي فاروق ابتسامة متفائلة ومنتصرة، فقال آمرًا:

- وماذا تنتظر؟

- أنتظر ماذا؟ (ردَّ عليه العجوز بتحدٍ).

زمجر فاروق صائحًا:

- هل تريد أن تجننا؟! فالسائق ملقى بينَ الحياة والموت، ونحن هنا لا نستطيع الانتظار.

ثمَ استطردَ بحماس:

- جهاز التكييف قد تعطّل، والحرارة أصبحت هنا لا تُطاق؛ وكأننا في حمَّامٍ تركي؟

وتابعَ بانكسارٍ متهالك:

- سنختنق ونهلك لا محالة، ونحنُ لم نسر شبرًا واحدًا بعد!.

- هذا صحيح، ولكن رخصة القيادة التي أمتلكها نافدة الصلاحية؛ أي لا يحق لي القيادة الآن... حتى وإن قمتُ بتصليح ما عطب...

ثمَ أردفَ بمكر يخالطه الصدق:

- انظر، فأنا عجوز، ولا أستطيع النظر أبعد من أمتار قليلة، فكيفَ لي القيادة وأنا على هذا الحال؟

ثمَ صرَّحَ بما لم يتوقعه أحد وخاصةً فاروق، فقال:

- القانون يمنعني من القيادة وأنا...

قاطعه فاروق غاضبًا، حانقًا، وهو يصرخ:

- ماذا تقول؟ القانون!

- نعم يا عزيزي، القانون لا يسمح، وكما تعلم فالقانون ليس له استثناءات.

ثمَ أردفَ ببرود قاتل:

- القانون أعمى كما يُقال.

- وإن نقدتك الآن عشرة آلاف دولار؛ هل تصرَّ على عدم القيادة؟

- المال في مثل هذه الأحوال لا ينفع؛ إنه كرمل هذه الصحراء، لا قيمة له.

ثمَ أردفَ:

- كلنا سنموت هنا، إنها مسألة وقت فقط.

- أيها الشيطان اللئيم... (قالَ ذلكَ فاروق منهارًا).

ردَّ عليه العجوز ساخرًا:

- عليك أن تعلم يا صاحبي- وهو يخطف نظرة من فاروق الذي يراقبه بعيون أسد جائع- لا تستطيع أن تفعل كل شيء بالمال؛ وها نحن أمامك، ننتظر الموت بلا رحمة.

ثمَ استطردَ:

- إذا أردتَ أن تربِّي جيلاً، فأصلح من إرادتك أولاً، فالإرادة لها قوة أكبر بكثير من سطوة المال التي لا تنفع في بعض الأحيان وقت الضيق.

ثمَ توجَّه الرجل العجوز المتدين إلى السائق وهو يردِّد في سرِّه كلمات مبهمة... أمسكَ يده، فركَ جبينه الخشنة التي تعلوها التجاعيد وتحفرَ فيها أخاديد عميقة... وهنا ظهرت المعجزة، وإذا بيد السائق تتحرك، ثمَ أخذَ يتنحنح بشكل مفاجئ... وما هي إلا لحظات حتى علت الأصوات التي تبتهل للرب... ثمَ نهضَ كمال الشيخ معتذرًا وهو يدمدم بخجل:

- أنا آسف على ما سببته لكم من رعب وخوف وقلق.

ثمَ أردفَ متشجعًا:

- قدِّروا سني، لكنني وكما ترون؛ ما زلتُ أستطيع القيادة.

تحركت الحافلة مجددًا تاركه وراءها الغبار الغاضب، الحانق، الذي يرجع ويتطاير وينتشر ويتبدد كالضباب في رحاب الصحراء.



جلسَ الشبح قُبالة عزيز كالندِّ؛ متحمسًا وقلقًا وهو يندفعُ بسؤاله متطفلاً، مباغتًا، وكأنه يشتمه:

ـ لماذا تكتب؟ أليست لديكَ أعمَّال أخَرى؟

ثمَ أردفَ باستخفاف:

ـ حسب علمي، أنكَ لا تكسبُ شيئًا من وراء كتاباتك، فلماذا تكتب إذن؟

رفعَ عزيز رأسه نحو السقف وكأنه يدعو عليه بأن تتلقفه العفاريت وتأخذه بعيدًا عنه، ثمَ نظرَ له دونَ أن يخفض له عين، فقالَ مدافعًا عن وجهة نظره التي حسبها قد اخترقت:

ـ صحيح أنا لا أكسب شيئًا ماديًا من وراء ما أكتبه، بل أستطيع أن أؤكد لكَ العكس تمامًا فأنا من يدفع لأجل الكتابة...

وتابعَ بحماس فطري عجيب كعادته:

ـ وما شراء الكتب بأنواعها وبأسعارها الباهظة إلا لمواصلة الكتابة، ولكَ أن تعرف ما أعاني وما ألاقي.

ثمَ استطردَ عزيز بنفس الاندفاع الذي بدا على هيئة الشبح وهو يستجوبه، فقالَ مضيفًا:

- الكتابة بالنسبة لي كالطعام والشراب؛ إن ابتعدتُ عنها، هلكت؛ وأنت لا ترضى لي الهلاك؟ أليس كذلك؟.
وواصل بغرور مفتعل:
- وأنت كما ترى فأنا ما زلتُ في ربيع العمر.

نظرَ الشبح لعزيز بنظراتٍ ملؤها الغضب والتحدي، وهو يحاول أن يكتم أنفاسه بجزع دونَ فائدة، فمنظره كان يوحي بأنَ روحه وكأنها تحتضر الساعة، فانتبه على نفسه بحرجٍ وغيظ، وقال مستدركًا باسترخاء شديد وبسخرية خبيثة، كمحقق يتلذذ بتعذيب أحدهم بينَ يديه:
- وماذا تكتب؟ ولمن؟
- أكتبُ ما أعرفه فقط؛ وأتوقف عندما لا أجد ما أكتبه.. حينها أتوجه إلى القراءة والتأمل، ثمَ أعود إلى الكتابة عندما أعلم عن ماهية ما سأكتب. وفي حالات أقوم بمزج الخيال بالواقع، وحتى الخيال هنا، يجب أن يتمتع بشيء من الواقع أو الحقيقة، علمًا بأنَ شخصيات قصصي وحكاياتي أغلبها عاشت الحياة وتشبعت بفرح وترح الواقع

ثمَ استطردَ باندفاع وشهوة للحديث فقالَ بهدوء دونَ انفعال:
- فالشخصيات تبقى من لحم ودم، إنسانية تتأثر وتكره وتحب وتعاني وتفرح وتتألم وتعتدي وتظلم في أحيانٍ؛ وتكون ظالمة في أحيان أخرى.. أي بمعنى آخر: أجسِّد تلك الرموز بشكل مفضوح وبإحساس واضح وبانفعالات صادقة دونَ رتوش؛ لذلكَ دخلت قلوب الناس بسرعة، لأنهم شعروا بقُربها من خلجات أنفسهم دونَ تردد أو تفكير طويل.

أخذَ عزيز نفسًا عميقًا، بعدَ أن شعرَ بحاجة ملحة لذلك، ثمَ رنَّ صوته ثانيةً وهو يتابع بنهم الجائع إلى الكلام قائلاً:

- النظام والمثابرة، هما طاقة الموهبة، بل طاقة أي كاتب يريد أن يكون متميزًا؛ خاصة الذي لا يكتب بطلب.

ثمَ أضافَ بصدق لا يخالطه أدنى شك (بالنسبة له) فقال:

- أكتبُ بلغة سهلة، يفهمها المتلقي سريعًا؛ وكأنني نفسه، ثمَ أحاول أن أخاطب مشاعره بكلمات يجدها قريبة من روحه ولا يحتاج إلى عناء البحث في المفردة ومعناها في قواميس اللغة..

ثمَ أردفَ بوقار قائلاً: يمكن لكَ أن تقول بأني صديق القارئ دونَ الحاجة لمعرفته، وهذه نعمة قلما يتمتع بها أحد؛ فحبُّ الناس غاية تأتي بالمعجزات... قالَ ذلك وهو يخطفُ نظرة سريعة من الشبح، فرآه يستمع له بشكل غريب، كالمسحور.

ثمَ استطردَ عزيز بكل إخلاص:

- أنا أكتبُ لنفسي أولاً، وكما قلتُ: فالكتابة كطعامي وشرابي.. ثمَ لزوجتي وأولادي، ولمحبي الأدب أينما كانوا.

ردَّ عليه الشبح بنبرة محتجة:

- نعم، نعم، أنا أتفهم مشاعر الفقراء والذينَ لا يملكون شيئًا فيحاولون بشتى الطرق أن يثبتوا وجودهم، حتى على حساب أنفسهم ووقت عائلاتهم، ثمَ يدمدمون هؤلاء بفخر كاذب: نحن نريد تحقيق الذات الغائبة.. وكأنها ذات مهجورة في مدينة لا ينبحُ فيها كلب ولا يصيحُ فيها ديك ولا يقتل فيها قتيل ولا يولد فيها وليد... (وهو يتمتم بهمس مخنوق، خبيث كالشيطان).

استوقفه عزيز بحدّة، بعدَ أن شعرَ بأنَ الشبح قد تجاوزَ حدود اللياقة في الكلام، ليدخل في مساحات عميقة من ذوات الناس رغم جهله لهم فقالَ جادًا:

- تبًا لكَ من محاور فاشل...

ثمَ أضافَ بشجاعة وإباء:

- تندفع إلى الشتيمة وهي لغة الضعفاء، وأراكَ لا تملك ما تقوله.

يقهقه الشبح بازدراء: هه هه هه... وهو يقول باستهتار:

- قل ما يحلو لكَ، فهذا النوع من الرجال (وهو يشير بإصبعه نحو عزيز) قد خبرتُهم جيدًا.

ثمَ أردفَ بسخرية وتهكم قائلاً:

- لا جديد في كلامكم، كله معاد ومملّ ونافذ الصلاحية.

سألهُ عزيز بحزم: ماذا تريد مني؟

- أواجهكَ بالحقيقة!.

- وما هي حقيقتي التي أجهلها يا شبح؟

- أنكَ إنسان فاشل، فارغ، ولا تجد ما تفعله سوى اللعب بالكلمات وخداع الآخرين من خلالها... ثمَ ضحكَ بتشنج كصراخ قطة وهي تدافع عن نفسها.

أجابه عزيز بثقة واعتداد وهو يبتسم بوقار:

- إن كنتُ مكشوفًا بهذه السهولة لك، لماذا تجالسني وتأخذ من وقتك لتحاور شخصًا مثلي؟

ترددَ الشبح قليلاً وعلت في المكان فترة صمت لبرهة، ثمَ قالَ بتباطؤ وتلكؤ:

- الحقيقة أني... أقصد في بعض الأحيان أشعرُ بالضجر والوحدة، فأتجه للقراءة كي أرفِّه عن نفسي وأتسلى.

- عظيم..

ردَّ عليه عزيز مبتسمًا، واستطرد:

- وماذا تقرأ كي تتسلى؟

- أقرأ حكاياتك وقصصك التي أصدّعْتَ رؤوسنا بها.

ضحكَ عزيز بملء فمه بفرح، كالمنتصر وقالَ بتهكم:

- لكنني شخصٌ فارغ باعترافك، مملٌّ في تقديرك، ولا أنتجُ شيئًا جادًا أو مسليًّا حسب استجوابك.. فلماذا تقرأ لي؟

قالَ الشبح بهدوء عجيب وكأنه ينوي النوم:

- ببساطة وصدق، لأنني أجدُ التشويق في قصصك، والسرد السلس الذي أفهمه دونَ حرج أو تفكير.

ثمَ أردفَ باهتمام قائلاً:

- يعني كتاباتك تدخل القلب دونَ الحاجة لطرق بابه...

ثمَ هَمَّ بالوقوف وكأنه ينوي أن يغادر المكان، وهو يتمتم بصوتٍ منخفض:

- يتظاهر بالثمالة وهو في الواقع، واعٍ لكل ما يدور حوله...

ثمَ همسَ يكلِّم نفسه:

- عفريت بهيئة إنسان.

ردَّ عليه عزيز بعزم:
- قل، وقضى ربك عليَّ بأن أكون من زمرة هؤلاء الذين يدخلون قلوب الناس قبلَ عقولهم...
ثمَ سأله مباغتًا، مستفسرًا:
- إلى أين يا شبح؟
- إلى شخص آخر، لعلّي أجد فيه ما لم أجده فيك!.
- وماذا وجدتَ فيَّ؟
- لا يحق لي أن أقول بعدَ الآن أي شيء، لقد حزمتُ أمري وقررَّت الانصراف.

وفي اللحظة التي انصرفَ فيها الشبح، سمعَ عزيز صوت النادل وهو يصرخ به متوسلاً:
- أرجوك يا سيدي، فأنا أتكلم معكَ منذ دقائق وأطلب منك أن تدفع الحساب، لأننا نريد إغلاق المحل وأنت أنتَ ليس هنا.
ثمَ أردفَ بعصبية:
- عفا الله عنك يا سيدي... (وهو ينفخُ الهواء من فمه بقوة، كثعبان متوثب للافتراس).

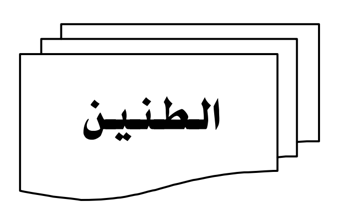
نظرَ عزيز له بدهشة واستغراب، ثمَ خفض بصره إلى الطاولة فوجدَ نفسه قد كتبَ حوارا غريبا دار بينه وبين شبح كان قبالته يستجوبه كقاضٍ شاب متحمس...

نقدَ النادل عشرة دولارات خضراء، وهو يقهقه كالطفل الذي كوفئ بقطعة حلوى، بعدَ أن أنجز ما أوكلَ له من عمل... ثمَ اندفعَ سريعًا

خارج المحل، كأنه ينوي الاختباء من أمثال هؤلاء الأشباح الذين يقيمون في كل مكان من هذا العالم الصغير.

ابتلعهَ الظلام فجأة وهو يسير على غير هدى، كمن يسير معصوب العينين ويدمدم حائرًا:

- منْ كان هذا الشبح؟ وما نسبة قرابته مني؟.



"فاروق"، شاب معتدل الجمال والهيئة، من عائلة معروفة السمعة في الغِنى والجاه وفقَ المقاييس الدارجة، لا ينقصه شيء، سوى... وهذا ما لم يخبر به أحدًا، ولا يعلم من سره ذاك إلا شخصه والله على أبعد تقدير.

أنهى دراسته الجامعية وتخرج من كلية الهندسة في جامعة بغداد بدرجة جيد؛ فَضَّل العمل معَ أبيه الذي يعتبره مثله الأعلى في حياته... تدرجَ في المراتب الإدارية في المصنع الذي يمتلكه أبوه لصناعة الغزل والنسيج، دونَ الاعتماد على نسبة القرابة، بل على كفاءته العلمية والعملية التي تصبُّ في تطوير العمل الإنتاجي وزيادة نسبة الأرباح التي يقوم عليها أي مشروع تجاري.. وهذا الأمر جعلَ أباه يفتخر به في كل مناسبة تصادفه فيهتف مسرورًا بشموخٍ عالٍ:

- ابني فاروق وُلِدَ وهو عبقري، له خيال راقي الجودة، ونباهتة قلمّا تمتعَ بها فردٌ ممن أعرفهم... يقول ذلك وهو يبتسم مهتمًا في سرقة النظرات من حوله، لمعرفة رنة كلماته ووقعها في نفوسهم.. عندها يضحك بملء عينيه عندما يرى الجميع يدمدمون بكلمات الإطراء والإعجاب بشخص وكفاءة ابنه.

تمتَّعَ فاروق بخفة دم رائعة، وبطيبة نادرة الوجود، وبقلبٍ يخلو قاموسه من الحقد والكراهية والحسد، فعاشَ وترعرع على تلك الأخلاق والطبائع التي جعلت منه إنسانًا متميزًا ومحبوبًا.

وفي لحظة من اللحظات التي تمرُّ على الإنسان وهو في قمة تألقه؛ تحدث أمورٌ غير متوقعة أو غير مرئية تسحقه، تدمره وتجعل منه شخصًا آخر دونَ مقدمات أو أسباب واضحة المعالم...

تغيَّر فاروق فجأة، هامت روحه في آفاقٍ بعيدة كنورس تائه.. جعلت من يعرفونه يستغربون ويتساءلون عن الأسباب التي أدَّت بهذا المخلوق الرائع الطموح النقي، إلى أن يكون شخصًا آخر كالغريب عن نفسه وعن الآخرين، فصارَ بينَ ليلة وضحاها إنسانًا عصبيًا، متوترًا، منزويًا، لا يحب المرح والمزاح، ويتهّرب من التجمعات والأصوات المتداخلة أو العالية.. في حين لاحظَ أبوه ذلك بكل حزن وانكسار وضيق، وحاولَ معَ ابنه مرة أن يستوضح الأمر منه فناداه إلى غرفته وبادره بالسؤال مترفقًا:

- قل لي يا بني، أرجوك، ولا تجعلني صريع الأفكار: هل تشتكي من مرض أو تعاني من أزمة أو مشكلة؟

- كلا... أجابه فاروق مقتضبًا.

- أصدقني القول فأنا أبوك الذي يحبك ويخاف عليك.. ثمَ تابعَ برفق وحيرة قائلاً: إن لم أقلق عليك فعلى منْ؟

- قلتُ لكَ: لا شيء، صدِّقني... (قالها بحدة غير متوقعة).

- نعم يا بني، فأنا أثق بكَ كثيرًا، بل أبعد من ذلك بكثير.

ثمَ أردفَ بتأثر واضح، وكأنه يستعطف ابنه:
- لكنني أراكَ هادئًا، حزينًا ووحيدًا، وكأنكَ تتهرب من الناس أو تتجنب عشرتهم!.
ثمَ استطردَ وكأنه يريد أن ينجو من عذاب يحرقه ويؤرّقه، فقال:
- انظر إلى صورتك في المرآة وهي ستجيبك على كل ما أنوي سؤاله.

قاطعهُ فاروق بجزع وحدَّة، وهو يتمتم بإسهاب:
- قلتُ لكم: لا شيء.. أتركوني وشأني، أرجوكم... (وهو يدق الأرض بقدمه بقوة، كالثور المتأهب للنطح).

- سأتركك الآن يا بني...
ردَّ عليه والده وهو يدمدم مترددًا:
- بتصرفاتك هذه ضاعفت خوفي عليك وعجزي في مساعدتك... وهو يرفع رأسه نحو سقف الغرفة بلا تحديد، وكأنه يدعو؛ لذا تركَ الغرفة منقبض القلب، وهو يردِّد بصوتٍ غير مسموع: لا أتمنى في حياتي أكثر من أن أراك سعيدًا وراضيًا.

تأزمت ظروف فاروق وتدهورت صحته بشكل سريع وملفت للنظر، كمن أضلَ سبيلاً.. فلم يعد ينام اللَّيل إلا ما ندر، في حين بدأ يستقبل نهاره بعبوس غريب، وكأنه سيموت بعدَ أيامٍ معدودة.. لا يتناول في نهاره سوى القهوة والشاي وبعض المهدئات التي لا يتكهن أحد شيء عن ماهيتها، ولا من أين وكيفَ يأتي بها... أصبحَ معَ الوقت صريع الأفكار السوداء القلقة التي تدور في عقله وهو

سارحٌ لا يقوى إلا على الوحدة القاسية التي جعلته يتجنب الحديث والزحام والضوضاء، دونَ أن يشرك أو يفضي بسرِّه لأحد، فالانعزالية التي استولتْ على كل حياته كانتْ كافية لعذاب أهله ومن يحبونه...

حتى جاءَ اليوم الذي انتشر فيه الخبر بسرعة، كالنار في الهشيم؛ المأساة التي جعلت الناس الذين يعرفونه ينظرون له بعين الرأفة وهم صامتون... انزلق فاروق من حافة الضجر والوحدة، فحاولَ الانتحار، بعدَ أن تركَ رسالة مقتضبة لأهله... ولولا فشل تلكَ المحاولة، لبقوا على جهلهم لِما كان يحدث لابنهم الذي بدا وكأنه كبرَ في تلكَ الشهور القليلة، عشرات السنوات، بعدَ أن اشتعلَ الشيب في رأسه فجأة، ومن يراه كان يقول في سرِّه: مسكينٌ، شابٌ في الثلاثين وهيئته تدلُ على أنه في الخمسين.

دخلت عليه أمه في تلكَ اللحظة الحاسمة التي كان يحاول فيها الانتحار؛ شربَ من تلكَ الزجاجة التي اشتراها لهذا الغرض، ارتفعَ صراخهُ عاليًا، فهزَّ أركان المنزل من جذوره وهو يصيحُ متألمًا دونَ وعي:

ـ لا أريد العيش وأنا هكذا.

ثمَ أردفَ بتقهقر:

ـ الموت أرحم لي بكثير، لقد تعبتُ ولا أستطيع أن أمضي في حياتي على هذه الوتيرة المميتة.

انتزعت الأم الزجاجة من بينَ يديه المرتعشتين وهو في حالة من الإرهاق والتعب والتشنج... ثمَ اتصلت بالإسعاف وبزوجها فورًا.

هناك في المستشفى، وبعدَ أن قرأوا رسالته التي كتبها على عجل وباضطراب واضح.. جلسَ الأب قبالة ابنه، وهو يهمس في أذن زوجته بحيرة:

- سيكون بخير، أنا متأكد من ذلك، فذلكَ المرض الرهيب القاسي كالموت، يمكن التغلب عليه بوسائل غير مباشرة...

ثمَ استطردَ بهدوء وحكمة:

- لقد تكلمتُ معَ الدكتور المختص، وعرفتُ منه كل ما يمكن فعله لمواجهة هذا المرض الكارثي اللعين.

أفاقَ فاروق على نفسه، وهو يرى أهله حوله، فقالَ متمتمًا، متأثرًا ومتأوهًا كالمعتذر، وهو يضع يديه على أذنيه ويطلق ضحكة متشنجة كصراخ القطة:

- أنا لم أقصد...

استوقفه أبوه مقاطعًا وهو يقول بثقة وتأثر:

- سنحتاج يا بني في الفترة القادمة إلى أعصابٍ من حديد، وقلوبٍ لا تخفق... تذكر هذا جيدًا.

ثمَ حاولَ أن يمازحه:

- يا رجل، كادَ النعام يطير...

وواصلَ مخفيًا حزنه:

- لقد جعلتنا نقلق عليك بالفعل.. أهذا ما كنت تنوي فعله؟ تقيسُ محبتنا من خلال خوفنا...

ثمَ ضحكا معًا ببراءة خالطها الشجن والتوجس.



ما أن يخطو بخطواته الثقيلة في داره، حتى يبدأ بالصراخ الذي يعلو الآفاق، ويكسر هدوء الدار بصوته القبيح:

- ما هذا؟ لماذا لم تجعلوا الغرفة باردة؟!

ثمَ يردف بوقاحة غريبة:

- قبَّحكم الله، ألم تعرفوا بأني سأصل الآن؟

ويشرع باستهتار صارخ وهو يدمدم:

- لتساقوا جميعًا كالجواري في عهد الجاهلية...

ثمَ يضحك بفجور وهو يدق بقبضة يده على بطنه الممتلئة كخزان المياه، ويأمرهم قائلاً:

- هاتوا لي خمري وكأسي ومزَّتي... هيا، وأغلقوا الباب من خلفكم، ولا أريد أن أسمع صوت إبرة وهي تسقط على الأرض...

ثمَ يشير بيده الغليظة القصيرة التي تشبه مجداف مكسورا:

- إني أحذركم يا أولاد الأفاعي سأقتلكم جميعًا بلا رحمة ولا أجعل نفسي تنطق بحسرة.

عندها يصرخ بمرح كعادته: ليأخذكم إبليس من دوني.

لقد كان (هاشم ح.) طويل القامة، عريض المنكبين، له رأس الثور، أحمر الوجه، في صوته رنة، كالدفِّ المثقوب، غالبًا ما يتباهى

بلبسه التراثي الذي يتقلده أينما كان حتى في داره... يعمل دوارًا لشراء القطع الذهبية والفضية من الناس، وميزانه العادل يحمله معه ككرشه وهو فخور بهما... أُميٌّ ويجهل حتى أسماء أولاده، لا يجيد سوى بعض العمليات الحسابية التي تساعده على البيع والشراء.

ما أن زحفَ الظلام على الأرض رويدًا كاللص، حتى طرقت باب دارنا بقوة جنونية وكأن متظاهرين يودون اقتحام حرمة الدار.

تفتح لهم أمي الباب والقلق والخوف قد تعلقا بجسدها كأزرار ثوبها، وإذا بها ترى عائلة السيد السكران شبه عُراة يبكون (كبارهم وصغارهم) وهم يدمدمون بانكسار وخيبة وخجل:

- لقد طردنا المعتوه بعدَ أن لعبت كؤوس الخمر في رأسه، وباتَ يضحك بهستيرية غريبة بينَ (الهياط والمياط)[1]... توهم لنا بأنه يصرخ ويتوجع من شدة الألمِ، عندها لم يعد يعرف نفسه، إن كان هاشمًا أو قردًا، لقد كان يهتف بجنون قائلاً: والله لو كان في هذا البلد ميزانٌ واحدٌ عادلٌ كميزاني لامتلأت السجون وفرغت القصور!.. ثمَ أطرقَ بامتعاض، ماذا يعني؟ فأنا صعلوك وتخافني الشياطين... عندها قذفَ بنا في الشارع وهو يطلق لعناته وزفراته التي تطايرت من فمه كالرذاذ، يزمجر وينبش الأرض كالديك ويهتف بكل قذارة: أسرة لا تعرف الموت ولا الحياة!... ثمَ صرخَ وهو يداري عجزه: لا أريد أن أرى أحدًا منكم هنا أبادَ الله نسلكم وأبعدكم عن نعمته، وهو يضحك بسفاهة قاتلة؛ ها ها ها.

• • • • •

كانتْ حياة قيصر في الأشهر الأخيرة سلسلة من العذاب والأرق، ولياليه تملأها الكوابيس والأحلام المرعبة التي تجعل نهاره غمًّا وقلقًا متواصلاً... لكنه في آخر المطاف حصلَ على ما كان يتمنى.

فقد أقنعَ عائلة حبيبته التي كانتْ ترفضه بإصرار لا يعرفه سوى البحر!.. وبعد تدخلات الطيبين حصلت الخطوبة التي كان يحلم بها منذ أشهر.. وها هو اليوم يحتفل بنصره العظيم في ليلة زفافه.. فدعى من دعي ومن ضمنهم خال العروس -السكير رافد- ذو السمعة التي يقطر منها الخمر كمرزيب المياه!، والذي تفوح منه رائحة الحانات دائمًا... كانتْ دعوته فرضًا لابد من تحقيقه لأسرة هناء، فلبَّى طلبهم كارهًا وكأنه يكفر.

رقصَ الجميع وعلت الزغاريد في الآفاق، ودوت في الآذان كأصوات البوق، وهي تعلن عن الغبطة والفرح الذي تنطق به القلوب قبل الوجوه، ثمَ رُفعت كؤوس الخمر ترحيبًا وإعلانًا وتآخيًا مع العريس الذي لا يرى سوى صورة هناء الجالسة بجانبه كحمامة رائعة الجمال، يخفق قلبه بشدة ويدعو أن تمر اللَّيلة بسلام، وأعصابه مشدودة وهو يداري انفعالاته وكأنه جالس على مرجل يمكن له الانفجار في أي لحظة.

ما أن دخل الخمر فمَّ رافد وتحسَّسه وذاق طعمه؛ حتى دارت في رأسه الشياطين الشريرة وأفكارها الخبيثة المرعبة التي اعتاد عليها عندما يكون تحت وطأة الشراب الملعون وسحره؛ ولم يتم كأسه الثالث حتى انتفض وسط الجموع المحتفلة وهو يدق الأرض بقوة

بقدمه كأنه يرقص، يصرخ بلسان متلعثم وبدنه يتمايل كلهب الشمعة وسط الريح، وشعرهُ الأشعث الذي يشبه ليف عرنوص الذرة الصفراء يذهب ويأتي ليبدو هو الآخر راقصًا من الفرح.

رفعَ رافد كأسه وهو يقول:

- أنا الثور الذي هو أبلد من السلحفاة... ثم يقهقه بعفوية خارقة.

رفعَ صوته وهو ينظر إلى قيصر (الغائص في مقعده بعدَ أن علا الوجوم محياه وتلبدت سمائه بغمامة سوداء قاتمة كأنه كان يتوقع حدوث المأساة وهذه هي بدايتها)

واستطردَ رافد قائلاً مسترسلاً كالشاعر:

- أنا الذي أكون أبغى من الإبرة، أحضر عرس عزيزتي وحبيبة قلبي بنت أختي الغالية...

ثمَ زأر بأعلى صوته:

- ليردِّد الجميع من بعدي - وكأنه ينوي الغناء -: بصحة العروسة وبصحة العريس.

ثمَ فجأة تغيرت لهجته التي ما زالت عارية من السباب، فقالَ:

- حسبناه أحمق وهو باخس[٢] لقد سرقها منا هذا الملعون، وسوف لن نراها ثانيةً، ولم يبق إلا أن يخبئها في صندوق!.

ثمَ قالَ كمن ينذر بالويل:

- سمنْ كلبك يأكلك.

ثمَ طفق يضحك وهو يتلمظ ويمص شفتيه كالأفعى ويردِّد:

- سأدقُّ رأسك يا وقح، وهو يشير إلى المسكين صاحب الفرح!.

وأردفَ:

- ثمَ أنك يا ولد أبخل من صبي، ومنظرك يوحي لي بأنك تشبه التيس، ولك أنف يشبه منقار النسر، وحركاتك لا تعجبني أبدًا، فهي تذكرني بحركات وخبث غراب نوح... ثم يقهقه هه هه هه.. كأنه لم يصدق بأنه استطاع أن يأتي بأمثلة جاءت تتناسب وخطبتهِ البتراء.

عندها وقفَ أمام العريس ليواجهه مباشرة وهو يقول بتراخٍ بعد أن جهد نفسه في الحديث وبصوتٍ متهدج:

- أنا هكذا أرحِّب بأحبائي بطريقتي الخاصة!.

ثمَ صرخَ وعينيه ثابتتان عليه وهو يقول بصرامة بدت مقلقة:

- إياك أن تلمسها أو تؤذيها فهي وكما ترى كالزهرة في رقتها وجمالها، هل فهمت؟!

وإذا بحركة خاطفة منه، سحبَ فيها مسدسه الكالح كالخنجر وهو يصوبه نحو قيصر ثمَ يطلق طلقة في الهواء وهو يزمجر بشكل مخيف وبجنون أعمى:

- قلتُ لك سأقتلك، ألا تصدق ما أقول؟

• • • • •

جالسه في ركن مظلم من الحانة وكان الخمر ثالثهما.

لم يكن جاسم يعرف الكثير عن داود، لكنه كان مصممًا في هذه اللَّيلة على أن يخرج الثعبان من كهفه، فدعاه وهو يحاول الابتسام ويطرح عليه ودّه، ووعده بالمسرات والمغامرات التي تطيب لها

النفس وتستقر عندها الروح.. وما أن صعد الخمر في الرأس، حتى أصبح الهذيان ربَّ كونهما!.. واسترسل داود في الحديث عن مغامراته مع النساء...

كان داود يتيمًا، لم يتجاوز الثلاثين، له عينان جميلتان كعيون النساء، يعمل في متجر لبيع العطور، ومن خلال عمله، يستغل بعض ظروف زبائنه لعمل علاقات غرامية، أصبحت مع الوقت شاغله الوحيد!.. وهو دائم القول: البصر في الزبون تجارة.

في حين كان جاسم يستمع له بصمت وهو حزين، وكأن مسرات الحياة لم تعد تستهويه، ودخان سيجاره يعلو في الأفق كالخواتم وهو يصك على أسنانه غيظًا، في حين كان داود يروي أحداث مغامراته كأنه يفسِّر أحلامًا... حتى وصلَ إلى آخر علاقة جمعته مع امرأة متزوجة، وبدأ يكثر من وصف محاسنها ومفاتن جسمها بشكل مخجل يتلعثم في الكلام وهو يحاول وصف عنفوان شهوتها.. ثمَ قالَ فرحًا بشكل ملفت للنظر يجعل القلب يتوقف عن النبض من غبطتها

- سوفَ لن تصدق يا عزيزي وحبيب قلبي جاسم، لقد كانتْ على السرير كالأفيون، لا تشمه مرة حتى سرعان ما تدمن على معاقرته.

ثمَ استطرد بعدَ أن استخفَّ فيه الطرب، وعلقَ الخمر في عقله، وهو يلمح مدى تأثر جاسم وإصغائه العجيب لما كان يقوله، عندها تشجع وحاولَ أن يبالغ في وصفه فقال بمكر وهو يتمالك نفسه بالكاد:

- يا رجل لقد كانتْ تتكلم عن زوجها وكأنه سجَّانها، بل أبعد من ذلك عندما باحت لي بسرها وهي تقول: إني أستغفله، لأنه وببساطة حمار لا يفهم سوى أن يؤدي عمله الشاق اليومي دونَ أن يفقه بأن

الحياة ليست واقفة على العمل فقط، ثمَ أردفَت وهي تغني بعدَ أن زرعت على وجنتي قبلاً حارة: لم يكن يلبي حاجاتي النفسية أبدًا، وكلما حاولت أن أوصف له شعوري، يجيبني بتذمر: إني متعب... ثمَ أنهت حديثها قائلة: حمار لم يفهمني.

أفرغَ داود كأسه في جوفه وهو يقول:

- آه يا عزيزي جاسم، لو يفهم الإنسان الآخرين على النحو الصحيح، لاختفى الشر من على الأرض كالديناصور...

ثمَ شرع يتباهى بالكلمات فقال:

- غالبًا ما يحاول الإنسان أن يكون هو خالق آلامه (الإثم والخطيئة) ومن ثمَّ يصب نار انفعالاته وجم غضبه وحسراته على الحياة ورأس الدنيا والناس، دونَ أن يقف عند مسبباتها الحقيقية... آه يا له من مارد غبي، سفيه ومتكبر... ثمَ أدار في كأسه ما تبقى من الزجاجة وشرعَ يقول وهو يتغنى تغيرًا للموضوع:

- لقد كانتْ "سمية" سائلاً ذبتُ فيه كقطعة من السكر!.. ماذا أقول لكَ، لقد كانتْ مختلفة جدًا.

ثمَ شرع يقول بعدَ أن بات فجأة شاحب الوجه، شاخص البصر وهو يهتف بتراخ:

- تصور بأنني قلت فيها شعرًا مقفي، اسمع ولا تقاطعني أرجوك قالها بلسان ثقيل وكأنه سينام بعد حين؛

أنا لا أهوى في الدنيا سواكِ
كل ما أملك، الروح والقلب فداكِ
وهل حبي مثل حبكِ ابتلاكِ

أهيم وكأن هيامي خطيئة حياتي
يا من جعلتني أشعر بالحياة بعدَ مماتي
فأنا لا أهوى في الدنيا سواكِ.

لِمَ أراكَ لا تبكي؟! لقد قلت لها هذه الأبيات من الشعر وهي ما زالت في السرير بجانبي كما ولدتها أمها، عندها بكت وقبلتني وكأنها ستودع الحياة! وأنت أراك عصي الدمع شيمتك النظر.

ثمَ استطرد بمكر:
- يا لكَ من إنسان متحجر، لا تملك المشاعر لقد أحببتها فعلاً هل تصدق؟!
عندها أردفَ بتخاذل:
- من حقك ألا تصدق، فمن يعرف تاريخي يرجمني بالخطيئة...
وهو يقهقه وكلماته تتدحرج من فمه بصعوبة، واتسعت عيناه وأصبحت غائرة كعيني مريض ميئوس من شفائه...

قاطعه جاسم بحدة، وهبَّ قائمًا متوثبًا وهو يقرض أظافره بعصبية كالقرد وصرخ ساخطًا حتى تلبست صورته هيئة شيطان، ليبدو كالأشرار الذين لا يراهم الله... بعدها وجَّه له ضربة أسقطت من فكه ثلاثة أسنان شابة، وهو يزمجر:
- إنك تتحدث عن زوجتي يا سافل، هل تعلم ذلك؟!

---

(١) الهياط والمياط : الصياح والجور
(٢) باخس : مليء الدهاء



هتفَ المذياع بأعلى صوته بفرح عارم، معلنًا عن انتهاء الحرب العراقية-الإيرانية...

ضربت أجراس الكنائس نفسها اغتباطا بالمناسبة، واستباحت المساجد لنفسها حرية التعبير، فحفزت الناس على الدعاء والصلاة، لأجل الله الذي تدخلت إرادته الحية، كي تجعل أطراف النزاع أخيرًا يركعون لنداء وصوت السلام، سبحان الله، كم هي قوته عظيمة ومؤثرة! فلم تتدخل تلكَ الإرادة إلا بعدَ ثمانية أعوام فقط من بدء القتال.

بينما كالعادة في الشرق (عندَ الحزن أو الفرح) ارتفعت الطلقات النارية الصاخبة عاليًا تبتهج كالزغاريد في الهواء. خرجَ الشعب الأبي إلى الشوارع يعبِّر عن مدى سعادته، ويحلمُ بذات الوقت بسعادة قادمة أعظم وأكبر وأوسع وأشمل بعدَ أن وضعت الحرب اليوم أوزارها. شرعت الجموع المندفعة وهي تصرخ كما هو الحال، من الفرح هاتفة:

سيعم السلام أرضنا
وسنبدأ بأعمَّار وطننا

كان الجميع غاصين في الفرح الغامر الذي يزعزع القلوب من مكانها... إلا هشام ابن الرابعة والعشرين، ظلَ واجمًا، مفكرًا، لا يلوي على شيء سوى الاسترسال بتلك الخواطر التي داهمته على غفلة وبسرعة الشهب، لدى سماع صوت المذيع الرنان وهو يعلن انتهاء الحرب، بانتصار الحق على الباطل، والخير على قوى الشر.

أثارَ فيه ذلكَ الخبر شجونًا وخواطر جديدة، وأفكارًا لم يكن من قبل قد حلم بها... هكذا سيطرت عليه وتغلبت على كل كيانه تلك الهواجس، قذفت به بعيدًا خارج أسوار الوطن، دونَ أن يعلم وهو تحت تأثير ووطأة وذهول الخبر (انتهاء الحرب)... وبلحظة حاسمة اتخذَ قراره المبكر، ذلكَ القرار الذي ينشقُ له البحر جزأين وكأنه عصا موسى!...

اتصلَ بزوجته في الدار وهمسَ لها برفق ورقة موضحًا لها قراره الذي اتخذه للتو... استمعت نهاد التي لم تتجاوز التاسعة عشرة، والتي تخرجت هذه السنة من الإعدادية، جميلة وحالمة وتمتلك نظرة ثاقبة للأمور التي تحيط بها وبقدرة فائقة فهي غالبًا ما يصدق حدسها، وتتبلور قراراتها بسرعة مذهلة، فأجابت زوجها بنبرة ممزوجة بالقوة والشجاعة والإخلاص:

- نعم، سنكون هناك على أحسن حال.

ثمَ استطردت بثقة عجيبة:

- سأكون بانتظارك، لنعد العُدَّة ولنرى ما يمكن فعله على وجه السرعة.

- وهمست في أذنه خافقة: أحبك.

استمدوا من اليأس الذي كان يغلِّف حياتهم قوة، ومن الزمن الذي خبروه وضاقوا لوعته خبرة، فتحركوا في بداية أمرهم بسرية تامة، وبخفة ساحر، وبثبات وعزيمة فارس عربي أصيل.

ما زالت هناك عقبة تقف أمامهم، كالجبل (الكفالة التي يجب أن توثق رسميًا، ويتعهد فيها على رجوعه إلى أرض الوطن مجددًا) فتذكر أستاذه في الجامعة "سعدي الحديثي" ذلك الرجل الشهم الذي لا يهاب الباطل مهما كانتْ قوته، فوافق الأخير على كفالة هشام، وهو يعلم علم اليقين بأنَ هشام لن يعود إلى وطنه مجددًا... وقد كَفلهُ أيضًا أخ لصديق عزيز عليه (سمعَ فيما بعد بإعدامه، أثناء فراره من الحرب الجديدة، التي اشتعلت نارها بينَ العراق ودول التحالف)

ضاقَت عندَ هشام وزوجته سبل الانتظار، واحتضرت وفاضت روحهم من الصبر، وكادت تنطق بالاستسلام نتيجة التكتم غير المجدي على قرارهما بالهجرة رغم استكمالهما لكل إجراءات السفر المطلوبة.. وذاتَ صباح، نهضَ هشام قلقًا، لكنَ منظره يوحي بالثقة والاقتدار، بعدَ أن غادره الحرج وهو يرمق الآخرين بنظرة رثاء خرساء، ولم يبق لهم من أمر سوى التبليغ بقرارهما بالهجرة؛ التي واجهت معارضة شديدة في بادئ الأمر؛ ومن كل الأطراف: عائلتهم وأصدقائهم المقربين... حتى هتفَ هشام يومًا في سره متهالكًا: عفا الله عنهم لما يسببونه لنا من ألم وحرمان وقهر.

اتصلَ من فوره بصديق الطفولة والشباب"جبار" الذي كان كالظل له، حتى انبهر الأخير به لصدقه ووفائه وحبه له، فقربه منه وكادَ لا يخرج إلى مكان إلا وجبار معه.

جبار كان من عائلة فقيرة، يسرحُ بدراجته الهوائية التي اقتناها بالتقسيط المريح، عصر كل يوم، ليبيع العلكة البلدي بعدَ أن يكون قد رجعَ من جامعته التي يدرس فيها الهندسة، وبانتهاء عمله، يذهب إلى هشام زائرًا وهو مفعم بالسعادة والانتصار، كونه قد باعَ كل ما كان بحوزته من علك.

- نعم هشام أنا أسمعكَ جيدًا كيفَ حالك؟

- أريدكَ لأمرٍ هام.

أجابه جبار بجزع مشوبًا بالتردد:

- لقد جعلت أطرافي ترتعد هلعًا، أرجوك قل لي ما وراءك؟... وهو يتمتم بصوت غير مسموع: يكفينا الله شر الشياطين

- لقد سمعتك يا صديقي، فقالَ له مازحًا: لا تندد بالملحدين وأنتَ سكران... وواصلَ بجد: لا ينفع الكلام هكذا... ثمَ أردفَ باختصار شديد: أنا في الدار، سأنتظرك.

فردَّ عليه جبار بذات المرح اللطيف الذي أعتادا عليه:

- منْ يعبد المال، لا يصلح لأن يتنكر من قيمته.

جلسا لوحدهما، ثمَ همسَ هشام لصديقه قائلاً:

- أريد أن أهاجر معَ زوجتي إلى خارج العراق.

ذهلَ جبار من قرار الهجرة المباغت والسريع، فردَ عليه بنبرة غريبة كمن يداري هزيمة بضحكة، فقال:

- أنا لا أتخلى عن وطني بأي ثمن؛ فالوطن بالنسبة لي هو الحياة.

ثمَّ استرسلَ بالكلام موضحًا:

- لا يمكن أن يكون نمط الحياة واحدًا، وإلا ستكون لا تطاق، لذلكَ تبدلت الأحوال والظروف التي تحيط بنا، وبها نحيا ومعها نعيش.

- عزيزي جبار، لقد حسمنا أمرنا أنا وزوجتي وانتهى الأمر، وأنت هنا فقط لتقديم المساعدة التي نتوخاها منك.

ثمَ شعرَ بأنه كان مندفعًا في مشاعره، وحادًا في رده فقالَ كالمعتذر، متمتمًا وبصدق:

- سأترك لكَ فلسفة الوطن.

وواصلَ بانشراح:

- تمتع أنتَ بفضائل الوطن، واترك لي خيار الهجرة، كي أنفذ بجلدي وزوجتي معي حيث الحرية والأمان، حيث الانفتاح والحرص على الوقت الذي هو أغلى ما نمتلكه.

واستطرد بإشفاق:

- الوقت هو أيامنا وعمرنا ونحنُ هنا لا نحتقر أكثر من الزمن شيئًا؛ فهو كالشيطان في عُرفنا نحاول قتله بشتى الوسائل والطرق، حتى إننا تفننا في ذلك!.

ثمَ حرَّكت أقواله تلك أحاسيس التحرر والانعتاق في نفسه، فهتفَ صادقًا:

- نحن لا نريد سوى العيش الكريم، وبحرية تجعلنا نشعر بكرامتنا الإنسانية تلك التي نفتقدها هنا وبشكل صارخ.

ثمَ سألَ جبار مباغتًا:

- وهل لكَ أن تقول العكس؟

فهم جبار كلماته، مقدرًا ما يعنيه هشام في كل حرف نطقَ به؛ فأشارَ له قائلاً:

- أنا في خدمتك يا صديقي، مُر وأنا أنفذ.

- أريدكَ بأن تتكفل ببيع أغراضنا.

ثمَ صمتَ هشام برهة، وكأنه ينتظر رد فعل صديقه، ثمَ واصلَ بهدوء قائلاً:

- أنا لا أنوي بيعها بالمعنى الصحيح، بقدر المحافظة عليها وضمان وقوعها في أيادٍ أمينة تقدر ما سأعرضه عليك، فالربح المادي أو الانتفاع ليس في حساباتي.

ثمَ وجَّه لجبار نظرة متسائلة وهو يقول:

- هل فهمت ما أنوي فعله يا صديقي؟!

- نعم، بالتأكيد.

ثمَ ترددَ قليلاً وهو يبتسم متفكرًا، واستطرد:

- قل ما تريد أرجوك، فأعصابي لم تعدد تتحمل أفكارك.

فأجابه كالطلقة:

- أريد بيع كتبي التي تراها أمامك، وما تبقى لا أريد فيها ثمنًا، تصرف فيها كما تشاء، إلا الكتب؛ فهي أمانة وعهدة في رقبتك بل مسؤولية قد تسبب لكَ الإحراج أو السجن... وبرقت من بينَ أسنانه ضحكة رائعة، صادقة تنم عن حسنَ النوايا.

- هل كتبك ممنوعة لهذه الدرجة؟!

ثمَ سأله مقتضبًا:

- ما نوعها؟ أقصد ما نوع الغرابة فيها؟ ولماذا تعتقد أنها ممنوعة؟

- عزيزي الغالي: إنها بالنسبة لي ومن يمتلك ميولاً مثلَ ميولي، تعتبر كُتبًا بريئة؛ ولكن لهؤلاء الذين يحمون وطنك ومن لفَ لفهم، حملة الطاعون الرهيب الذي يفتك تعتبر محرضة، خائنة، تدعو إلى التخريب والهدم، أكثر من البناء والأعمَّار فنحنُ لا نتفق.

واسترسل بحنكة واثقة:

- بل أعتقد بأننا سوفَ لن نتفق، بعضها يقال عنها ممنوعة، وبعضها قد تؤدي بك إلى الاعتقال

ثمَ أردفَ متهكمًا:

- وفي أسوأ الأحوال، يكون مصيرك الإعدام شنقًا في وطنك الغالي، العزيز، ذي الوباء الخطير الذي تدافع عنه؛ ها ما رأيك؟!

- وهل بقي عندي رأي، أقول حسبي الله ونعم الوكيل سآخذها معي وسأتصرف بتوزيعها وليكن الله في عوني.

قفزَ هشام من مكانه مسرورًا بقرار صديقه، فصرخَ قائلاً:

- إذن اتفقنا وليكن الله في عونك كما تشاء، ولكن انقدني الآن ثلاثة مائة دولار أمريكي خضراء وخذ ما تريد وما تستطيع حمله.

هَبَّ جبار منتصبًا، وهو يذرع الغرفة، وكأنه ينوي قياسها؛ فصاحَ مستنجدًا:

- اطلب لي تاكسي وأنا سأقوم بالواجب على خير ما يرام؛ وستكون الدولارات الخضراء تحتَ تصرفك عندَ المساء.

ثمَ أردفَ متحمسًا:

- ولكن كيفَ لي الخروج بهذه الأشياء كلها وأنتَ كما قلت، لم تخبر أحدًا من أهلك بعد؟

وجمَ هشام صامتًا، وهو يحدج صديقة بنظرة متوجسة، قلقة، ثمَ خرجَ من صمته هاتفًا:

- لا عليك، سأتولى الأمر معَ أمي فورًا، وسأشرح لها ما نويت فعله؛ فهي ستعرف بقرار هجرتنا عاجلاً أم آجلاً.

واستطردَ متفائلاً:

- إنها امرأة رائعة، نقية، أصيلة ولا ترضي على الهوان والمذلة سأقول لها بأني سأموت بالطاعون الذي يفترسُ كل شيء أن بقيت هنا وهذا لا يرضي حتى الشيطان.

خرجَ من غرفته التي دارت فيها الصفقة، متوجهًا إلى أمه التي راءاها جالسة تحتَ ظلِّ شجرة التين لوحدها، وهي مسهبة في التفكير بلا تركيز... تقدَّمَ منها هشام بخطى بطيئة، كالسارق، ثمَ انفجرَ مداعبًا وهو يحرك يديه نحو كتفها ذات اليمين وذات الشمال وهي التي تعرفُ طبعه.. فقالت له مصطنعة الحزم وهي غارقة في الضحك من ملامسات ابنها الخبيثة:

- ما وراءك؟ مصيبة جديدة؟

- آه يا أمي؛ إنكِ دائمًا تحرجينني، وتسبقين أفكاري التي أنوي التحدث بها.

ثمَ استطرد مازحًا:

- إنها لا ترضي أحدًا، والله لا يقبل بهذا أبدًا.

- قل ما تريد

- أنا أقصد، لقد...

- عزيزي هشام، أنا أمك؛ أفصح عمَّا يدور في عقلك، وأنا كُلّي آذان صاغية.
عندها لم يكذِّب خبرًا، دفعَ بما يريد قوله دفعة واحدة، كالسهم، فقال:
- سنهاجر أنا وزوجتي إلى أوروبا قريبًا.
ثمَ صمتَ وكأنه أشفق على أمه في لحظة ضعف.

سمعت أمه كلماته بوجوم، شحبَ وجهها الصافي فجأة ثمَ صرخت في بكاء يقطع شرايين القلب، ويصيب المرء بالإحباط والخجل والخوف.. حاول تهدئتها فلم يفلح، بل ازدادت توترًا ونواحًا، وهي تندبُ حظها بكلمات يائسة، مخنوقة:
- لقد ماتَ أخوك قبلَ أيام؛ وها أنت ستذهب بلا رجعة ليصبح الأمر أكثر سوءًا لأم بمثلَ سني.

ثمَ واصلت البكاء وهي تضربُ صدرها بقوة جنونية بعدَ أن جرحت خدودها الرقيقة بأظافر يدها التي استوطنتها رعشة الكبر، وقالت:
- اذهب، ولا أريد أن أراكَ ثانيةً وسأعتبرك منذ الآن في عداد الموتى.

في هذه الأثناء كان التاكسي قد وصل، وبدأ جبار عمله وهو ينظر بعين الرأفة لأم صديقه وهي تتألم وتصارع القلق والخوف من المجهول، على ابنها الذي ينوي هجرتهم بكل برود وعناد.

لم تظهر الأيام التي تلت أي تطور جديد، يثني هشام وزوجته عن قرارهما بالسفر... حتى جاءَ ذلكَ الصباح الذي كانوا ينتظرونه: موعد المغادرة... سألَ هشام أخاه الذي يكبره بثلاثة أعوام تقريبًا،

إن كان في إمكانه، توصيلهما إلى المطار... رحَّبَ أخوه بالفكرة وقالَ مبتسمًا:

- على الأقل إنني سأدخل التاريخ.

- ماذا تقصد (يجيبه هشام مستفسرًا)

- أقصد، بأني آخر شخص من العائلة سيراكما وأنتما تغادران.

ثمَ تابعَ مضطربًا:

- ومنْ يعلم؟ قد نلتقي مجددًا، وقد لا نلتقي...

عندها كانتْ الدموع قد طفرت من عينيه دونَ إرادة.

وقفَ جميع أفراد العائلة قبالتهما، تتقدمهم الأم، وهي غارقة في دموعها وقلبها يحترق لوعة لفراق ابنها.

• • • •

لم تمضِ إلا أشهر قليلة حتى تغيرت خارطة العراق، وتلاطمت أمواج المصائب العاتية في وجه الشعب... تذكرَ هشام كلمات صديقه جبار التي كان (يتمنطق) بها، وتعبيره عن هيامه وعشقه للوطن، "جبار" الذي ألقي القبض عليه وحُكِمَ عليه بالسجن لمدة سبع سنوات، بتهمة التهريب؛ وقد يكون بسبب الكتب المنحوسة!... حدث هذا بعدَ تسعة أشهر من رحيلهما واستقرارهما في ألمانيا فقط.

ثمَ توالت الأزمات، واستسلمَ الشعب للمقادير، فكانتْ الحرب الثانية بينَ العراق ودول التحالف؛ عندها تقطعت بهما سبل الاتصال، فلم يعودا يعلما من أخبار أهلهما شيئًا يذكر... خنقتهما العبرات، الكوابيس المرعبة التي باتا يرينها في كل ليلة، أصبحت حياتهما

فجأة صعبة، قلقة للغاية.. ومضى الوقت عليهما أثقل من الخوف والمرض.

في إحدى الأيام الرتيبة التي كانا يستقبلانها بعدم الرضا؛ جاءهما اتصال هاتفي من أمه، لم تقل فيه سوى بضع كلمات جعلتهما يصرخان، يبكيان، وأطرافهما ترتعد، وأصواتهما تغوص في أعمَّاقهما.. جاءت كلماتها حادة كنصل السيف:

- كلنا بخير؛ ولكن...

لحظة صمت قاتلة

- ولكن يا بني الطاعون...

ثمَ أردفَت بانكسار:

- أنتَ تعلم ما أعني، إنها كلماتك التي لم نصدقها ولم نقدرها، معذرةً..

واستطردت قائلة:

- لم نعد نشعر بالأمان، بلَ صارَ القتل شريعتهم، وبها يفتخرون!.

ثمَ بكت وهي تردد بتهالك:

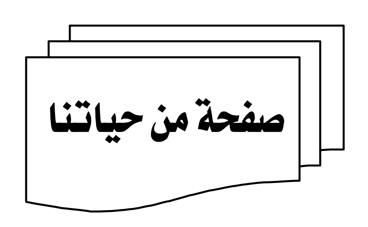
- لقد بتنا نمضغ الكآبة والخوف، ونبكي كالأطفال...

ثمَ باغتتهما بالسؤال:

- إن كنتما تستطيعان...

اختفي الصوت لبرهة، ثمَ عادَ خافتًا، وهي تعيد كلماتها بكل تصميم وبغيظٍ مكتوم:

- هل تستطيعان مساعدتنا يا بني، كي نصلكم؟!.



جهزتُ كل شيء لسفرة الغد المرتقبة إلى القاهرة، إلا حقيبة ملابسي وأشيائي الضرورية؛ وهذا ما جعلَ زوجتي تفقد أعصابها وهي تقول: ماذا كنت تفعل؟

ثمَ أردفَت وكأنها توبخني والشرر يتطاير من عينيها الخضراوين غضبها الذي لا يتناسب وجمال عينيها الساحرة، فقالت بتهكم:

- لقد سألتك إن كنتَ قد هيأتَ لوازم السفر، وأجبتني بنعم، ثمَ تقول لي الآن إنك لم تهيئ أي حقيبة بعد..

واستطردت متسائلة بحيرة وقلق واضحين كأنها تنوي الانتقام؛ لتكرر السؤال نفسه:

- ماذا كنت تفعل طوال الوقت إذن؟!

نظرتُ لها نظرة صافية، وسرحتُ في خيالي برهة وأنا أبتسم، وكأن الموضوع لا يعنيني.. قلتُ بارتياح كالناجح في امتحان مصيري:

- لقد قمتُ بجردٍ لمكتبتي، ثمَ وجدتُ هناك نقصًا حادًا في الكثير من المؤلفات التي أنوي قراءتها فذهلتُ ولمتُ نفسي معاتبًا لهذا الإهمال الصارخ، فجهزت قائمة تضم تلك الكتب التي سأقتنيها من هناك... وهذا كل ما حصل يا عزيزتي.

تغيَّرتْ ملامحها فجأة وكأنني أهديتها شيئًا ثمينًا؛ فضحكتْ كالطفلة المدللة وقالت:

- كنتُ أتوقع أن تقوم بهذا.

ثمَ دمدمتْ، كأنها تجاملني:

- لو لم تفعل ذلك لقمتُ بأداء هذا العمل بنفسي.

تقربتُ منها وكأنني أنوي شمها، كالزهرة! فنشرتُ كلمة واحدة في أذنها بعدَ أن غصت في فمي، همستُ بجرأة معهودة كطبع فيّ وقلتُ جادًا وكأن العقل هو الذي ينطقها: أحبك...

فسكرتْ نشوةً وذابت في حلم سعيد كطفلة تتلذذ بقطعة حلوى وترطب شفاهها بالسكر.

وصلنا القاهرة في نهار كان الحرُّ فيه هو قائد الكون هناك؛ وما أن مضت أيام قليلة تعرفنا من خلالها على معالم العالم الفرعوني العجيب، الذي كان ولا يزال سرًّا مغلقًا، كطبيعة الموت وحكاية الحياة.

في اليوم الرابع، اتخذتُ قرارًا لا رجعةَ فيه، أن يكون مخصصًا فقط للبحث عن الهدف، الكتب التي أتوق لقراءتها، ولطالما حلمت أن تكون بجانبي كزوجتي وأولادي.

أقلتنا سيارة التاكسي القديمة من نوع "الادا"، أبوابها بلا زجاج، ليدخل علينا الهواء المحمل بالغبار دونَ استئذان وبوقاحة؛ لمحركها صوت مبحوح يشبه صياح البط الشرس، كراسيها متهالكة وصلبة وكأنها صنعتْ من خشب.. قلتُ أخاطب السائق بكل احترام، بعدَ أن كان قد فتحَ لنا جهاز الكاسيت وهو يؤذن، فشعرنا وكأننا في جامع:

- أرجوك يا سيد نحنُ هنا في مغامرة!.
ثمَ استدركتُ كلامي قائلاً:
- أقصد في نزهة ولسنا في مأتم.
ودمدمتُ بتعثر مسترسلاً:
- يعني كللك ذوق، وستقدِّر الظروف.
ثمَ همستُ بمكر:
- أنتَ حرٌّ، ولكَ أن تختار: إما المؤذن أو نحن؟!

انتفضتْ زوجتي من مكانها، مرتبكة وخائفة وهي تهمس في أذني:
- كيفَ لكَ أن تقول له كل ذلك، ألا تخف؟
ثمَ أردفَت بقلق وقالت بصوت غير مسموع، وكأنها تكلم نفسها:
- يا رجل، فكِّرْ فينا.
ثمَ استغفرت ربها وكأنها كفرت، وهي تقول:
- سيقتلنا بالتأكيد إذا فقدَ توازنه.
واستطردت:
- على ما يبدو هو مهيأ تمامًا لذلك.

هدأتها وقلت وأنا كُلّي ثقة:
- انتظري وسترين..
ثمَ استرسلت بشرح نظريتي بجملتين، وكأنني أستاذ فلسفة:
- صحيح للدين سطوة، ولكن المال هو الذي ينتصر في النهاية.
فداهمنا صوته مباغتًا وهو يناديني بحنان، وكأنه أبي:
- لو تدفع لي زيادة قرشين، لجعلتكم هنا ترقصون... (بعدَ أن كتم أنفاس المؤذن دونَ تردد).

صوبتُ نظرات متعالية لزوجتي، دليل صدق حدسي ونظريتي؛ وقلتُ له مبتسمًا:

- يا رجل تجعلنا نرقص! فهذا كرمٌ كبير..

ثمَ قلت له جادًا بعدَ أن تغيرت لهجتي المتواضعة، وكأنني أسيطر على زمام الأمور قائلاً:

- لكَ ما تريد، ويكفينا ما يصدرهُ محرك سيارتك من أصوات، التي تشبه صياح البط.

فضحكَ كالساحر: هههههه، وهو يقول بتبرم:

- الله يجازيك يا بيه، صياح البط مرة واحدة.

وظلَّ يضحك بعدَ أن استخفهُ الطرب وهو يكشِّر عن أسنانٍ بلون الجير، جعلتني اللعن الشيطان على تدخلهِ.

نقدته سبعة جنيهات ورقية متهالكة؛ وكأنها نقعت في الماء مدة طويلة، ثمَ ثلاث جنيهات إضافية حق إعدام المؤذن! فركها بيده الخشنة التي تشبه يد تمساح، وكأنه يعدها، ثمَ ابتسم بشغف غريب وهو يقول:

- لو رغبتم لأنتظركم.

فقلت له دونَ تردد وكأنني أشكره:

- لا.. يمكنك الذهاب.

دخلنا مكتبة دار المعارف التي سمعت عنها ولم أرها؛ كحضارة الفراعنة، من قبل لكنني ذهلت من فقرها كشعب مصر؛ تحدثنا معَ مدير المكتبة الأستاذ "متولي سعيد" كثيرًا ولم نخرج من المكتبة إلا

بكتابين لطه حسين غير موجودين، بالرغم من وجودهما في سجلات المكتبة وكأنهما كنز فرعوني مسروق، فوعدنا باستقصاء أمرهما وإخطارنا هاتفيًا في الفندق الذي نقيم فيه، فضاعت الجنيهات العشرة هباءً، وأهدرنا نصف النهار أثناء الرحلة وسط الزحام الذي يخنق شوارع القاهرة وكأنها أسواق مكتظة.

أشرتُ على زوجتي برقَّة كادت تصل حد الاعتذار:

- علينا الذهاب إلى مكتبة شارع المهندسين... (نصحنا بها الأستاذ متولي، جزاه الله خيرًا).

رأينا شيخًا نحيفًا محدب الظهر، له شبه من قوس الرماية، ملابسه رثة وداكنة كأغلفة الكتب، جالس وسط مجموعة منها، ليبدو وكأنه أحدها... قدمتُ له التحية وأنا أسأله عن بعض الكتب.. رفعَ رأسه ببطء، حتى شعرت في لحظة وكأنني أمام شخص ميت؛ رمقني بنظرة كادت تجرحني، وقال بمكر غير متوقع وهو ما زال يتمتع بالجلوس:

- إنها كتب ممنوعة يا أفندم

فقلت بذهول من رده الغريب:

- هل منعت عندكم كتب الجاحظ أيضًا؟!

فردَّ عليَّ وكأنه لا يفقه عن ماذا أتحدث:

- (يا بيه الناس مش لاكَية تآكل، ورق إيه اللى عاوز تشتريه).

عندها لمعت في ذهني فكرة كالبرق، فطلبتُ منه أن ألتقي بصاحب المكتبة!... ظهرَ شابٌ نحيفٌ كعصا موسى، ذو بشرة سمراء داكنة كأنها محروقة، هادئ وقليل الكلام، رحَّبَ بنا وهو يعتذر:

- هذا أبي المريض... (وهو يشير بأصبعه، نحو قوس الرماية المنحني الجالس)... ثمَ استطردَ قائلاً: إنه يعاني من أزمة نفسية لكنه مسالم ولا يؤذي أحدًا.

ثمَ سألنا متكرمًا:

- هل لي أن أساعدكما؟

تنفستُ الصعداء وقلت في نفسي: أخيرًا سنجد ما نبحث عنه... فطلبتُ منه بعض مؤلفات "عبد الله القصيمي"، الطبعة الأولى من كتاب طه حسين (الشعر الجاهلي)، معالم في الطريق لسيد قطب، خمسة روايات من البرتو مورافيا، سبعة روايات من تشارلز ديكنز، سيرة حياة ماركيز وروسو، أعمدة الحكمة السبعة للورنس العرب ثمَ سألته بالتحديد: كم مسرحية تملك لشكسبير؟

قال بسخاء وهو يتباهى، وكأنه يملك الدنيا كلها: عشرين مسرحية.

قلت دونَ تفكير وبخبث شيطاني لا أعلم من أينَ أتاني: ضعها في كيس أرجوك!.

فلم يصدق أذنه، وأعادَ على السؤال وكأنه غبي: كلها؟

أجبته بإيماءة نادرة من رأسي.. فلم يكذب عيونه هذه المرة، بعدَ أن خانته أذنه، وضعها في ثلاث أكياس سوداء كالحة، كالتي نستعملها للنفايات، ثمَ ضغطها بيده ورصَّها جيدًا ليتأكد وكأنه ضرير.

نقدتهُ ألف جنيه مصري وأنا أعتبر نفسي محظوظًا، بينما أنحنى الشاب وكادَ رأسه يمسح الأرض بعدَ أن صكَ على الجنيهات ووضعها في جيبه وكأنه يخبئ سرَّ حياته القادمة.

رجعنا قافلين إلى الفندق مساءً ونحن نسحب حقيبة كبيرة اقتنيناها من هناك لغرض حفظ الكتب، لتبدو وكأنها خزانة ملابس... وما أن تناولنا عشاءنا، حتى قرَّرنا أن نزور "مكتبة مدبولي" الذائعة الصيت في الشرق؛ وكأنها أحد أشهر مطربي العالم العربي، لننهي رحلتنا فيما بعد.

مكتبة مدبولي كانتْ غاصة حتى قاعها بالكتب وكأنها مركب غارق في محيط ليس له قرار، فالكتب كانتْ مرصوفة على جوانب الجدران من الأرض وحتى السقف؛ وكأن المكان شُيِّد من كتب لا من طوب، يا لها من روعة لقد كانتْ بالنسبة لي، ليست مكتبة بل جنة كتب؛ تجدُ فيها كل ما يطيب النفس وما يسر الروح ويغذي العقل.. ثمَ هتفتُ بأعلى صوتي، وكأنني أشجع فريق لكرة القدم: يا سلام، مكتبة بصحيح.. فهزأت نظرات الزبائن مني بصمت، وكان صوتي النشاز أيقظهم من نشوة السكر في حضرة الإلهام، ثمَ أشارَ علينا أحد عمَّال المكتبة بأن نتبعه وكأننا مدعوين في حفلة (بعدَ أن لمعت في عينية الجنيهات التي في حوزتنا والتي ننوي استبدالها بورق الكتب) جفلنا من الرهبة والخوف، وسرنا نتبعهُ كظله، نخرجُ من دهليز لندخل بآخر، حتى تصورنا أن الهواء بدأ يقل تدريجيًا كلما اندفعنا نحو العمق، وكأننا في نفق لمعبد فرعوني.
وصلنا إلى ردهة واسعة مليئة بالرفوف وكأنها قبور مرصوفة بعضها فوق البعض، فقالَ عامل المكتبة بنفس مقطوع وهو يسبح بعرقه:

لكما أن تبدأا برحلة البحث الآن.

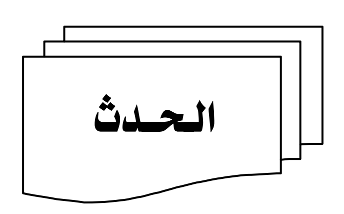
اقتنينا ما شاء الله من كتب، ونقدنا صاحبنا مدبولي أغلب الجنيهات التي في حوزتنا، وقفلنا عائدين وكأننا عدنا من معركة منتصرين... ثمَ جلست اللَّيل بطوله وأنا أعد الكتب وأقلب بعض صفحاتها وكأنني أسامرها!.

حزمنا أمتعتنا ودفعنا حساب فندقنا وذهبنا إلى المطار لأجل العودة إلى وطن الغربة الذي هو وطننا، وما أن وصلنا ونحنُ نسحب الحقائب وكأنها مليئة بالحجر لثقلها وإذا بنا نفاجأ بأنَ طيارتنا كانتْ قد أقلعت قبلَ ساعة حسب التوقيت الصيفي الجديد ونحن لا نعلم، كالجهلة.

عدنا إلى نفس الفندق ونحن نسحب أذيال الخيبة وكانتْ ثقيلة كحقائبنا، رجوناهم استقبالنا وكأننا نطلب اللجوء السياسي في دولتهم.

في صباح اليوم التالي، جلسنا بنشاط عجيب، ونحن نستقبل يومًا جديدًا.. اقتنينا تذاكر العودة بعد أن نقدنا مكتب الحجز ألف يورو دفعناها على مضض دونَ أن ننبس بأي كلمة وكأننا نعاني الخرس.

استقرت الكتب بعدَ أن قمنا بتنظيفها (أنا وزوجتي) في دارها الجديد فرحين ونحن نضحك بصوت غريب كالأصوات التي تطلقها الأمواج، ولم ننسَ أبدًا، تلك الصفحة من حياتنا ما حيينا، لقد كانتْ سفرة شاقة، لكنها جميلة ومفيدة.. وها هم أولادي أصبحوا ثلاثمائة بعدَ أن كانوا لا يتجاوزون الخمسين... فيا لها من رحلة صعبة وممتعة وكأنها مغامرة.



لقد كان المنظرُ مرعبًا، فالطريق مزدحم جدًا، ولم يكن هكذا من قبل، فسيارات الإسعاف والبوليس والإطفاء كلها تتجمع بسرعة مذهلة كالنحل على العسل؛ بينما ترتفعُ أصواتها التي تنذرُ بالشؤم، حينَ تسمعها تعرف بأنَ هناك مصيبة حصلت أو ستقع... وفيما هما مازالا جالسين في السيارة معَ أولادهما فراس وحكمت، ينظرون بفزعٍ ورهبة بعدَ أن سد عليهم الطريق، فاضطروا إلى التوقف والانتظار، سألَ فاروق بحيرة وقلق زوجته مريم:

- ماذا تعتقدين ما الذي يجري هناك؟

أشارت له غامزة وكأنها تغازله، فعضت شفتيها بقوة وكأنها تريد أكلها فقالت:

- لا بدَ من شيء خطير قد حدث، وإلا لماذا يتجمعون ويهرولون، رجال البوليس والإطفاء والأطباء.

- ثمَ أردفَت بهدوء وكأنها تصلي:

- اللهم أجعلهُ خيرًا.

ولم ينتظر فاروق طويلاً، فردَّ عليها كالراهب: آمين

الموقف بدا أكثر تطورًا وإيلامًا، فالناس يهرعون من كلٍ صوبٍ ويتوجهون للدخول من خلال البوابة الكبيرة التي يسعون هم أيضًا

للدخول من خلالها، ولكن منعهم من السير في الشارع، أجّلَ ترجلهم، بينما من يأتي سائرًا يستطيع الدخول وبصحبتهم آلات التصوير محدثين ضجة عارمة، ويطلقون أصوات مبهمة وكأنهم في جنازة، بينما يزدحم الكثير ممن لم يسمح لهم الدخول، أمام البوابة وكأنهم في طابور جمعية تعاونية، فقال فاروق محدثًا نفسه: لقد رأيت هذا المنظر في صعيد مصر عندما يتجمع الناس بطوابير طويلة حولَ أفران الخبز!.. لكن الوضع هنا مختلف، فالناس لا يتصارعون على الخبز، بل على الرأي فقط، عندما يُغتصب منهم! ثمَ شرعَ يقول بصوتٍ مرتفع: لكن المكان هنا لا يوحي بتظاهرة أو مسيرة احتجاج! بل إنه مكان...

سمع في تلك اللحظات نقرًا على زجاج السيارة، وإذا برجل البوليس يصرخ وكأنه فقدَ صوابه:

- افسحوا المجال لسيارات الإسعاف التي وراءكم بالمرور، هيا تحركوا بسرعة جانبًا.

ثمَ يزداد موقفهم حرجًا وهلعًا، وبدأوا يشعرون بالخوف فعلاً، فهرعَ ابنهما الصغير، فراس باكيًا وهو يدمدم:

- أريدُ أن أرجع إلى المنزل، ويكفي ما رأيناه

بينما يجيبهُ أخوه حكمت بقلق:

- أنا لا أريد أن أموت...

ثمَ بدأ هو الآخر بالصراخ وهو في حالة ذعر كبير، ليبدو وكأنهم فعلاً سيهلكون لا محال...

ثمَ قالَ الأب متهالكًا:

- إذن سأتصلُ بأمي وأقول لها بحزم، عليها أن لا تغادر المنزل الآن .
في حين حاولت مريم زوجته تهدئة الجميع بعدَ أن طفحَ كيل صبرها، فقالت:
- أرجوكم اهدأوا، ما هذا أعوذُ بالله، إنها مجرد أزمة وستزول لا داعي للقلق، إننا نعيش هنا منذ أكثر من عشرين عامًا ولم نتعرض لمثل هذا الموقف المتأزم، ولكن انظروا حولنا...
فيتلفت الجميع بفزع وكان هناك حيوان مفترس يطمع بمهاجمتهم، فأردفَت وهي ترفع يدها كشاعر يلقي قصيدة:
- هناك الكثير ممن ينتظرون، أيضًا فلا داعي للخوف، أرجوكم اهدأوا.

ثمَ يصرخُ زوجها فجأة كالملدوغ وهو يرتعش وأعصابه مضطربة وجسمه مشدود كالوتر، فقال:
- انظروا هناك
ثمَ يشير هناك يلتفت الجميع نحو المكان المشار إليه، ليروا أناسًا يحملون زهورًا ولا فتات وهم يهرعون صوب البوابة... ثمَ شرعَ يقول وقلبه يدق بعنف:
- أستغفر الله، ما الذي يجري؟ لابد هناك من أمرٍ خطير يحدث، أمر لا يمكن لنا توقعه، أمر كبير قد لا نستطيع تصديقه حتى ولو رأيناه بأمات أعيننا.
قالَ ذلك ونظرَ إلى زوجته فرآها شاحبة لا ترد وكأنها خرساء كالسمكة! فلم يتمالك نفسه بعد، فقالَ لهم بحزم آمرًا:

- سأترجل من السيارة، وأنتم تنتظرون هنا، سأتحرى الأمر بنفسي وأرجع حالاً... بعدَ أن نفدَ صبره.. فقالَ لزوجته: سأترك لكِ تولي قيادة الأسرة الآن وسأعتمد عليكِ، ولا تخيبي أملي فيك، كوني حازمة بقراراتك، ودعي عقلك هو من يتخذ القرار المناسب عندَ الضرورة... ثمَ لوَّحَ بيده دونَ معنى وأردفَ: أنتِ ستكونين مسئولة عن نفسك وعن الأولاد، في حالة حصول أي أمر طارئ... بعدَ أن توقف في كل كلمة يقولها للتأكيد فقال: كوني قوية، فنحن لا نعلم ما سيحدث...

قبَّلها ثمَ قبلَ الأولاد كمن سيذهب للموت! فطفرت الدموع من عينيه وبدأ يبكي كالأطفال وكأنه سيرحل عنهم فعلاً دونَ رجعة... عندها لم يستطع ابنهما الصغير السيطرة على نفسه، بعدَ أن رأى تصرف أبيه وهي يبكي وينتحب أمامه، فزاد من خوفه وقلقه ورعبه فصرخَ دونَ شعور قائلاً:

- لا تذهب يا بابا، لا داعي يا بابا، فأنا أحبك يا بابا...

ثمَ علا صوت البكاء والصراخ داخل السيارة وكأنهم في مأتم عربي، فقالَ الأب متوسلاً:

- أرجوكم كفي، ما هذا الذي يحصل؟ حرام عليكم تعذبون أنفسكم هكذا...

ثمَ شرعَ:

- ليخطفني الشيطان، أرجو المعذرة فهذا استهتار... وهو يزر عينيه كالمقامر الذي لا نقود لديه وهو يحوم حولَ موائد اللعب فقالَ جازمًا:

- سأسأل أحدهم وأرجع؛ هذا كل ما في الموضوع...

ثمَ ذهبَ مسرعًا بعدَ أن تركهم في السيارة بعدَ غلقها.

بعدَ دقائق قليلة رجعَ لهم بصدرٍ منفوخ وكأنه كيس مملوء بالهواء، ورأسه عاليًا وكأنه ليس له؛ فتحَ باب السيارة وجلسَ بصمت كالظل للحظات فيما تنظر عائلته له بفضول كبير وكأنه من عالم آخر، فشعر بالحرج، فقال مصرحًا: اسمعوا ما سأقوله جيدًا.

ثمَ صمت مجددًا وكأنه يلعب معهم لعبةٌ ما، فصرخت به زوجته دونَ شعور: أرجوك، لم نعد نتحمل، قل ما يدور هناك... ثمَ أردفَت وهي ترتجف:

- انظر إلى ولديك يا رجل فهما شاحبان كالموتى، قل بسرعة ما الذي يجري حولنا ولا تجعلنا نفقد عقلنا.

عدلَ من جلسته وقال بتباطؤ عن قصد:

- في الحقيقة، إنهم أناس يستحقون العيش بسلام...

ثمَ انتبه فإذا بولديه ينظران له نظرة غريبة وكأنهما يحقدان عليه!.. فقالَ جادًا:

- لقد ماتَ الدب الأبيض الوحيد والأخير من سلالته قبلَ دقائق، وقد حاولوا إسعافه دونَ فائدة، وستغلق حديقة الحيوان أبوابها اليوم والأيام الثلاثة القادمة إجلالاً وإكراما لموت الدب...

ثمَ أردفَ بهدوء وكأنه يصلي:

- إنَّا لله وأنا إليه راجعون.

فهمسَ بصوت غير مسموع كالمخدوع، قائلاً:

- سوفَ لن أغفر لنفسي ما فعلته أمام أسرتي من تصرفات خرقاء غير مسؤولة، ما حييت أبدًا.



لا مُبالاة

يدخلُ المهندس حسام منزلنا ضاحكًا كعادته، بعدَ أن قطعَ مائة وسبعين كيلو مترًا، ليصلنا.

- ما هذه المفاجأة الجميلة يا عزيزي... قلتُ له مرحبًا.

- لقد اشتقتُ إليكم كثيرًا، ولا أخفيكَ سرًا، جئتُ لآخذه معي دونَ شك!.

أطرقتُ مفكرًا قليلاً، ثم قلتُ:

- اجلس الآن ولدينا وقتٌ طويل للحديث، أهلاً وسهلاً بك.

أجابَ وهو يبتسم:

- وبك أكثر.

انقضى نهار السبت سريعًا، وكأنه يركض، فالأحاديث الشيقة معه لا تنتهي، شربنا القهوة وأكلنا الكعك المحشو بالتمر والسمسم، ثمَ نهضَ فجأة وكأنه تذكَّر شيئًا، وقال:

- عليَّ المغادرة الآن، وأنا لا أحبُّ القيادة ليلاً!.

قلتُ له:

- نعم أقدِّر ذلك، ولكن يمكنك البقاء إلى الغد، ثم ترحل، فلمَ العجلة؟

- لا شكرًا يا صديقي، لكنك لم تقل لي بعد، هل يمكن لي أن آخذهُ معي؟

أجبته وقد احمّر وجهي كلون سرطان البحر خجلاً:
- هل فكرت بالموضوع جيدًا، قبل أن تطرحهُ عليَّ هكذا، دفعة واحدة، سريعًا كالرصاصة؟

- لقد فكَّرتُ مليًّا بالأمر وقرَّرت، ولا داعي للتأخير أرجوك، وكما قلت، أحبُ أن يكون معي وبصحبتي، سآخذه ولن أجعله يحتاجُ شيئًا، سأعتني به أكثر من نفسي ولن أهمله، هو يأمر وأنا أطيع، ماذا تريد أكثر يا رجل؟ أعدك بأنني سأصطحبه في أكثر من رحلة، سأتنزه معه ولن أتعبه أبدًا، سأحمله على صدري. ليأخذني الشيطان إن لم أوفِ بوعودي، ما عليك إلا أن تدعو لي بالتوفيق، وتجيب بكلمة نعم... هل هذا كثير عليك؟

- ما هذا يا رب، أنت تحرجني جدًا، فأنت صديقٌ عزيزٌ على قلبي، وأحبك كثيرًا، وأثقُ بك دون شك، ولا أحب أن أرفض لك أمرًا، لكنك تطلبُ شيئًا، هو ليس للإعارة أو للبيع، غريب طبعك هذا يا حسام، لاحظ بأنني سأكون قلقًا وقد لا أستطيع النوم، فإني لم أتعود أن يكون بعيدًا عني، ما هذه الورطة؟!

أجاب قائلاً وهو يحرِّكُ يده عاليًا وكأنه يصيد بعوضة:
- لا تكن بخيلاً يا رجل، فأنه سيكون بحمايتي وتحت رعايتي شخصيًا، لا تقلق من ذلك أبدًا.
- أنا متأكد من ذلك... قلتُ له.. لكنني مازلتُ مترددًا يا صديقي.
- لا تتردد... أردفَ: سآخذهُ وأرده بنفسي، أعدك بذلك، أقسم لك بشرفي يا رجل، ما هذا، إنه لا يصدقني، اللعنة على الشيطان.

قلت وبدا التوتر عليَّ واضحًا أمام إصراره البغيض:
- لا ناقصة، لم تبقَ إلا هذه، طبعًا سترجعه بنفسك، توعدني بذلك، إنه شرطي الوحيد، هل أنت موافق؟

أجابُ بطرف لسانه، ضاحكًا كالذي اكتشفَ عظمًا في السمك قبلَ أن يلتهمه:
- نعم موافق، هيا إذن، هيَّأهُ للسفر، فقد جعلتُ له مكانًا مناسبًا في العربة، تصور، بجانبي شخصيًا، لا تحمل همًّا يا رجل، إنها بضعة أيام فقط سيكون بعيدًا عنك، ما هذا الإفراط بالدلال، إنك ستفسده بأفعالك هذه!.

وأنا أفرك رأسي حقدًا بريئًا، قلت:
- فوضت أمري إلى الله، أنا موافق.
صرخ كالطفل:
- لقد أقنعته!.

يعود المهندس حسام لمدينته، ليتركني وحيدًا أصارع القلق الذي ينهشُ فيّ كوخز الإبرة، أتقلب على السرير ليلاً وكأنني نائم على جمر، أعدُّ الدقائق، وأتحدث مع نفسي كالمجنون، بصوتٍ مسموع:
- لقد كان خطأي، نعم، خطأي، ما كان عليَّ أن أوافق، إذن أجني ما زرعت، آه يا ربي متى سيعود، لقد اشتقتُ إليه كثيرًا...
ثم تلمع عيوني، فتترقرق الدموع، وأنا أتثاءب لأحاول النوم.

بعدَ عشرة أيام بطيئة على قلبي، كالذنوب؛ اتصلَ حسام وهو عصبي المزاج، ليقول:

ـ ما هذا يا رجل؟ أنا لم أتوقع أن يكون الموضوع هكذا، لقد أتعبني جدًا، ولم يجعلني أنام بسلام منذُ أن حلَّ هنا، لقد فقدتُ السيطرة عليه، أرجوك خلصني منه، فقد فشلت في ترويضه وكأنه نمر، إنه صعب جدًا، لم أستطع التعامل معه أبدًا، تصور يا رجل، بالرغم من خبرتي الطويلة في الحياة، وكثرة قراءاتي وثقافتي العريضة لم أجد معه طريقة تجعلني أتفهمه أو حتى أقدر ما يقول، اعذرني يا رجل إذا قلتُ: إنه حقود ومراوغ ولا يستحق العطف، سأبعثهُ لك عن طريق البريد المسجل، لا تقلق، سيصلك سليمًا معافي، لن يتضرر، أنا أتعهد بذلك!.

جنَّ جنوني ونسيت نفسي فقلتُ:

ـ ماذا تقول؟ لا يمكن لك أن ترسله هكذا، أنه سيموت حتمًا، سيختنق، بل لن يصل أبدًا، سيعدم هناك تحتَ الرفوف وبينَ سواعد العمَّال، أرجوك يا رجل...

ودون شعور (بدأتُ أردد كلماته) لا تفعل ذلك، تذكر وعدك، سترجعه بنفسك، لقد كان هذا شرطي الوحيد، هل نسيت؟ سأبعثه بالبريد يقول! ماذا لن يتضرر يقول؟!... كنتُ أهذي، كالمصاب بالحمى.

ـ إذن اتفقنا... يضحك وهو يقول: سأكون عندك غدًا، لا تحرق أعصابك كالورق يا رجل، لقد كانتْ مجرد فكرة، فإنه ما زال هنا يتمتع بالدفء والهدوء وهو بجانبي!.

بعدَ نفاد صبري، أصبحت كالسمكة التي تمَ شواؤها على نار هادئة، يدخلُ المهندس حسام بأسنان ضاحكة، يهز أكتافه وكأنه يرقص، ويقول:

- خذ يا رجل ما هذا، إنه كتابك أعمدة حكمتك السبعة للورنسك، سالمٌ من أي خدش أو جروح، انظر له، نظيفًا كالمرآة كما أخذته، لقد صرعتنا، بل قتلتنا دونَ أن تشعر، ما هذا، أعوذُ بالله، لن أطلب منك بعد اليوم كتابًا أبدًا، عملتها قصة يا رجل؟!

لم أكن أسمع ما كان يقوله، وتركيزي كان قد أنصبَ على الكتاب وأنا أراهُ ثانيةً يلمع أمام ناظري كالذهب، تلقفتهُ بشوق، قبلته وحضنته كما يحضن الأب ابنه، بعد طول غياب، وقلت: أعدك بأنني سوف لن أجعلك تكون بعيدًا عني بعد اليوم ما حييت وسأكتب هذا قصة، وأهديها للمهندس وسترى... أعدك بذلك.



يصرخُ هشام بكل ما يملك من قوة، كمن يعاني من عذاب داخلي مرير، وكأنه يريد تحطيم الزجاج من خلال الصوت فقط، وهو يلوِّح مرفرفًا بيديه كأنه ينوي الطيران.. ينظر إلى زوجته فيحاء المنكمشة على نفسها، تنظر له بعمق وبحيرة وكأنها تودعه بسفرٍ طويل، ثمَ تخفض بصرها لتنظر إلى نقطة واحدة... الشيطان وحده يعلم ما كان يدور في مخيلتها من أفكار وخواطر تتراقص بذهنها في تلك اللحظة وهي صامتة، ساكنة. ومن ينظر لها في تلك اللحظة سيعلم مباشرةً أنها إنسانة مخذولة، تعيش تحت وطأة الاحتقار والضعف.

وجهها شاحب جدًا وكأنها ستموت بعدَ ساعات معدودة، بينما يبقى صمتها القاتل ذاك ووقفتها المستكينة المنهزمة ونظراتها الحيرى كلها توحي بأنها كالذي فقدَ الذاكرة للتو... حينها تعلو صرخات زوجها وهو يزمجر، بعدَ أن لفَّ حول نفسه عدة مرات وبسرعة كالزوبعة فقال:

- لا أريد أن أسمع أي أخبار عن أمي وأبي بعد اليوم.

ثمَ أردفَ بكل سفالة:

- سوفَ لن أسمح لهما بدخول منزلي ما دمتُ على قيد الحياة.

بينما ترتجف ابنته الصغيرة "لينا" ابنة الأربعة أعوام، وجسمها يرتعشُ رعبًا لمنظر أبيها السكران وهو يصرخ عاليًا، فتهتز أركان الشقة من جذورها، في حين يمسك أخوها أثير ابن الثامنة طرف ثوبها بحذر غير مسبوق وهو ينظر إلى أمه ووجهه شاحب، متعب بعدَ أن فقدَ كل تعبير للطفولة البريئة.

يجلسُ هشام على الكنبة ليغوصَ فيها، بعدَ أن صّرحَ بما يريد، فأرعبَ الجميع وكأنه مارد، ثمَ مدَّ يده المرتعشة نحوَ الكأس المملوء بالنبيذ ليجرعها دفعة واحدة كأنه دواء، ثمَ مسك السكين التي أمامه بعدَ أن قطّعَ فيها الخيار، ليصنع لنفسه مزة يتلذذ بها أثناء شربه، ويلوحُ بها عاليًا كالسيف وكأنه في ساحة قتال، فقالَ مستنكرًا:
- اغربوا عن وجهي الآن، لا أريد رؤية أحدًا منكم... وهو يشير إلى أولاده.

بينما بقيت زوجته تراقب الأحداث وهي صامتة وكأنها صماء لا تسمع... ثم تقدم الطفلان باتجاهه، يطلبان منه برجاء طفولي مفرط أن يكفَّ عن الشرب وأن يذهب كي ينام، فالساعة قد تأخرت وتجاوزت الواحدة بعدَ منتصف اللَّيل.
شتمهما غاضبًا وقال:
- منافقان كأمكما... لسانهما ينطق بالحب والرقة، وقلوبهما سوداء تضمر الكره وتخفيه.
في حين عَلتْ أصوات الأولاد بعد أن تشجعا قليلاً فقالا بصوتٍ باكٍ:
- كفى يا بابا، لا داعي للشرب أكثر، نحنُ نخاف عليك حقًا يا بابا.

- هراء إنكم تكذبون... يدمدم وكأنه يحاول أن يبيعَ شيئًا في السوق.
ثمَ استطردَ قائلاً:
- لم يبق إلا الصغار كي يتحكموا بتصرفاتي، والله عال، نحنُ نحب في زمن ن ن ن الأخلاق... وهو يلوي لسانه عندما يتحدث، كأنه يعلك... عندها يصرخ فجأة وهو يلوِّح بالسكين:
- قلتُ لكم اغربوا عن وجهي الآن، اللعنة، كل اللعنة تقع على أمي وأبي لأنهما أنجباني ورمياني في لُجة الحياة الصاخبة كالبحر وأنا لا أجيد السباحة!...
فضحكَ بصوت مجلجل: هاهاها... ثمَ هتفَ قائلاً:
- هما السبب في هذا الذي أنا فيه.

عندها صوَّبَ السكين نحو زوجته الواقفة أمامه كالصنم وكأنها تنتظر حدوث المصيبة!.. فقالَ لها بالحرف الواحد:
- لا تنسي ما قلته لكِ قبلَ قليل، لا أريدهما أن يدخلا منزلي بعدَ اليوم، لا أريد... ثمَ صرخَ مؤكدًا: مفهوم؟!

خفضت الزوجة بصرها وزرت عينيها كالتي تشعر بالنعاس وتريد النوم، فقالت بانكسار ووهن:
- نعم، سوفَ أفعل كل ما تريد، ولكن كف عن الشرب الآن.
ثمَ أردفَت:
- لقد شربتَ اللَّيلة كثيرًا، وعلى غير عادتك، ستقتل نفسك يا رجل..
وحاولتْ أن تشرح له بهدوء وكأنها تريد استرضاءه:
- نحنُ لا نريد منكَ شيئًا، ولكن انظر إلى صحتك، فجسمك يرتعش، ووجهك أصفر ونظراتك ينقصها التركيز..

ثمَ استطردت بنوع من الحزم وكأنها تحاول أن تعيده إلى صوابه:
- أرجوك كف عن الشرب الآن واذهب للنوم.

سمعها ولم يتأثر، فبدا لها في تلك اللحظة شخصًا غريبًا عنها، غير مفهوم كالمعجزة، ليبقى منظره مقززًا، فعلى رأسه كتلة من الشعر صفت بطريقة كيفما اتفق، وعيناه الداكنتان كثقبين صغيرين، بينما حجم رأسه لا يتناسب معَ طول قامته، فهو صغير نسبيًا، في حين ذراعاه التي تشبه ذراعي عملاق، وساقاه كشجرتين، لذلك كان يمثل لهم رعبًا حقيقيًا لأسرته، خاصة عندما يكون في حالة من السُكْر الشديد.

وقفَ ثانيةًً، لكنه بدا وكأنه شاخَ عشر سنوات سريعة، فقال وصوته يهدر كصوت العاصفة:
- أعوذُ بالله، ما هذه الحياة التي نحياها؟! يموت فيها المرء وهو في مقتبل العمر.
ثم دقَّ بقبضته على الطاولة التي تفصله عن زوجته بقوة وهو يقسم بشرفه صارخًا:
- تقع عليَّ لعنة الشيطان إذا رأيتهما هنا يومًا، سأقطع رأسيهما أولاً ثمَ لسانيهما، ثمَ رقابكم جميعًا.

تنظر له زوجته وهي حيرى لا تعرف بماذا ترد ولا كيفَ تتصرف معَ هذا المخلوق الذي لا يعمل شيئًا سوى التسكع نهارًا والسكر ليلاً، بينما تعمل هي كمنظفة، ليأخذ ما تتقاضاه، كي يبدده على ملذاته: أستغفر الله.. قالت وهي تحدِّثُ نفسها بصوتٍ غير مسموع وتضربُ كفًّا بكف وكأنها تصفق، ثمَ تخفض رأسها مجددًا، لتدخل

دوامة العذاب والشقاء والبؤس الذي لا يريد أن ينتهي أو أن يغادرها، في حين يعيش أولادها التعساء حالات الهلع والرعب والخوف القاسي المرير دونَ أن يكون لهم أي دور أو قرار؛ كما هو الحال لأطفال بسنهم وتحت ظروف كظروفهم.

شربَ هشام في تلكَ اللَّيلة كثيرًا جدًا، فبدأت الأفكار الشريرة تدور في رأسه، ثمَ بدأ يتألم ويبكي ويضربُ رأسه وهو يقول:

- أرجوكم، أسعفوني، فهناك سكاكين تقطعُ أوصالي...

ثمَ استطردَ:

- أشعر بأنَ قلبي ليس في مكانه... وهو يَسبّ ويشتمْ ويلعنْ أمه وأباه ويقول باستهتار: هما السبب، لعنهما الشيطان في الحياة وهما حيَّان. ثمَ نظر إلى زوجته، وبدأ بالتضرع والتوسل وهو يصرخ من الألم، في حين ينظر أولاده إليه بشرود، لتبدو وجوههم كوجوه اليتامى... ثمَ صاحَ الزوج مجددًا وهو يزفر بهلع ويقول بكلمات تكاد تكون مخنوقة وكأنه يغرق:

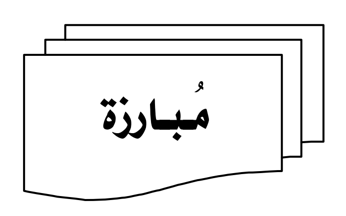
- أريدُ مزيدًا من الهواء، لماذا قطعتم عليَّ الهواء؟!

ثمَ تنحشر الكلمات في فمه فتأبى أن تخرج، وكأنه عقاب الله!...

يختنق ويزداد شحوبًا ليبدو وكأنه قد ماتَ قبلَ ساعات، فسقطَ على الأرض كالحجر فاقدًا لنبض الحياة.

تنظر له زوجته ببرود وشرود عجيبين، بعدَ أن اختلطت في قلبها أحاسيس الرعب والخوف والهول والذل والمهانة، وكأنها هي التي ماتت!...

ولم تمضِ إلا دقائق حتى جاءَ أبوه وأمه، ووقفا على رأسه بعدَ أن فاضت الدموع في أعينهما بحرقة ومرارة لموت ابنهما البكر والوحيد وهو لم يتجاوز التاسعة والثلاثين بعد، فلم تلاحظ فيحاء نفسها إلا وهي تلتقط أولادها من على الأرض، لتضمهم نحو صدرها بقوة والدموع تطفر من عيونها كالمطر وهي تتخيل في أذنيها أصوات زوجها تَرن من بعيد عندما قال لها صارخًا: نحنُ نحب في زمن الأخلاق... ولا تعلم ماذا كان يقصد في كلامه ذاك، لكنها كانتْ على يقين بأنَ زوجها كان رجلاً غريبًا وغير منطقي.



مُبـارزة

يقف المهندس "حكيم" مذهولاً أمام زوجته المريضة وهي تئن، يسرِّحُ شعرها وهو يدمدم:

- لا تقلقي يا عزيزتي فكل شيء سيكون على ما يرام، أعدكِ بذلك ستكونين بخير، أنا متأكد.

تسعل زوجته "كريمة" بقوة، فيهتز بدنها كله وهي ترتجف من الحمى وتقول بصوتٍ خافت كحفيف أوراق الشجر:

- لقد عذَّبتك معي كثيرًا يا زوجي العزيز، وأنا قد لا أستحق منك كل هذا الاعتناء والرعاية.

يغلق فمها براحة يده ويقول دون تردد:

- لا تزعجي نفسك أبدًا، إن لم أفعل هذا لكِ، فلمن إذن؟!.

ثمَ يردف متسائلاً وكأنه تذكر ما يريد أن يقوله:

- ماذا تعنين بكلامك (أنا لا أستحق منك هذه العناية) إنكِ بالتأكيد تحتَ وطأة وتأثير الحمى، وسوفَ أعتبر نفسي بأنني لم أسمع ما قلتِه... ويفرك يدها ويقبِّلها بحنان ورقَّة.

في هذه اللحظة يرنُ جرس الهاتف، فيحدث صوتًا غير متوقع، يعكِّر الصمت والهدوء الذي كان ساكنًا، فيفزع حكيم من الصوت، ثم يرفع سماعة الهاتف بعد تردد وكأنه خائف، فيرد:

- من هناك؟

- أنا سعد يا حكيم، ألم تعرفني؟ غير معقول...

ثم يشرع مصرحًا وبلهجة واثقة:

- إن ماركيز يقول: الحياة ليست هي الأيام التي يعيشها المرء، بل التي يتذكرها ويستطيع أن يرويها وكيفَ يرويها...

ويضحك فرحًا، فيردف:

- كيفَ إذن أتصلُ بكَ وأنتَ لا تعرفني؟!

- أرجوك، أنا في وضع لا يسمح لي المزاح الآن، قل من أنت وما تريد؟ وإلا أغلقتُ الخط.

- انتظر لحظة من فضلك، حقًا لا تعرفني؟ ولكن كيفَ هي زوجتك الآن؟ فأنا أراكما جيدًا وأسمع صوتكما بوضوح كما أسمع نفسي الآن، هل تصدق؟!

يتلفت حكيم حولَ نفسه مذعورًا، ولا يرى سوى زوجته المستلقية أمامه على السرير، فيرتجف صوته ويقول بلهجة خشنة مسموعة وحذرة:

- سأغلق الخط يا هذا، قل من تريد ومن أنت ولماذا تتصل؟!

- أنا، لقد قلت لك قبلَ قليل، ومن الظاهر أنَ ذاكرتك متعبة جدًا، ومعَ ذلك سأعيد عليك ما قلته للتو: أنا سعد، وأريد أن أطمئن على حبيبتي كريمة، هل هذا سبب كافٍ لاتصالي أم لا؟!

- ماذا تقول؟... ردَّ عليه حكيم بعصبية وهو في حالة من الحنق فقالَ: عن أي حبيبة تسأل؟ لا يوجد هنا سوى زوجتي المريضة!.

يردُّ عليه سعد بشكل حازم:
- أنا أقصدها يا ابن الذين، وإلا ما كدرتُ حالي وتنازلتُ كي أتكلم مع شخص مثلك... ثمَ يقهقه دون انقطاع: هه هه هه.

غلى الدم في عروق حكيم فقالَ صارخًا بحدَّة:

- من هذا المعتوه الذي تقصده؟ أنتَ مجنون يا هذا؟!

يقاطعه سعد ضاحكًا كالمنتصر ويقول له ببرود:

- لا تفقد أعصابك يا عزيزي، فنحنُ متفقان على كل شيء، والموضوع بالنسبة لنا مجرد وقت لا أكثر، فأنا أنتظر فقط أن تستعيد كريمة صحتها لنتزوج، أرجوك بارك لنا حبنا وسوفَ لن أنسى موقفك الشجاع والأبيّ هذا ما حييت.

يغلق حكيم الخط غاضبًا وهو يصكُّ على أسنانه بقوة وكأنه يريد تحطيم شيء ما بينَ أسنانه، ثمَ يلتفتُ حولَ نفسه كالمجنون ويصرخُ عاليًا وكأنه يستغيث:

- ما هذا، هراء، جنون، أكيد إنه شخص مجنون وإلا كيفَ يجرؤ على التكلم معي هكذا دونَ خوف أو وجل!... أعوذُ بالله..

ثمَ يهتفُ متهالكًا وبصوت مهزوم بعدَ أن أنخفضَ صوته دونَ إرادة وهو يدمدم وكأنه يبكي: إنه وقح وبلا أخلاق.

ثمَ يسمع صوت زوجته وهي تناديه وكأنه نساها، بصوت يرتجف ويكاد يكون مخنوقًا:

- عزيزي حكيم من كان على الخط؟ ولماذا أراك عصبيًا وقلقًا؟ أرجوك قل لي، فأنا لا أقوى على الحركة أو النهوض...

وتسعل لينقطع صوتها المتهالك وكأنها دخلت في حالة غيبوبة، بينما يقتربُ منها زوجها وهو يترنح كالسكران في مشيته، ويقول:

- لا شيء يا عزيزتي، أنه شيءٌ ما غريب يحدث، بل مكالمة لم أسمع مثلها من قبل.. لا شيء.

ثمَ يردف:

- أظن أنه قد أخطأ في الرقم، حتى أنه...

يرنُّ جرس الهاتف ثانية، فيتصوره حكيم وكأنه صوت سيارة إسعاف، فيهرع إليه بسرعة مجنونة ويرفع السماعة ويقول بإحساس معدم:

- نعم من هناك؟

- أنا سعد، يا عزيزي، هل نسيتني، هكذا سريعًا؟! عجبًا، أنصحكَ بأن تعرض حالتك هذه إلى طبيب، فهذا الأمر لا يمكن السكوت عليه أبدًا... ثم يشرعُ قائلاً:

- أنا غريمك، ألم تخبركَ كريمة بذلك؟

ويستطرد:

- آه، أنا أعرفُ السبب، فمرضها المفاجئ أجَّلَ كل ترتيباتنا، وجعلَ خططنا كلها تتغير، والدليل أنها لم تفتح معكَ أي موضوع يخص حياتنا المستقبلية، وحبنا الخالد، وزواجنا الذي هيأنا لهُ كل شيء ولا ننتظر سوى موافقتك!.

- ماذا؟... يصرخُ حكيم بهِ بعدَ أن فقد أعصابه وما عادَ يتحمل كلمة أخرى، كمن يحملُ شيئًا ثقيلاً على كتفه وأحدهم يريد أن يحمِّله المزيد، فقالَ حانقًا:

- موافقتي على ماذا؟! على تزويجكَ زوجتي، مجنون أنت يا هذا؟!

- أراكَ مضطربًا يا عزيزي، أرجوك لا تتهور، واحتفظ بتوازنك، فنحن مازلنا بحاجة لك، ولا نريد منك شيئًا ذا بال، سوى أن تبارك حبنا يا رجل، ما هذا؟ إني أراه استخفافًا بمشاعرنا...

ثمَ يردف:

- أرجوك تريث وفكّر بالأمر مليًّا...

ويشرحُ له جادًا كالفيلسوف:

- هل الأجدر بنا أن نتزوج دونَ علمك لتكون هناك فضيحة ليس لها حدود كالمطلق، أو أن تقبل الأمر وتستسلم للواقع ولرغباتنا؟.

وبعدَ برهة يستمر بالحديث؛ وكأنه يلتقط أنفاسه التي خانته فقالَ مراهنًا:

- اسمع يا حكيم، لدي خيارٌ آخر، قد يكون هو الحل الأفضل لنا جميعًا...

يردُّ عليه حكيم مستعجلاً بعدَ أن غادرهُ الصبر فقال:

- وما هو؟ هات، قل لي فنحنُ في زمن لا نسمع الحكمة إلا من أفواه المجانين

- لا يهم... يجيبه سعد.. قل ما شئت، فأنا لا أبالي ولا أكترث، لكني أطلبك للمبارزة، ومن سيفوز وينتصر هو الذي يستحق كريمة.. ما رأيك؟

- رأيي في ماذا؟! أتقاتل معك من أجل الاحتفاظ بزوجتي! أي فكرة رعناء هذه... ويصرُّ على أسنانه كالذئب في حالة الهجوم، ويهتاج

فجأة إلى حد الانهيار... فيرد عليه حانقًا، ملتهبًا وهو يدمدم: نعم لقد قبلت المبارزة، أين ومتى؟ سأقطعك بأسناني يا هذا، سألتهمك نيًا دونَ مضغ، سأجعلك عبرة للآخرين.. هيا انطق يا جامد، قل متى وأين؟

- الآن... يرد سعد ببرود وهو ينقر على سماعة الهاتف بأطراف أصابعه وكأنه يدقُّ على دُفٍّ ويقول: حالاً يا عزيزي، فأنا الآن موجود في باحة المدينة وقرب السوق الذي تعرفه..
ثم يضيف:
- سأكون هناك بملابس غامقة بلون الحزن، قاتمة كطيف الحرب، كجندي بملابس القتال، وأما أنا فلا أحتاج إلى دليل لأنني أعرفك، فأنتَ غريمي وعدوي!.

يلقي حكيم نظرة مشفقة على زوجته وهو بينَ الشك واليقين، ويقول لها مودِّعًا:
- سأكون هنا بجانبك بعدَ قليل يا عزيزتي، سأقتلُ ضفدعًا أرهقنا بنقيقه وأرجع.
لم تفهم زوجته شيئًا، ولم تسمع كل ما قاله، وبقيت تسعل بصوت عالٍ وهي منهكة القوى.

وفي باحة المدينة، وعن بعد؛ يتلفت حكيم حوله كالمجنون وهو يتصبب عرقًا، ويلهث وبالكاد رئته تنطق بالشهيق والزفير، فيرى صهره رفعت، بينما يبقى حكيم مذهولاً من المفاجأة، فتغرق عيناه بالدموع من الضحك، فتهتزَ أكتافه وكأنهُ يرقص، فيقول مستطردا:

- حمدًا لله على السلامة، بالأحضان يا غريمي العزيز، لقد انشغلنا عليك كثيرًا..

ثم يسألهُ باستعجال وكأنه لم يصدِّق ما يرى:

- متى رجعتَ من جبهة القتال؟ ولماذا فعلتَ بنا كل هذا؟

يقبِّله رفعت من خديه بحنان ويتعانقان ثمَ يردف ضاحكًا وهو يقول:

- لقد رجعتُ للتو، وها أنا في ملابس القتال كما وعدتك، وقد فكرت كثيرًا بالمفاجأة التي سأقدمها لكما، ولم أجد أفضل من هذه المزحة (أقصد المبارزة) التي جددت فيّ النشاط والحيوية وجعلتني أشعر بأنني ما زلتُ حيًّا أرزق! ومن ثمَّ ماذا يعني لو مرضت أختي العزيزة قليلاً، يا رجل، فالصور التي رأيناها هناك، جعلتنا نعيش الموت ونصدق بأنه الحياة!.

ثمَ شرعَ يقول باسترسال وكأنه يحكي حلمًا:

- إنكم هنا لا تشعرون بما نشعر، انظر حولك، ستجد كل شيء طبيعيًا، أما نحن وهناك نحاول ترويض الرعب لنعيش معه، ونستخف بالخوف كي نتجاهله، تلسعنا نار جهنم ولا نجد ما يخفف عنا حرارتها؟

يصمت لبرهة ثم يقول:

- إنكم هنا تنظرون إلى المنتحر وتسخرون منه لضعفه، وتمرون بالشحاذين وتقولون في سركم: له الله!... عزيزي حكيم أردتُ أن أعيش لحظة فيها متعة، سعادة، لذة... يا رجل إنكم تستيقظون في الصباح وأنتم متعبون، تعساء بلا فرحة كالهموم، بينما نحن وكما ترى، نرجع من هناك ونطلب من الآخرين المبارزة!.

يدخلان المنزل وهما متأبطين الأذرع، وما أن تسمع كريمة وقع أقدامهما، وتشم رائحة أخيها رفعت، تنسى مرضها فتقفز من سريرها كالقطة وبوجه نوراني ملهم، وهي تصرخ بفرح وبعينين واسعتين:

- أخي حبيبي...

فتقبِّله من خده وتلثم يده بشفتيها الدافئة، وهي تضمه إلى صدرها وتقول:

- لقد عادَ لي النشاط مجددًا، لقد مرضتُ بسببك يا ملعون، فقلقي عليك كان يتغذى على أحشائي كالجنين، فلم أعد أقوى على الصبر والانتظار، حمدًا لله على سلامتك يا أخي.

فتقبِّله مرة أخرى وهو يترك نفسه بخبث، ليستمتع بدفء المشاعر الصادقة، فيغرق في الأحاسيس الجميلة اللذيذة الفياضة التي يتلقاها من أخته فلا يبدي أية مقاومة وباستسلام ممتع كمنهزم تحت وطأة العاطفة الأخوية الجياشة، فقالَ متماسكًا:

- أشعرُ بالجوع يا أختاه وشهيتي مفتوحة إلى الحياة.

وينظر إلى حكيم بعينين ساحرتين غامزتين يفوح منهما الحب وهو يقول:

- أريد أن أعيش هذه اللحظات، أحب أن أستمتع بها بكل ما أملك من جشع وجوع.



في مساءٍ صيفيٍّ حار، هواؤهُ خانقٍ وساكن كالمصلوب، عندما اتصلَ بي مهدي غاضبًا، معلنًا:

- سأطلقها...

وأردفَ:

- ليس لدي بعد أيّ خياراتٍ أخرى، وأنتَ تعلم جيدًا، لا ينقص حياتي الزوجية شيء، سوى الأطفال، ورفضها القاطع للعلاج مجددًا أثار حنقي وغضبي، لذلك قررت طلاقها... فما رأيك أنت يا صديقي؟!

- أستغفر الله... قلت لهُ.. ماذا عسى أن أقول لك يا صاح؟ ما أنصحكَ به لا تطبقه، وما توعدني لا تفي به، لقد أزهقتَ روحها، عش حياتكما دونَ حلم جديد، ستكونن سعداء أكثر لو اقتنعتما بقدركما هذا، ولكنك لحوح كالذبابة، فلماذا تسألني اليوم أو تزفُ لي البشرى، وأما طبعك فغريب حقًا.

أجابَ مثرثرًا كالساهي:

- لقد تجاوزتْ المائة وعشرين كيلو غرام، وهي ترفض تخفيف وزنها، باتتْ لا تتكلم معي وكأنها خرساء، وجهها شاحب كوجه الميت، والكآبة تعلو محياها، لقد فارقها الضحك منذُ سنوات، لم يعد

في منزلنا شيء يدعو إلى الفرح أو السعادة، حتى تيار الهواء باتَ يتحرك في منزلنا كأرواحٌ ترقص!.. ماذا أفعل؟ قل لي أرجوك.. أنا أطلب منك النصيحة فهل تبخل عليَّ بها؟ وأنا أعرفكَ جيدًا لم تكن يومًا خبيثًا، فلا تمثل معي دور الشيطان الأخرس!.

أجبتهُ ضاحكًا:

- سامحك الله، لقد قلتُ لكَ للمرة الألف، السمنة كانتْ نتيجة تغير الهرمونات في جسمها، وذلك لتعاطيها الأدوية الكثيرة خلال سنوات العلاج، ولكنها لم تجدِ نفعًا كما ترى، بل سبب لها كآبة حادة وسمنة مفرطة، اعترفتَ بذلك توًا فلا داعي للإنكار..

وأردفَتُ بشكلٍ صارم:

- إنها تموت أمامك دونَ أن تشعر، وكل ما يدور برأسك الخاوي هذا هو وهمُّ الأطفال الذي تبتغيه؛ ما هذا أعوذُ بالله، أيّ نوع من الرجال أنتْ؟!

تغيَّرتْ لهجته، فقالَ جادًا:

- كلامك خناجر تطعنني، لا تقل مثل هذا الكلام يا صديقي، فأنا لا أملك في الحياة سواك أستأنسُ برأيه.

فخفَّفتُ قسوتي عليه وقلت:

- أنا لا أريد أن أضحك عليك يا عزيزي، وما أقوله هو الحق، كما أني أتفهم غضبك وثورتك، ولكنك سبق وأن حدثتني عن سبب ذلك النقص لم يكن من طرفها فقط، بل الموضوع يتعلق بكَ أيضًا، فلماذا تحملها المسؤولية كاملةً؟ هذا ما لم أفهمه!

- سأتزوج بامرأة شابة آخر حلاوة... ردَّ عليَّ مهدي، ثمَ استطرد: تستطيع أن تنجب لي الأولاد الذين أحبهم، إنهم في عقلي وقلبي، بل يسيرون معي أينما ذهبت كظلي، ماذا عسى أن أفعل، إن كنتُ أعشقهم بهذا القدر الجنوني؟!

- لا شيء يا صديقي... قلتُ له بحزم القادة.. طلِّقها، فهذا قرارك، لكنكَ ستندم.

بعدَ شهرين تقريبًا عاود الاتصال مجددًا، وهو متذمر قائلاً:
- لمن أشكو همي؟ فأنا لا أبثه إلا لسواك يا عزيزي، فقد تجاوزتُ السادسة والأربعين من العمر، ولم أعثر على فتاة تفهمني كما كانتْ زوجتي، وكل اللاتي الذين التقيت بهن، لم أجد فيهن منْ تزرع الثقة في داخلي، وكلما قارنتهن بزوجتي أجدُ نفسي خاسرًا، لقد كانتْ زوجتي عسلاً مصفى يا أخي، ماذا أقول، لم أعثر ولا حتى على طرف من أطرافها فيهن؛ كما أني لا أعتني بنفسي الآن كما في السابق، ولم أعد اذهب إلى العمل إلا عند الضرورة القصوى؛ فقد أصبحتُ شاردًا كالمراهق العاشق، بتُ وحيدًا بعد أن هجرتُ زوجتي وطلقتها، أسكن مع أمي في منزلها الآن، لكنها امرأة مسنة وكما تعلم، لا تستطيع أن توفِّر لي أبسط أنواع الراحة لرجل مثلي.. (بدأ يبكي بصوتٍ عالٍ ومستمر كأنه يصهل) لقد فشلتُ في كل شيء، لم أعد أنفع لأي عمل أقوم به، أنا؛ أنا الآن نادم كثيرًا لما اقترفت من إثم بحق زوجتي ونفسي.. أرجوك قدِّم لي النصيحة كما عودتني، ولا تتركني لوحدي أصارع الوهم، أرجوك، أعدك بأنني سأنفذ كل ما تطلب مني بحذافيره، دونَ تردد، أنتَ تأمر وأنا أطيع.

وأردفَ:

- لم أعد أفكر بالأطفال، بل لا أريد أن يكون في حياتي بعد اليوم أطفال، لا أريد!.

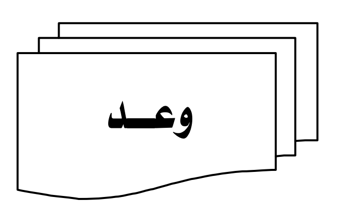
قلتُ له والحزن يملأ قلبي:

- هوِّن عليك يا صديقي، ولا تفكِّر بهذا الشكل القاتم بلون اللَّيل، انسَ ما فعلته في الأمس، وانظر إلى اليوم، فهو الآن بين يديك، قدِّم لطليقتك دعوة عشاء، وصارحها بصدق مشاعرك وما تضمره من حب كبير نحوها، قل لها بأنك رفضت الارتباط بامرأة أخرى لأنك تعشقها، وقد كنت غارقًا في الوهم، وقد قتلت نفسك قبلَ أن تؤذيها، وأنَ ولعك بالأطفال هو الدافع وليس شيءٌ آخر... عدها بأنك قد ألغيت فكرةَ الأطفال من عقلك نهائيًا دونَ رجعة، وأنك ستعيش لأجلها فقط.. عندها ستوافقك الرأي، وأنا متأكد مما أقول، فهي طوال فترة الانفصال لم تفكِّر بالهجرة إلى أهلها المقيمين في أستراليا على أمل لقائك مرة أخرى، لقد كانتْ أذكى منك بكثير يا صديقي، لقد انتظرتك بصمت وصبر دونَ أن تبحث عن رجل آخر كما فعلت أنت، يتوجب عليك أن تعوضها الآن وغدًا عن كل آلامها التي سببتها لها بلا رحمة، لقد كنتَ أنانيًا معها، خذ يدها وقبِّلها واطلب منها السماح... وعندها سوفَ لن تحتاج بعد اليوم إلى نصيحتي.

ضحك بصوتٍ رنان وكأنه مطرب، وقال صارخًا:

- تحيا الصداقة، سأتصلُ بها الآن، سوفَ لن أنسى فضلك هذا ما حييت.

اتصلَ بي يومًا بعدَ ستة شهور، متذمرًا وقلقًا وفي حالة متذبذبة بينَ البكاء والضحك كالمجنون وقال:
- صديقي العزيز لقد رجعنا إلى العيش معًا من جديد، ولم ينقصنا شيء أبدًا، وقد اشترينا منزلاً جميلاً قبلَ فترة وجيزة، بحديقة يفوح منها عطر الزهور ليلاً، لكنه واسع جدًا ويحوي على غرف كثيرة، لكنها فارغة، تدور في رأسي الأفكار الشريرة عندما أشعر بالوحدة القاسية والوحشة الكبيرة والسكون الرهيب وكأنني في قبر... عزيزي ماذا أقول لك، ففي حديقتنا نافورة كبيرة تشرب منها العصافير كل يوم، انظر لها فتنمو حسرة في داخلي تكاد تنفجر، خاصة بعد أن رأيتُ أمس ثلاثة أطفال يلعبون في الساحة التي تقابل منزلنا، فضعفت وشعرت بالحنين لأن أكون أبًّا، أنا أعلم بأنه شيءٌ مخجل ما أقوله... ولكن ما رأيك أنت؟!.



لقد كانتْ "حنين" ابنة السابعة عشر حلم حياته، تلكَ الفتاة الجميلة، الذكية، الرائعة، ذات العيون الواسعة التي لها لون العسل، وشعرها الحريري الناعم الذي يحاكي كتفها ويلاطفه باستمرار.

تعرفَ عليها حميد بحكم الواقع وليس الصدفة (كما يحدث غالبًا في الروايات الرومانسية) لقد كانتْ حنين بنت الجيران، وقد جمعت بينهم الألفة ثمَ الحب الجارف الذي يقتل صاحبه! وفي مساء كان القمر يسبح في سماء اللَّيل، قدمَ لها سلسة كتذكار وودعها بالدموع بعدَ أن طمأنها بعودته أو بأن تلتحق به حينَ يكون الوقت مناسبًا؛ ثمَ هاجرَ خارج العراق

بددَ كل تلكَ الأحلام بعدَ أن حاولَ في بداية غربته اغتيال ذكرياته التي كانتْ تؤرقه وتعذبه، لبعده عن حبيبته التي ظلت خلفَ أسوار الوطن بانتظار الأمل فلم تفلح كل محاولاته لنسيانها، بل زادهُ الشوق والحنين إلى إشعال نار الحب ليحترق بسعيرها كل يوم ألف مرة، في حين نظراته كانتْ ثابتة صوب الوطن فيردد صارخًا كالمصعوق: يا ملاكي، يا روحي التي فصلتها عن جسدي مرغمًا، إني أتحرقُ لوعةً لرويتك يا أملي في الحياة ومن أجلها أعيش

وأتحمل، فتطفر الدموع من عينيه دونَ إرادة، لينام ويصبح وهو يتلوى ويتضرع على أمل لقاءها مجددًا

تغيرت ظروف العراق بسرعة مدهشة، ولكن من سيء إلى أسوأ! فبدأت التفرقة الطائفية تنتشر بينَ ابناء الوطن الواحد كالوباء! وصارَ القتل على الهوية شيئًا مُباحًا، بل من لا يفعل ذلك فهو خائن! وتناثرت الأفكار الجميلة كالغبار معَ الرياح؛ وتراجعت الثقافة إلى حدود الكساد، فتغيرت أبجدية الفنون وأصبحت رمزًا للكفر والإلحاد! والفنان لقمة للنسور والمؤذن هو القائد!

مضت عشرة أعوام وجسم الوطن ينزف، وعقله خاوي بلا فكر أو عقيدة أو اتجاه كالتائه! في حين انتشرت الكلاب الضالة، الجائعة، في الطرقات تصطاد كل من يقع تحتَ بصرها الجشع؛ وفي أثناء هذهِ الظروف الغريبة، استطاعت حنين أن تكمل دراستها الجامعية، لتتخرج صحفية، تعمل في صحيفة نادرة كالشرف في تلكَ الأوقات؛ لتقدم كل ما هو مفيد وحريص وملهم، لتدافع عن كرامة الإنسان العراقي التي فضت بكارته في وضح النهار وعلى مرأى من أنظار العالم أجمع لذلكَ كثرت الكلاب التي تحاول أن تصطادها، لكنَ عزيمتها وإيمانها بقضيتها وبالرب كانتْ كخط مستقيم بلا حدود كالمطلق، وظلت كذلك لعهدها حافظة ووفية، تنظر إلى المرآة وتقول: ما زال هناك أمل، سيرجع لا محالة، لقد وعدني بذلك فتبكي وهي صامتة، وقلبها يدقُ بعنف وقلق.

في إحدى جلسات حميد السرية معَ بعض من أعضاء الحركة التي انتمى إليها منذُ مدة، قرروا إرساله في مهمة خاصة إلى العراق

رجعَ وعيونه حمراء كعيون الشيطان! والشر يملئ قلبه، بعدَ أن كان عامرًا بالصفاء والحب، فكرةُ مشوه ونظرته إلى الحياة تغيرت، بحيث أصبحت لا تتعدى الموت من أجل القضية التي أقتنعَ بها والتي سترسله إلى جنات الخلد! يتكلم معَ نفسه ويهذي كالمصاب بالحمى: هؤلاء الكفرة يجب أن أستأصلهم من جذورهم، لقد حكمت شريعتنا بذلك وما على سوفَ التنفيذ، ليخطفهم الشيطان، لتحرقهم نار جهنم، ويدمدم كالذي أصابه الهوس، كفرة ملحدون، سأجلدهم وأقطع أطرافهم، ثمَ يستنكر ويتوعد وكأنه القاضي والجلاد في آنٍ واحد.

حملَ مسدسهُ العامر، وترجلَ من السيارة، بعدَ أن دقق في العنوان، وعرفَ بأنه أمام الهدف! فتحَ الباب، وإذا بعائلة آمنة، ليس لها أمل في الحياة، سوى الحياة نفسها، ولكن قرارهم كان واضحًا:

إخماد صوت الحق التي تنطق به حنين ضد الظلم والاستبداد والقهر نظرَ إلى حنين ولم يعرفها، بعدَ أن سيطر الشر على عقله، وغوى الشيطان قلبه، فتحركَ في داخله شعور القتل واقتراف الجريمة، رفعَ مسدسه كالسيف صارخًا: كفرة، فاسقون، زنادقة وأطلق النار على ضحيته وهو ينظر لها ببرود خارق عن العادة؛ لتسقط حنين وهي مضرجة بدمائها على الأرض، وبحركة غير مقصودة قطعت

السلسة التي أهداها حميد لها قبلَ سفره، وكأنها تحاول إبعاد الأفعى التي كانتْ قد التفت على رقبتها

سقطت نظراته عليها، فعرفها، رجعَ إلى الوراء باهتًا، شاحبًا بلا حراك، بعدَ أن صعقَ من المفاجأة فقد قتلَ حبيبته بيده وها هي ملقاة أمامه على الأرض بدمائها كالشاة المذبوح! لكنه في تلكَ اللحظة الحاسمة لم يفكر طويلاً باتخاذ القرار، رفعَ مسدسه نحوَ رأسه وأطلق على نفسه رصاصة الرحمة، بعدَ أن صرخَ بأعلى صوته كالذي يراد دفنه حيًا، فقال: لقد وعدتكِ يا حبيبتي أن أرجع، وها أنا ساذهب معكِ يا ملاكي دونَ سفرٍ جديد أو رجعة!.



جنَّ اللَّيل... وهل هناك أسمى وأروع من عدل الظلام وهو يطبق على الأرض وما تحمل على صدرها؟ ليحوِّلها إلى جسد واحد دونَ تفرقة وبلا امتياز أو شارة!.. لن تتعرف تحت جنح الظلام الدامس على الغرور أو التكبر، ولا على الفقير والغني، ولا على العاقل والمجنون.. فتتساوى حظوظ الناس، ليصبح الجميع عبيد الله فقط؛ بعدَ أن تصطبغ الأشياء بلونٍ واحد، وليس هناك جبروت أو قوة على الأرض تستطيع زحزحته من مكانه إلا واجده.

ينظر ضابط الحراسات "النقيب لطفي" بعيون جاحظة مثل بوم عجوز، في تلك اللَّيلة إلى شاشة التلفاز الصغيرة، وإذا به يصعق من المفاجأة.. المنظر مؤلم ومروع، شيء لا يصدقه العقل؛ خارق كالمعجزة، يُنقلُ حيًّا على الهواء... بهتَ كالصنم بعدَ أن توسط غرفته بلا حراك، ترتجف أطرافه من الانفعال، وهو يغمغم:

ـ نقودي، عشرة آلاف دولار خضراء بلون الشجر.

ثمَ زمجر بصوت قوي كصوت البوق:

ـ لتأخذني العفاريت.. لقد فقدتُ ثروتي، وإلى الأبد.

لم ينتصف اللَّيل بعد حتى علت موجة من الصرخات التي شقت الآفاق وفضَّت بكارة صمت اللَّيل وسكونه؛ ثمَ أطبق الهدوء مجددًا وكان شيئًا لم يكن!.. بعدها عادت الطلاقات التي تنبئ بقرب الولادة، فلم تجد سوسن بُدًّا من الاتصال بزوجها الذي وقعت عليه اللَّيلة نوبة الحراسة في معسكر الرشيد الذي يؤدي فيه خدمة العلم.

- ألو... أرجوكم أنا زوجة الجندي المكلف "سعيد فاضل"، إني في حالة يرثى لها صدقوني بينَ الحياة والموت، سألدُّ وأنا وحيدة هنا.

ثمَ بدأت زفراتها تعلو لتنتحب وتشهق في بكاء موجع كزئير الرياح دونَ إرادة وهي تتلعثم بالكلمات، واستطردت بتأثر وهي ترتعش:

- أتوسل إليكم، إنها الولادة الأولى بعدَ طول انتظار، أودُّ أن أخبر زوجي فقط إنني بحاجة ماسة إليه.. أرجوكم.

ثمَ غرقت في موجة صراخ وهي تستغيث، ومن يراها في تلك اللحظة سيقول إنها ستموت أبدًا؛ شاءت أم أبت.

- نعم، أنا سعيد، ما الذي يحصل؟...

ولم تجعله يسترسل في أسئلته، فقاطعته بحدة وهي تجهش في بكاء وعويل حاد يقطع أوصال قلب عدوها وطلبت منه الإسراع بالحضور لعله ينقذها أو ينقذ الجنين في أسوأ الأحوال (حسب تصورها)...

وانقطع الخط.. فبقيت تجابه مصيرها وهي على حافة الموت الأكيد تتصارع معَ آلامها وحيدة، وكأن الجميع في تواطؤ معَ القدر!.

لم يكذِّب سعيد خبرًا.. تركَ سماعة الهاتف تهوي على الأرض كالحجر دونَ وعي، واندفعَ راكضًا كعادته، في سباق معَ الزمن! ليطرق باب غرفة ضابط الحراسات بقبضة يده بقوة، فكادت تتحطم تحت وطأة طرقاته التي تشبه ضربات مطرقة حداد.

وقفَ الضابط لطفي منتصبًا ورأسه يهتز وجسمه يتمايل مثل أفعى ترقص، مرتبكًا وغاضبًا والشرر يتطاير من عينية الجاحظتين اللتين لا لونَ مميز لها شبيه بعيون قطة دنمركية مهجنة؛ وهو يزمجر كحيوان مثخن بالجراح، ويكيل الشتائم بكل وقاحة وكأن مسًّا من الجنون قد أصابه:

- ما وراءك يا ابن الـ...؟! كيفَ تجرؤ على اقتحام غرفتي هذه كالبربري!..

ثمَ استطردَ باستهتار واضح وبحنق يكاد يحرقه:

- هل نسيت نفسك يا عسكري؟! ستأخذ عقابك صارمًا على فعلتك هذه.. أعدك بذلك.

- أنا أعتذر يا سيدي على دخولي غرفتكم بهذه الطريقة الهمجية، ولكن لي أسبابي... أجابه سعيد وهو يتلوى من القلق وكأنه يجاهر بمقت الإثم... وأشرع:

- زوجتي تلد وهي وحيدة...

ثمَ تعثر بالكلام... صمتَ برهة، ثمَ قالَ باستكانة:

- قدِّر ظرفي يا سيدي فنحن ننتظر هذا المولود منذ خمس سنوات وهي...

قاطعه النقيب بحدّة خادعة:

ـ أنا أعلم بأنك يا سعيد رجلٌ غني ومتمكن، وتعمل صائغًا للمصوغات الذهبية وتمتلك أفضل المتاجر في قلب بغداد...

ثمَ أردفَ بخبث الحاسد:

ـ إذا قدرت ظروفك، منْ يقدر ظروفنا نحن، الذين يعيشون من رواتبهم فقط؟!

ـ لكَ ما تأمرني به يا سيدي!.

ـ عشرة الآلف دولار! والآن... (قالها وكأنه يحاول مساومته).

ـ نعم، لكم ما تريدون، ولكن من أين لي بالمال الآن؟! فأنا هنا أؤدي واجبي كما تعلمون يا سيدي.

لم يصدِّق نفسه وكأنه يحلم؛ كشَّرَ وقطب حاجبيه وهو يبتسم وكأنه ينوي أن ينسى شروره ودمدم:

ـ إذن اكتب لي ورقة على أنك استدنت مني هذا المبلغ لحاجتك الماسة له...

ثمَ أشارَ وهو يودعه:

ـ يمكنك الذهاب وإلى الشيطان.

كان سعيد شابًّا غير متعلم، أقصد ترك الدراسة وهو ما زال في السنة الخامسة من الابتدائية، عندها توجه إلى العمل عند أحد الصاغة، تعلم المهنة التي أحبها جدًا، بمهارة وبسرعة فائقة. ثمَ لعب الدينار في يده وأصبحَ من الأغنياء الذين يُحسدون؛ لم يتجاوز الثلاثين من عمره. مكتنز اللحم، له شارب عريض قروي، لعينيه سحرٌ عجيب، لهما لون العسل المصفي، شهم، عنيد في الحق

كزنجي؛ لا يهاب أحدًا كالدب، ويحب الجميع وكأن الناس؛ كل الناس؛ أهله.

لم يستطع قيادة سيارته في تلك اللحظات الحاسمة الصعبة، خانته شجاعته، وطغى القلق عليه وشعرَ بالارتباك يطوقه كالمرض؛ فالضغط النفسي الذي تعرض له كادَ يودي بحياته، لذلك اتفق مع إحسان - عسكري صديق له، يقطن إحدى مُدن الجنوب العراقي، يبيت في المعسكر لبُعد سكن إقامته- بأن يأتي معه لقيادة السيارة، وافق الأخير عن طيب خاطر دونَ تردد... وانطلقا بسرعة كالريح.

انتصف اللَّيل، نامَ الجميع، حتى الطرقات والمحال التجارية، وكل شيء كان هادئًا في تلك اللَّيلة... الأجواء الربيعية الرائعة، كانتْ قد هلت على بغداد كالعيد؛ ساكنة، وادعة وخجولة. القمر يرسل على المدينة أضواء وأشعة ساحرة خلابة كشلالات من الفضة؛ لم يكن ما يزعج الهدوء وصمت اللَّيل سوى صرخات سوسن التي باتت تعلن عنها كل خمسة دقائق؛ وهي منهارة وكأنها ستفارق الحياة.

سهرَ الضابط لطفي بقلبٍ صافٍ وبذهنٍ متفتحٍ وبخيالاتٍ نرجسية رائعة وهو يضغط على الورقة التي انتزعها من سعيد بدهاء وكأنه يمسك قلبه؛ انتشرت الطمأنينة في كل خلايا جسمه وسرت في دمه، وخمَّنَ بأنه سيعيشُ هكذا دهرًا.. ثمَ دارت الأفكار في عقله كما تدور كؤوس الخمرِ في الرأس، وقالَ مخاطبًا نفسه بفرح غامر وبغبطة عامرة تملؤها المسرات بشكل عجيب: ماذا تنوي أن تفعل بهذا المبلغ يا صاح؟!... وشرعَ بتفاؤل: إنه رقم خرافي، لم أتوقع بأن

سعيد يحب زوجته لهذه الدرجة التي تجعل منه يقبل عرضي دونَ مساومة (وهو يرفع الورقة عاليًا ويقبلها وكأنها ابنته الصغيرة)... ثمَ يقهقه باستهتار: هه هه هه، ويقول: يا له من مجنون... ثم علت ضحكاته التي تشبه صرير عجلات قطار يمر سريعًا؛ يدور حول نفسه حاله حال السكران وهو يغنِّي: صاحبنا ليس مجنونًا فحسب، بل مجنون ليلى، ها ها ها...

ثمَ يلفت انتباهه الخبر المعروض على شاشة التلفاز الذي ينقل حيًا على الهواء ينظر إلى الشاشة بعيون جاحظة كعيون بوم عجوز!... وإذا به يصعق من المفاجأة.. المنظر مؤلم ومروع، شيء لا يصدقه العقل؛ خارق كالمعجزة... بهتَ كالصنم بعدَ أن توسط غرفته بلا حراك، ترتجف أطرافه من الانفعال، وهو يغمغم:

ـ نقودي، عشرة آلاف دولار خضراء بلون الشجر.

ثمَ زمجر بصوت قوي كصوت البوق:

ـ لتأخذني العفاريت.. لقد فقدتُ ثروتي، وإلى الأبد.



الطريق

شقَّتْ السيارة طريقها بسرعة جنونية، وكأنها غزال هارب؛ لم يفكِّر في حينها "سنان" ابن الخمسة والعشرين عامًا، إلا في أخيه عامر الذي كان يعاني من الآلام المبرحة في البطن؛ وكأنه يعاني تسممًا، والغائص في المقعد الخلفي، وقد لفَّ ببطانية ليبدو كأنه صرة ملابس.. يئن بصوتٍ حادٍ أو شيء كالعواء، ويحث أخيه على السرعة كي يصل به إلى المستشفى العسكري التي ينتسب إليها.

تمضي السيارة مسرعة كالريح، وسط طريق عارٍ، بلا مارة؛ أظلم وكئيب وكأنه مسرح لكابوس؛ لا أحد يعنيه في ذلك الوقت الحالك الظلام من أمر سنان وعواء أخيه شيء، فالجميع نائمون كالموتى؛ إلا من فوانيس الطريق الخافتة التي تعبِّر عن تعبها وإرهاقها هي الأخرى وتشعُّ حزنًا أكثر من أن يكون نورًا، لِم لا وهي واقفة كأنها تماثيل في طريق حزين، كأعمدة مشانق.

فجأة أضاء الطريق بغتة، نورٌ ساطعٌ، كالنار الملتهبة؛ وتقربَ الضوء الصارخ من سيارتهما وكأنهما في حلم، تسمّرَ سنان في مكانه وكأنه لدغ للتو من ثعبان، فلم يرَ إلا الضوء الذي يعمي البصر كضوء الشمس، وهو يقرأ دعاء كان قد حفظه عن أمه

عندما تشتد الشدائد!.. كرَّر الدعاء بسرعة دونَ أن يبلع ريقه، فكادَ يشرق، ثمَ أخبر أخاه (الذي ما زال يئن من تحت الغطاء) بارتباك قائلاً:

- أخي عامر، ضوء ساطع لا أستطيع التأكد من هويته يلاحقنا حينًا ويتقدمنا حينًا آخر منذ دقائق، ما رأيك هل نتوقف أم ماذا؟

صرخَ به عامر دون وعي كالمجنون:

- ماذا تقول نتوقف ؟!

ثمَ أردفَ متهالكًا:

- أرجوك قل كلامًا آخر؛ أسرع ولا تبالي، فحياتنا كلها واقفة على كف عفريت؛ ماذا سيكون أو سيحدث أكثر مما رأينا.

ثمَ أمره بحزم بعد أن تماسك، كأنه يناجي السماء:

- استمر فالآلام تقطع أوصالي كالسكاكين الحادة، أرجوك سأموت أن توقفت بلا شك.

ثمَ غمغم بانكسار وبصوت خافت، كالمخنوق:

- ماذا عساه أن يكون؟ تراه مجرد وهم لا أكثر.

ثم حثه على السير بسرعة وبدت السيارة وهي تشق الطريق بقوة كالإعصار.

في قلب اللَّيل الساكن، خُدش حياء الصمت؛ صوت إنذار يعبر عن الشؤم والمتاعب، انتشرت الأضواء بسرعة رهيبة وبألوان عدة منها الأزرق والأحمر والأبيض المصفر وصراخ الإنذار لا ينقطع، كأنه النذير أو ساعة القيامة. أجبرَ سنان على التوقف بعد أن شعر بحرج الموقف وهوله (إنه لا يحتمل أن يكون وهمًا كما أراد أخوه

أن يفسره)... وما أن توقف سنان حتى فُتح باب السيارة عليه دونَ استئذان! وصوت مجلجل كالهدير يقول آمرًا:
- ترجل من السيارة حالاً وأبق محافظًا على هدوئك، كي تبقى على قيد الحياة! وارفع يديك إلى الأعلى وانتظر إشارتنا.

في هذه اللحظة الشاردة تجمدت الروح في جسد عامر عندَ سماعه تلك الأصوات الهادرة كالرعد، فظلَّ دونَ حراك بعد أن فقد السيطرة على النطق وحتى من الأنين! فباتَ ساكنًا كالحجر؛ بينما علت أصوات البوليس اللَّيلي عاليةً في الهواء وهي تستجوب سنان بكل قسوة، كأنه مجرم؛ متسائلين:
- أجب ولا تفكر باختلاق الأعذار، فنحن نعرفك جيدًا، لقد كنا نبحث عنك منذُ أسبوعين! لقد أتعبتنا يا حقير.
ثمَ هوت صفعة جلجلت الآفاق وشقت هدوء اللَّيل، كضربة مطرقة، على وجه سنان وهو ساهم وصامت كالصنم لا يجيب!

بعدَ لحظات قليلة (بانت له طويلة كالدهر) وعى على نفسه كأن وحيًّا نزلَ عليه والذاكرة عادت له من جديد فدمدم مرتجفًا من الخوف وهول الموقف الذي صادفه هكذا دون موعد، كالقضاء والقدر، فأردفَ متهالكًا:
- أرجوكم اتركونا نتابع سيرنا إلى المستشفى، فأخي عامر مريض جدًا ويعاني من آلام مبرحة، قاتلة في بطنه، وإن لم نصل إلى المستشفى في الوقت المناسب قد يفارق الحياة...

فقاطعة ضابط الشرطة صارخًا كأنه لدغ من عقرب:

- ما هذا الذي تحمله في المقعد الخلفي؟ وهو يطالب زميله بالابتعاد، بعد أن سحبوا سنان معهم مبتعدين عن السيارة وهو يطلق صوتًا كعواء الذئب ويقول: ستنفجر السيارة حتمًا؛ ثم طلب من زميله آمرًا بالاتصال بالدورية القريبة منهم لأجل المساعدة.

بهتَ سنان وهو ينظر نحو أخيه الغائص تحت الغطاء لا يتحرك... ثمَ علا صوته فجأة وهو يبكي بتذمر ويقول:

- يمكن لكم التأكد بأنفسكم، إنه أخي المريض ولا أحد غيره في السيارة...

ثمَ تشجعَ صوته واكتسى بقوة عجيبة وكأن الحالة ألهمته الشجاعة، فهتف بحزم وكأنه في تظاهرة:

- يمكن لكم أن تسعفوه أو أن تطلبوا له سيارة إسعاف..

ثمَ أردفَ بتواضع غريب:

- ومن ثمَّ هو جندي، أي ينتسب إلى قوات الجيش العراقي، ولن يعالج إلا في المستشفى العسكري وأنتم تعلمون...

عندها تغيرت لهجته فجأة وأصبحت متوسلة وبدا كأنه شحاذ؛ وهو يدمدم بانكسار وتخاذل:

- أرجوكم، أتوسل إليكم، أحلفكم بالله أن تقدروا موقفنا ولا داعي لهدر الوقت هكذا في أوهام لا وجود لها.

صكَّ الضابط على قبضة يده وهوى بها على رأس سنان وهو يصرخ بهوس، كالمخمور:

- ستقتلنا يا مجرم، انتظر في مكانك حتى تأتينا قوة مساعدة.

بينما ظلَ سنان يتابع نظرات الضابط الزائغة وصوته الأبح بغيظ مكتوم.. استمرَ الضابط يتحدث بعنف وكأنه في معركة؛ وهو يقول: أنا أعلم بأنَ هذه اللَّيلة سوفَ لن تنتهي إلا بموت أحدنا أو جميعًا... ثمَ بصقَ بقوة وبتقزز في وجه سنان كأنما يتقيأ، دون خجل: تفوه.. في حين كان يهز بدنه وكأنه يرتجف من البرد.

وصلت سيارة بوليس أخرى وترجَّلَ منها أربعة رجال، قُساة المنظر كطبيعة الصخر، هائلين لطولهم وضخامتهم، كالعمَّالقة، نظراتهم غريبة تبعث الرعشة والرعب في قلب كل من يراهم وتنذر بالشقاء، يرفعون أسلحتهم عاليًا في الهواء، وكأنها بيارق؛ ثمَ علا صوت أحدهم، له أنف كبير كأذن حمار، ووجه مغلق كالسر؛ وهو يدمدم بنبرة لا تخلو من سخرية وثقة عالية في النفس، كمن يدارى هزيمته بضحكة زائفة:

- فتشوا السيارة بحذر شديد والله سيكون معكم يا أبطال.

ثمَ أردفَ بعنجهية متعالية:

- هذا أمر... (وهو ينظر إلى سنان، نظرة متحرشة، متحدية هربَ لها قلبه).

توجّه رجال البوليس بأمر آمرهم إلى السيارة وهم مترددون والخوف يأكل وجوههم الغليظة، وكأنهم أمام لغم أو قنبلة موقوتة؛ فتحَ أحدهم صندوق السيارة بتردد ورهبة، كأنه يحاول فتح صندوق مدفون في كهفٍ لقرون، وهو يكاد يموت بالسكتة، فلم يجد شيئًا، مما جعله يتشجع قليلاً لتكملة الحملة التفتيشية.. توجه نحو المقعد الخلفي الذي كان عامر يرقد فيه مغطى، ليبدو منحنيًا كترس

السلحفاة؛ رفع الغطاء بكل حذر وهو يصيح: ابق دونَ حركة فالمكان كله محاصر!... وإذا به يفاجأ بجسم آدمي مكور وجامد كالثلج، وضعَ يده الخشنة التي تبدو كيد تمساح، على رقبة عامر لجس نبضه فوجده كقطعة خشب، بلا نبض، فلقد فاضت روحه.. وها هو جثه هامدة لا روح فيها ولا حياة.

رجعَ مسرعًا إلى آمره وهو يدمدم كالمعتوه بكلمات تبدو غير مفهومة:

- سيدي.. هناك.. أقصد.. رجل ميت.

ثمَ أردفَ بخبث كالحاقد، بعدَ أن دخلَ الهدوء قلبه فجأة وكان الوحي قد نزلَ عليه:

- لا نعلم لماذا يريد هذا الرجل (وهو يشير بإصبعه نحو سنان) دفن الميت بهذه الطريقة الغريبة وفي جنح الظلام، وكأنه هو القاتل!!

واستمر وكأنه محام:

- رأيي يا سيدي أن نتحقق من الموضوع بكل روية وإناء، فقد تكون هناك فعلاً جريمة قد اقترفت ونحن لا نعلم!.

هزَّ الضابط رأسه كالحصان، بارتياح وتنفس الصعداء وقالَ بهدوء، كأنه يطلب شيئًا يأكله:

- استدعوا سيارة الإسعاف لنقل الميت، وخذوا السائق معكم لاستجوابه، وحرزوا على السيارة لحين استكمال التحقيق.

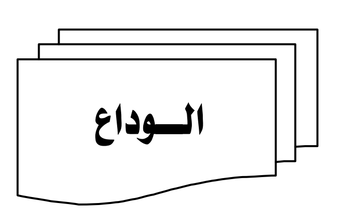
ثمَ غادرَ المكان وهو يفرك أنفه الحماري بقوة ويعطس كالرعد، كأنه شَمَّ رائحة مومياء في مقبرة فرعونية؛ وهو يتلفت كالمطارد بعدَ أن نفخَ صدره ورفعَ رأسه، كعريس في ليلة زفافه؛ ثمَ صرخَ

بقوة وعزم، مخاطبًا زملاءه وكأنه قائد فوقَ جبل، وهم في السفح لا يسمعونه: هدفنا نبيل وسام، وفي كثير من الأحيان يكون أنبل من الشرف ذاته... فقهقه بعنف، كأنه يضرب أحدًا ثمَ قالَ متابعًا، مستدركًا: آه كم جميل أن نسهر نحن، وينام المواطن وهو ينعم بالأمان والهدوء والطمأنينة...

فردَّت عليه الأصوات الخشنة من حوله كأنين المرضى:

- عندكم حق يا سيدي وما تقولونه هو الصواب

ما أن سمعَ سنان كلمات الضابط الآمرة، المغرورة، المتكبرة، المتعجرفة والغير صادقة؛ هوى راقدًا على الأرض، ساجدًا كأنما يصلي، والدموع تنزلق على خده حارة بعدَ أن شعرَ بأنَ الحزن يطوقه، كخشب التابوت، فظلَّ صامتًا بخشوع عجيب وكأنه هو الذي مات... بينما شقت سيارة البوليس الطريق مجددًا بفخر كالمنتصر تحمل في جوفها سنان، الذي لم يعد يشعر إلا بمرارة الخضوع والخذلان والقهر.. وسيارة البوليس (حُماة الشعب) تسير في الطريق؛ كي يسود الأمان والسلام حياة العراقيين وهم من أجلهم ساهرون!!.



تصدر من زوجتي "سناء" آهاتٍ مسموعة متقطعة عندَ الصباح الباكر، وحيث الشمس ما زالت خجولة في الظهور على مسرح الكون!، تلكَ الإنسانة الرقيقة ذات العيون الخضراء الجميلة والشعر الخفيف الطويل المتموج، الذي يشبه لحدٍ ما نافورة وهي ترش الماء.. بيضاء البشرة، ولها سحرٌ خاص، خارق في كسب ود الناس بسرعة ومجاملتهم بشكل لا يصدق.. تعشق الأطفال حد الجنون، بحيث يصعب على شرح ذلك الحب بالكلمات التي أعرفها.. عمرها لم يتجاوز الثالثة والأربعين، لكنَ طباعها كانتْ توحي للمرء بعد التقرب منها، بأنها ما زالت طفلة في الرابعة من العمر، وعندما تتكلم، يصدق من يسمعها لتبدو وكأنها تعتذر!.

أفزعتني أصواتها التي بدأت ترتفع، نظرتُ لها وأنا في حالة من الذهول والهلع لما يحصل، رأيتها تتوسط السرير وهي متربعة، كما يجلس التركي، تمسك رأسها براحة يديها وكأنها تلتقطه بعد أن أنفصلَ عن جسدها! لقد كان منظرها يجلب للمرء السكتة القلبية، فسألتها باستغراب:

- ما الذي حصل؟ وهل تعانين من مشكلة؟ وكيفَ يمكن لي مساعدتك؟.

لكنها تجاهلت توسلاتي كعادتها، وبدأت بالبكاء وهي تندبُ حظها العاثر وتقول بأسى:

- إنني إنسانه بائسة، وليس لدي أي حظ في الحياة ولا نصيب من السعادة التي أسمع عنها ولم أتعرف عليها...

ثمَ علا صوتها وبدأت بالنحيب وكأن شخصًا عزيزًا لها قد توفي توًا، فأردفَت:

-لا أريد أن أحيا بعد اليوم.

ثمَ قالت بصوت مرتجف متهدج وهي في حالة من الهستيريا:

- أريد ببساطة أن أنهي حياتي، أن أموت، فلا أطمحُ بالحياة بعد وبهذا الشكل، لا لا أريد...

ثمَ أجهشت في البكاء المر الذي يقطع أوصال من يسمعها بعدَ أن عادت لتكرر الكلمات التي قالتها قبلَ لحظات:

- أنا إنسانه بائسة، تعيسة، لا أفقه من الحياة سوى عذابها، وليس لدي أيّ طموح ولا حتى بصيص أمل يجعلني أعيشُ من أجله...

فقاطعتُها وتقربتُ منها، وسرَّحتُ شعرها المائي، وحاولت تهدئتها فقلت لها:

- عزيزتي ماذا تقولين؟ ما الذي أصابك؟ فأنا لم أعهد فيك هذا التشاؤم من قبل وخاصة عندَ الصباح، فنحن وكما ترين مازلنا في السرير ولم نترجل منه بعد!... هدئي من روعك أرجوكِ واشرحي لي بهدوء الموضوع، كي يتسنى لي فهمه ومساعدتك

لكنها اكتفت بأن أدارت لي ظهرها وهي تبكي وتنتحب وكأنها في مأتم عربي!... فقلتُ مترددًا كالذي يعتذر:

- سأتصل بالطبيب حالاً ما دمتِ لا تجيبينني ولا تحبين أن أساعدكِ.

قمتُ من السرير ونظري لا يفارقها، لكنها شعرتْ فجأة بالحرج ربما، فقالت وهي تصوِّب نظرها دونَ أن تطرف، إلى اللوحة الزيتية المعلقة على الجدار، الأصلية، لرسام هولندي، التي زرعت فيها الطبيعة الحانية في فصل الربيع وطفلان يتنزهان وهما متشابكا الأيدي، وقالت وهي ما زالت تنظر إلى اللوحة، وبصوت غير مسموع تقريبًا:

- لا داعي.

ثمَ صمتت... لكنَ بكاءها لم يصمت!.

- أستغفر الله... قلتُ متذمرًا قليلاً.. ماذا عليَّ إذن أن أفعل؟.

قالت متسرعة كالشخص الذي لا يخشى شيئًا أو حتى لا يهاب الانتحار:

- لا شيء، لا تفعل شيئًا...

وأعقبتْ:

- اتركني أرجوك، فما أعانيه قد لا تقدرهُ حتى لو فهمته، اتركني، أتوسل إليك.

ثمَ أجهشت في البكاء مجددًا لكنَ القلق بات يؤكلني، فقلتُ لها برقة لم أتعودها:

- زوجتي الحبيبة، ما عليك فقط هو أن تثقي فيَّ وتقولي ما تعانين منه، وأنا سأتكفل بكل الأمور الأخرى.. أعدكِ بذلك.

وأردفَتُ كالواثق من نفسه:

- لا تشغلي باللكِ أبدًا، لا تحملي أي همّ، ثمَ أنا لا أطلبُ أكثر من هذا

ثمَ شرعتُ وقلت لها بلهجة متوسلة لأبدو كالشحاذ:
- بالله عليكِ هل هذا كثير؟!

تغيَّرت لهجتها وأصبحتْ عصبية المزاج فجأة، لكنها ترددت للحظات، وهي ترتجف وكأنها تعاني من الحمى فقالت:
- الموضوع لا يخصك، وصحتي جيدة، ولا أعاني من أي آلام عضوية.
ثمَ أردفَتْ بإصرار:
- ومعَ ذلك أتوسل إليك وأقول اتركني لوحدي الآن، أرجوك
وغاصت في السرير مرة أخرى لتبدو وكأنها ليست موجودة، إلا من آهاتها وزفراتها الحارة العالية!.

وبعدَ لحظات قليلة معدودة، رفعتْ رأسها وكأنها تذكرت شيئًا تريد أن تقوله، فأردفَتْ:
- ليأخذنني الشيطان، فأنا وكما قلتُ: لا أريد الحياة، بل أمقتها وأرفض الخوض في مضمارها.
ثمَ وبكل ما تملك من إباء وحزم وصرامة، وبعد أن جمعت قواها، صرخت مصرحة بكل إخلاص:
- أريد أن أقتل نفسي.
وأجهشتْ في البكاء والنحيب وهي تردد:
- لا أريد أن أعيش، هل هذا مفهوم يا رجل... وهي تنظر لي بأسى ودونَ رحمة... عندها أشارت لي بأصبعها الصغير الرفيع الجميل الذي يشبه إلى حدٍ ما ميل الساعة المنضدية التي نمتلكها في غرفة الجلوس! وقالت بطريقة آمره يملؤها الحزن:

- اجلب لي ورقة وقلمًا... ثمَ أردفَت مباشرةً: أريد أن أكتب وصية، وابننا الصغير آدم سيبقى أمانة في عنقك، وليس لدي أمنيةٌ أخرى أودُّ تحقيقها أو تسجيلها، سوى أن تربِّي ابننا على الفضيلة والأخلاق الحميدة ولا تجعله يحتاج شيئًا، أرجوك عدني بذلك، بل أقسم لي الآن وأمامي، بأنك ستنفذ وصيتي هذه بحذافيرها، هيا عدني أرجوك.

ثم بدأت تصرخ بشكل غير مألوف، مما جعلتني أفقد توازني المعهود ورصانتي وحكمتي التي يشار لها بالبنان في المواقف الحرجة والصعبة، ولم أستطع التركيز فيما يجب أن أفعله، وشجاعتي هذه المرة قد خانتني تمامًا وكما يقال: المرء يكون قويًا وأبيًا وحكيمًا عندما تكون المشكلة لا تخصه؛ وما أن يقف في المواجهة والموضوع يتعلق به شخصيًا، فسرعان ما يذوب لوعةً وحرقة... فما أغرب طبع الإنسان هذا!!

بقيتُ جامدًا كالثلج بلا حراك، وانظر لها وقلبي يدق بقوة ليبدو وكأنه يود أن ينفجر، أو أن يخرج من مكانه...

في هذه اللحظة بالذات رنَّ جرس الباب بصورة متواصلة وكأنه صوت إنذار لسيارة إطفاء، مما زادَ موقفي تعقيدًا وارتباكًا وحرجًا. هرعتُ لفتح الباب، وإذا بابني آدم يدخلُ عائدًا بعدَ أن غادرَ المنزل قبلَ عشرين دقيقة تقريبًا متوجهًا إلى مدرسته، وقلت له متسائلاً باستغراب شديد، وملامح الحيرة وشعور من الغضب والرجاء رسمتُ على وجهي المتعب الناعس والذي لم أغسله بعد:

- ما الذي جعلكَ ترجع مجددًا يا آدم؟ هل هناك مشكلة؟

تركني كالتمثال واقفًا عندَ الباب ولم يرد على أسئلتي، ليتوجه راكضًا، مسرعًا إلى أمه التي ما زالت في السرير وعيناها تذرفان الدموع الغزيرة بكل سخاء وهو يقول لها مبتسمًا:

- ماما، معذرةً، لقد نسيتُ أن أقولَ لكِ معَ السلامة وأنا أغادر إلى المدرسة، لقد كنتُ في عجلة من أمري ولكني...

ولم تنتظر زوجتي أن يكمل آدم كلامه، لتخطفه من الأرض بحركة مذهلة، مدهشة، سريعة وخاطفة، بعدَ أن قفزت من على السرير كالأرنب لتضمه إلى صدرها وتقبله بحرارة وكأنها لم تره منذ سنين وهي تبتسمُ ضاحكة كالأطفال وتقول:

- لو لم ترجع الآن يا آدم لقتلتُ نفسي... بينما صدحت ضحكاتها المرحة، الفرحة في كل أركان المنزل، بعدَ أن عادت لها الحياة وبُعثَ فيها النشاط والحيوية فجأة، لتبدو وكأنها في اللحظة التي قالت أمام الشيخ الذي عقد قراننا: نعم أقبل به زوجًا.

يزرع آدم قبلة على يدها الناعمة الملساء التي تشبه سطح الزجاج وهو في الحقيقة لم يفهم كل ما كان يدور من حوله، لأنه ما زال لم يتجاوز بعد عامه التاسع!.

الروح النقية

شروق الشمس في بلد كالدنمارك شيءٌ استثنائي، كنزول وحي بأمر من السماء لكنها بزغت في ذلكَ الصباح وهي تضحك؛ فتسلقت أشعتها الصفراء المائلة للحمرة وفرشت أهدابها، فاستحلت هامات البنايات الشاهقة وأسطح المنازل بسرعة جنونية، وكأنها في سباق ودونَ رادع تمهيدًا لاقتحام كل ما يدبُ على الأرض؛ في حين كان "إياد" الذي كان يعمل كالثور في الساقية دونَ ملل أو جدل؛ له قلب الطفل ووجه العذراء مريم، ونقاء نفس تشعُّ على شكل رضا، وصفاء روح تجهلها ثقافة وأجيال عصرنا الحاضر، لأنها مليئة بأحاسيس من الثقة والفخر والاعتدال... تخرَّج من كلية الزراعة وفي رأسه أحلام تشبع بلدا وتبعد الجوع عن فقراء جلدته... تزوَّج عن عمر لا يساوم المرء فيه على شيء!، وعاشَ حياته حالمًا، متأملاً وراضيًا كالراهب... وها هو يغني طربًا منذ أولى ساعات الفجر بفرح غامر يجهل أسبابه وكأنه سيزف اللَّيلة؛ وهو يتوجه إلى متجره الواقع في قلب المدينة التي يقطنها منذ أكثر من عشر سنوات معَ زوجته التي ليس لها هم سوى الاعتناء به وبعملها؛ ولا تستطيع العيش بدونهما.

لم يكن أحدٌ غيره في الطريق (الذي كان يبدو كسطح بحيرة غافية بجلال ملائكي) عندَ ذلكَ الصباح، سوى المحال التجارية المغلقة والكنائس المفتوحة الأبواب، وجانبي الشارع الصامتين المستكنين والمكسوين بخضرة رائعة، بدت ندية، ونعسا وهما يستجمعان قواهما لاستقبال دفء الشمس التي تغازلهما الأخيرة كالغريزة حينَ تدغدغ جسد الإنسان بعدَ حرمان وبخيال محموم وهي تدعوه للارتماء في أحضانها دونَ مقاومة، كمن يقع أسيرا دونَ معركة!.

لقد ذاقَ إياد في بداية حياته الجحيم قبلَ أن يسمع عن الجنة، ورأى الشياطين قبلَ أن تلمسه الملائكة؛ وسط مجتمع كان يتخذ من الدين ذريعة لتكفير الناس، بغية الحصول على المغانم والسلطة والجاه والنفوذ باسم لا إله إلا الله!.. لذلك صقلت شخصيته القلقة التواقة إلى الحياة في أبسط أشكالها، وحتى هذا كان ثمنه باهظًا بقدر حياته نفسها... ويا لها من معادلة خاسرة ومرة، عندما تكون السعادة في مجتمعه أغلى من حياة الإنسان نفسه!.

لقد كان يتصرف وكأنه يريد ضمان الجنة وبلوغ سر السعادة في الحياة ولذّاتها السحرية؛ فهو يعيش كحامل الرسائل السرية الأمين الذي لا همَّ له سوى توصيل الرسائل لأصحابها بكل أمانة وإتقان؛ لكنه تناسى بأنَ الحياة محفوفة بالمخاطر وتغمرها الأوجاع، والأمل فيها أضعف من نسيج بيت العنكبوت وأرق، ومعَ ذلك كان إياد يصدِّق كل ما يقال له ويثق بالآخرين بسهولة عجيبة ويضحك ويتأمل ويعمل بجد لا ينافسه عليه سوى الحمار المطيع!.. وهو دائم الحلم والتمني، كمدمن متمرس على حب الحياة... فيا له من إنسان رائع، جبار وخارق، ويقال عنه أحيانًا: الغبي الساذج!.

وصلَ إلى متجره وقلبه يتوهج أملاً، ويبتسم لخواطره دونَ أن يدري؛ بعدَ أن اجتاحه السرور المفاجئ والإلهام دفعه واحدة؛ فاستخفه الطرب، وهو يشعر بأنه يملك في يديه الدنيا كلها، نشاطه وهمته وتفاؤله كلها أمور جعلت منه في ذلك الصباح إنسانًا يكاد ينفجر من السعادة والغبطة والحيوية التي يجهل أسبابها بشكل واضح أو صريح؛ لذلك توقع أن يكون رزقه أيضًا وافرًا وكثيرًا بما يتناسب وتفاؤله العارم الذي يغرق فيه وهو يفتح باب متجره بسرعة مندفعة غريبة.

لم تمضِ إلا ثوانٍ معدودة، حتى دخل عليه شابان متينا البنيان ووجهاهما لهما مواصفات لا جدوى من وصفها؛ فهما كالغجر في لبسهما وهيئتهما، والزنوج في شفاههما، والأبقار في عيونهما والعرب في خجلهما الظاهر والتناقض والكفر والشذوذ والأجرام في الباطن!.

رحَّبَ بهما إياد بفطرة عجيبة وسألهما عن حاجتهما (وهو يردد بفرح وغبطة في سره: لقد صدقَ حدسي، ولم يكذب ظني وها هي البشائر تهلَّ عليَّ منذ الثواني الأولى).

أحدهما قالَ بتصميمٍ ودِّي، وبنبرة مشجعة:

- نريد خاتمين من ذهب.

ثمَ تمهلَ برهة وواصل عقب الصمت الخادع القصير:

- على أن لا يقل سعرهما عن ثلاثة آلاف كرون؟! (وهو يتفحص إياد بنظرة ثاقبة ويراقب حركاته بدقة بالغة، كُدبٍّ يصطاد سمكًا).

استسلمَ إياد لحديث الزبون وآمنَ له بسرعة البرق، لم يفتح فاه بعد كي يرد ولم يتمكن من أن ينبس بكلمة واحدة ولم يكن له الوقت لكل ذلك، فالسائل الذي رشَّه أحدهما على وجه إياد بسرعة الشهب؛ جعله لا يرى معَ مصاحبته شعور بالألم القاسي الحاد وهو يتلقى ضربات متتالية لا يعلم من أين تأتي، وكأنه داخل حلبة ملاكمة... لقد أصدرا قرارهما وانتهى الأمر: القتل والسرقة!.

لم يستطع مقاومتهما أبدًا، ولم يحرِّك ساكنًا سوى تلقي الضربات وهو يتقهقر بتهالك مفضوح، مخذول وكأنه أمام قدره المحتوم الذي تسلط عليه ليسلبه روحه وماله.

سقطَ إياد على الأرض سابحًا في دمائه، يتلوى صارخًا ويستغيث بأصوات مخنوقة، خافتة كالأنين: النجدة ساعدوني أرجوكم... ثمَ يوجه كلامه للسارقين بكل غيظ: ابتعدا عني يا أولاد الكلب... وهو يتفقد بعناد وتصميم في جسمه؛ شيئًا ما، والسارقان منهمكان في ضربة وركله بكل قسوة ووحشية، كذئبين جائعين ينظران فيما حولهما ويهمس أحدهما للآخر: لا أمل له في النجاة! فالطريق ما زال غارقًا في النوم، والمحال التجارية ما زالت لم تستقبل روادها بعد... فبقي إياد تحت رحمة مجرمين ليس لهما إلا هدف واحد فقط جاءا من أجله: الخراب الشامل... وهما يتهيئان للانقضاض على ما تجده أياديهما الملوثة بالإثم ودماء إياد النقية.

لم يمهلهما الحظ إلا ثوانٍ معدودة، في حين كانتْ ألسنتهما ترطبان شفاههما طمعًا في الغنيمة؛ وهما مازالا غير مصدقين ما قاما به

من عمل متقن! فظلا غائصين كالحالمين في سعادة نرجسية لسهولة تقهقر إياد بينَ أيديهما وللفرصة الثمينة السانحة لهما في السرقة السريعة المباغتة، متوهمين بأنهما سيكونان أسعد خلق الله حالاً.

عندها دوت صفارة الإنذار، عندما نجحَ إياد بضغط زر الإنذار المعلق في عنقه دونَ أن يراه السارقان، وهو ملقى على الأرض يتلوى من الألم والصدمة.

لم يصدق السارقان ما فعله إياد وهو مضرج بدمائه، ولم يتوقعا أبدًا بأنَ لإياد زر إنذار متنقل يحمله معه أينما كان؛ لذلك كانتْ هزيمتهما مربكة وصعبة، لكنهما استطاعا الهرب رغم الموقف الجديد المفاجئ ولاذا بالفرار بعدَ أن أطلقا سيقانهما للريح سريعًا وهما يعدوان خائفين كفئران فارة من مصير الموت الحتمي؛ وهما يلعنان في سرهما اليوم الذي فكَّرا فيه بسرقة متجر إياد الغارق في العتمة والهدوء والسلام فاختفيا عن الأنظار، كما يختفي الدخان.

حافظت قطع أثاث المتجر وبضاعته على سكونها وهي مستلقية باطمئنان تام لتبقى شاهدًا أخرسًا على ما حدث...

تجمعَ الناس حولَ إياد بسرعة بعدَ سماعهم صفارة الإنذار، وحضرَ رجال البوليس والإسعاف وهم يحاولون تضميد جراحه ومحاولة استجوابه حولَ مواصفات المجرمين، لكن إياد فاجأهم بصراخه المكبوت وغير المعلن وهو يدمدم بعفوية صادقة ويصيح متوسلاً:
- أرجوكم أريد أولاً هاتفًا.. (وهو يدفع أيادي رجال الإسعاف عنه).

- أحد رجال البوليس: هاتف!... ثمَ أردفَ باستغراب حقيقي: منْ الذي ترغب الاتصال به في هذه اللحظات؟ قل لنا ونحن سنتصل به... وواصل استفساره بنفس الرنة والدهشة: هل هي زوجتك؟!

قالَ إياد وهو يئن ويتألم ويفرك عينية جراء المادة السائلة التي رشت على وجهه؛ والدماء ما زالت تسيل من فمه وأنفه بغزارة:

- أود أن أخبر صديقي الذي يسكن في ألمانيا؛ فهو أعز أصدقائي.

ثمَ استطردَ بعفوية شديدة وهو يمسح جبهته التي تعفرت بالتراب، بكُم قميصه:

- يعني أقصد أنه كظلي، حتى وأن بعدت المسافات، فهو في ضميري وقلبي.

وواصل بنفس الحماس وهو يغمغم بصوت باكٍ جراء الألم وأثر الصدمة:

- صدقوني أنه من طين مثلي! ويمتلك متجرًا لبيع الذهب والفضة أيضًا واستعجله على شراء زر الإنذار المتنقل كهذا الذي أنقذني للتو من بينَ أيادي المجرمين!.

ثمَ تشجَّعَ قليلاً بعدَ أن التقط أنفاسه الغائصة في أعمَّاقه وتابعَ باهتمام وجدية:

- هو صديقي وأنا أعلم بأنه لا يملك مثل هذا الإنذار المتطور، كما أن متجره واسع وغالبًا ما يكون لوحده وفي هذا مغامرة كبيرة.

ثمَ رجعَ إلى لهجته المتوسلة وهو يبصق على الأرض الدم المتدفق بعدَ أن امتلأ فمه به وأردفَ:

- أرجوكم أريد هاتفًا، ألا تسمعون؟!

حملقَ رجل البوليس في وجه إياد بذهول ودهشة، وكأنه لم يجرِّب الجد من قبل!.. وقال بعدَ أن استيقظ من صمته:

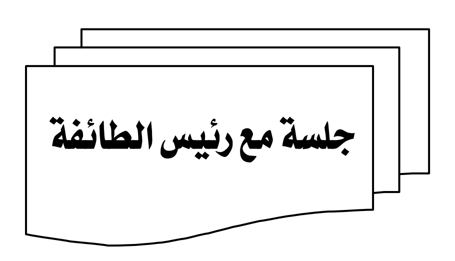
- إنه لأمر مذهل ويعز على التصديق!.

وهو ما زال ينظر إليه بإشفاق وتقدير نظرة صارخة بالرأفة والحب والسمو اهتز لها فؤاده وأضرم العطف والرحمة في قلبه لشخص إياد الذي ما زال مستلقيًا على الأرض ويتلقى العلاج من رجال الإسعاف

في حين بقي رجل البوليس ساهيًا غير مصدق، ما يرى ويسمع، وكأنه أمام ملهاة تمثل على مسرح وهو يدمدم بصوت كالهمس:

- كيفَ يمكن لرجل تعرَّضَ لصدمة عنيفة وعندَ ساعات الصباح الباكر، ويئن ويتألم والدماء تسيل منه وهو يسأل برجاء حميم عن صاحبه؟!... فظلَّ رجل البوليس يصارع حيرته واستغرابه، وكأنه يسبح في بحيرة من الهموم لا عرف فيها في ناموسهم، ولا حتى في قاموس حضارتهم البراقة الجميلة الحديثة العملاقة؛ ثمَ صرحَ في سره وبصدق لم يخالطه النفاق، وهو يداري دهشته بابتسامة لا لونَ لها ولا تعبير:

- يا لها من روح نقية، صافيه، راقية وثمينة كالماس.



وُلِدَ لـ"ضياء" في ديار الغربة ولدان، وهما اليوم في ربيع العمر؛ فمنذ سبعة عشر عامًا لم يقم بزيارة لأي دولة عربية؛ لذا فقد ظلَّ الولدان يجهلان عادات وتقاليد وأعراف الشرق العربي تمامًا، سوى أن أبويهما من أصل عراقي ليس إلا.

حطَّتْ الطائرة التي أقلتهم من مدينة روما في مطار دمشق، بعد رحلة غريبة مليئة بالصياح والعربدة وصراخ أولاد المسافرين العرب، بالإضافة إلى أكياسهم وحقائبهم وأمتعتهم التي تبعثرت على كل أركان الطائرة ولم يبق فيها من مكان لموضع قدم، ناهيك عن الذين افترشوا الأرض كالسجاد الملقى!، فسدوا الطريق على السائرين في كلا الاتجاهين، حتى قالَ ضياء في نفسه باكيًا:

ـ لعنة الله على قراري في السفر.

وصلوا في ساعة متأخرة من اللَّيل وهم في حالة من التعب والإرهاق والبؤس لا يعلم بها إلا الله!.. تلقفتهم سواعد الضباط في المطار وعيونهم تتربص بهم وكأنهم من كوكب آخر!. فتشوا بهدوء قاتل، كل ما يحملون وما تحوي حقائبهم، ثمَ سُمح لهم بدخول الأراضي السورية، لكن وبعدَ أن نقدوا لأحد الضباط ورقة مالية من فئة العشرين يورو زرقاء بلون البحر.

وما أن استقرت في أيديهم مفاتيح الغرفة وملحقاتها، حتى غرقوا في نومٍ عميقٍ كالأموات.

دخلَ عليهم أول شعاع من الشمس ومعه انفجرَ صوتٌ كالقنبلة! نهضوا مذعورين من الفزع والخوف، وعيونهم مفتوحة تطرح ألف سؤال وسؤال، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض بذهول وحيرة وقلق... ثمَ وقفَ ابن ضياء الكبير (ابن الخامسة عشر) وهو يتوسط الغرفة وصاحَ بذعر:

- ما هذا الصوت القبيح الذي تنفر منه الثعابين؟ وما هذا الغناء الغريب الذي جعلنا نصحو من نومنا كالمجانين وكأن حريقًا هائلاً قد شبَّ في الفندق؟

ثمَ هرعَ إلى سماعة الهاتف ورفعها بعصبية وقال:

- سأتصل بالبوليس حالاً.

أجابه أبوه بنبرة ناعسة بعد أن عرفَ مصدر الصوت وماهيته، فقالَ مهدئًا:

- أرجوك يا بني اترك سماعة الهاتف.

ثمَ أردفَ بثقة:

سوفَ لن يفعلوا شيئًا!... (وهو ينظر إلى ابنه الصغير الذي بدا شاحبًا وهو يزفر من الخوف كقطة مبللة ومهددة بالخطر).

ردَّ عليه عابسًا وهو يقول:

- ماذا؟.. لن يفعلوا شيئًا؟!

- نعم لن يفعلوا شيئًا.

ثمَ استطردَ بهدوء سلبي:

- عزيزي، نحن في دولة تتخذ الإسلام دينًا لها وهذه هي أعرافهم وتقاليدهم، وهم لم يأتوا بجُرم، بل ما قامَ به هذا الرجل الذي سمعت غناءه! ثمَ غلبتهُ ابتسامة قاهرة رغم أنفه لم يستطع مقاومتها فاستدركَ قوله وقال مصحِّحًا: أقصد يا بني سمعت صوته وهو يدعو الآخرين إلى الصلاة...

ثمَ شرع متأثرًا لحال ولديه وهو ينظر لهما وهما واجمان، فقال:

- اعذرا حماقتي وغبائي إذ كان عليَّ أن أخبركما من قبل؛ ما سيحدث لنا ونحن نزور الشرق!.

تنهد ابنه الصغير (ابن السادسة) وكأنه متوجع وقال بامتعاض بعدَ أن لوى شفتيه:

- وهذا يعني بأننا سوفَ لن نستطيع النوم منذ اليوم ما دمنا هنا؟!... (وهو يقطب حاجبيه الصغيرين كالخيوط).

- ستتعودان على هذا الوضع الجديد سريعًا وأنا متأكد مما أقول... (قال ذلك بفتور كي لا يخدعه إن لم تتحقق نبوءته).

بعدَ اليوم الثالث الذي قضوه بين الأهل والأحباب بعدَ طول غياب دامَ أكثر من سبعة عشر عامًا؛ طلبَ ضياء من أخيه سنان الذي يصغره بعامين أو أقل قليلاً، وقالَ برجاء تملؤه اللهفة:

- أودُّ زيارة رئيس الطائفة (ستار جبار حلو).

ثمَ أردفَ بحرارة بعدَ أن تشجع فجأة:

- لقد سمعتُ بأنه يقيم هذه الأيام في سوريا.

وتابعَ بعدَ إطراقة قصيرة، قائلاً:

- إنها فرصة قد لا تتكرر ثانيةً، فأنا أسمع عنه ولم ألتقِ به شخصيًا.

ابتسمَ أخوه كعادته وقال:

- ليكن..

ثمَ استطردَ بتفاؤل:

- سأرتِّب لكَ موعدًا للقائه حالاً.

ولم تمض إلا دقائق بعدد أصابع الكف حتى كانوا يرتقيان السُلّمَ الذي لم يكتمل بناؤه، تحته فناء شبه مظلم!.. فهَمسَ ضياء في أذن أخيه بقلق:

- هل يسكن رئيس طائفتنا هنا؟!

بهدوء ينبت فيه الأمل أجاب مقتضبًا:

- في الطابق الأول.

دخلا غرفة الجلوس، فقام الشيخ مرحبًا بهما، بهيئتهِ الرائعة، التي جعلت ضياء يشعر بالرهبة والخشوع؛ فقد كان الشيخ أنيقًا في لباسه الأبيض رغم بساطته، تعلو شفتيه ابتسامة حالمة لم يرَ مثلها من قبل تتجسد بها الطهارة والنقاء، فتجعل المرء يشعر بأنه يعشق الحياة فجأة!... ثمَ حاول الشيخ كسر طوق خجل ضياء الذي كان واضحًا عليه فقالَ بقصد:

- كلماتك قد وصلت قبلَ زيارتك.

استولى الارتباك والحرج على ضياء فهمسَ بصوت منخفض:

- ماذا تقصد يا شيخنا؟!

فردَ الشيخ الجليل بصوتٍ عذبٍ:

- لقد قرأتَ لك، مقالاتٍ وقصصًا عديدة جميلة المعاني، نبيلة الأهداف والمقاصد، قبل أن نتشرف بمعرفتك... (وهو يبتسم).

أحسَّ ضياء بأنَ الخير ملأ الأرض ولم يعد يشعر بالزمن؛ فلقد تلاشى على حين غرة، وكأنهم في كوكب لا يحكمه منطق ولا تحده حدود!...

تحاورا في كل شيء.. وخرجَ من مجلسه وهو يشعر بطاقة للحياة يستطيع من خلالها أن يعيش دهرًا دونَ ملل أو كلل... فقال وكأنه يتحدث معَ نفسه راضيًا:

- لم يخطئ من اختاره... شيءٌ خارق لا يصدقه العقل!

ثمَ أردفَ بإكبار قائلاً:

- شيخ له حكمة الفلاسفة وقوة مناظراتهم، ودفء الأب وحنانه، وحرارة مشاعر الشاعر وإحساسه، ووقار الأنبياء وصدق حدسهم.



في نهار أحد أيام نيسان المتغيرة، من حيث تقلب الأجواء بينَ الصحو والسكرِ، وفي غرفة مليئة بالذباب والصراصير، شبه مظلمة، كئيبة كالحزن بلا نوافذ كالصندوق، في الطابق الواقع تحت الأرضي، يقفُ ضابط المخابرات "وليد الأعرج" الذي له حاجبان كثيفان، وشعره قصير مجعد وخداه مكتنزان باللحم، ومن يراه يظن بأنَ في فمه حجرًا كبيرًا، وشفتاه سمينتان، وبشرته داكنة جدًا وكأنها محروقة، فيبدو كزنجي، يبصقُ بشكل آلي كعادته في وجه ولاء، وهو يصرخُ عاليًا وكأنه يريد أن يوقظ النائمين! فيقول:

- لماذا كل هذا الإصرار على الإنكار؟

يصفعهُ بقوة وهو يدمدم:

- هذه الأساليب التمويهية التي تقوم باصطناعها لن تنفعك ولن تجعل منك شخصًا بريئًا، وما عليك سوى الاعتراف بالحقيقة، وبأعصاب باردة وهادئة وأنا أقسم لكَ بشرفي المهني (بعدَ أن وضع يده اليمنى على صدره من جهة اليسار وكأنه يقسم كالجندي).

واستطرد:

- سأجعل منك شاهدًا، وستخرجُ من هنا معززًا مكرمًا، بل شخصًا آخر!.. أسوةً ببقية الضيوف الذين ساعدوا أنفسهم والعدالة.. ها ما رأيك؟

يبكي ولاء متوجعًا، وينظر له من خلال دموعه ويقول:
- إنكَ تؤلمني جدًا؛ وأنا أرفض ما توقعهُ عليّ من ضربٍ وإهانات..
ثم يعلن بشكل صارم كالقاضي بعدَ أن لوَّحَ بسبابته عاليًا:
- لنجعل المنطق هو الفيصل بيننا، وهو الذي يحكم فيما اختلفنا عليه!.
يدقُّ وليد الأرض بقدمه بقوة، وكأنه ينوي تحطيم شيء ما تحتَ قدمه، ويصرخ بصوتٍ عال كهزيم الرعد:
- إنكم جميعًا من صنفٍ واحد، جبناء، خبثاء، حقودون، ضعفاء وتعضون الأيادي التي تمد لكم...
ويصفعه بيده فيترنح رأس ولاء الثقيل وتنفر الدماء منه؛ فينكمش على نفسه كورقة الزهرة عندَ تعرضها للهب، وهو يرتعش من الخوف أكثر من الألم! فيقول مدمدمًا:
- سأعترف، سأقول كل ما أعرفه، ومن قال خلافَ ذلك؟! أعوذُ بالله، سأقرّ عليهم جميعًا، لا يهمني شيء أبدًا لا شيء، ألم تقل بأنهم جبناء وحقودون ومجرمون! إذن سأعترف لك بكل شيء، ولكن يا عزيزي... فيرتسمُ تعبير غريب على وجه ولاء كمن يعرفُ شيئًا ويخفيه، أو كمن تذكرَ شيئًا يريد قوله منذ مدة، فقال:
- ألا تعلم بأنَ الأصحاء والأقوياء أمثالك هم من فئة الناس العاديين، أقصد من سواد الناس، لا يفكرون ولا يرهقون أنفسهم أبدًا، يعني عفوًا لصراحتي أقصد كالبهائم، تراها قوية وبدينة لكنها تبقى عجماء لا تفهم ولا تفكر!. بينما أصحاب الهوس كما يقال علينا، هم من فئة المميزين، العباقرة، فالشخص منا يا عزيزي يعيش الحياة

بجنون، لا يفقهها المرء العادي مثلك!.. أنا أكلمك بصراحة قد تثير حنقك، لكنك طلبت مني أن أكون واضحًا وصريحًا، وها أنا أقول ذلك في وجهك، فأنا أحترم نفسي جيدًا وأقدر علمها، ولا أبصق على الآخرين كما يفعل البعض، لكنني أوجه كلامي لهم (وهو يشير بأصبعه نحو وليد مباشرةً) ويحاول أن يهرب بنظره كالذي يهاب ضوء الشمس ويتجنبها! ثمَ يهمس كالخجلان:

ـ أنا متعبٌ جدًا الآن، وأشعر بالجوع والعطش، أرجوك أعطني شيئًا آكله وسأعترفُ لكَ بكل ما تريده، أقسمُ لكَ بشرفي، حتى أن هناك مقولة لماركيز يقول فيها (الإنسان لا يموت متى يريد، بل يموت متى يستطيع).

ينظر له وليد بغباء، ولم يفهم شيئًا مما سمعه، فيصرخ فجأة كالذي لدغ من عقرب لتوه، فقالَ للحراس آمرًا:

ـ أعطوه سمًّا يلتهمه، ولنر ما سيقوله!!.

تمرُّ عشر دقائق سريعة تقريبًا، فيتنحنح ولاء بفرح كالأطفال الرُّضَّع بعدَ الشبع، لكنهُ يبدو عليه الاضطراب قليلاً، ثم سرت في أطرافه برودة أثلجت بدنه كله، فحاولَ الكلام محمومًا فيهتزَ جسمه كما تتراقص أشعة الشمس على صفحة الماء، ووليد ينظر له بسخرية وكأن الذي يقرفصُ أمامه لا ينتمي إلى حظيرة البشر! ثمَ تشجعَ ولاء رويدًا فقالَ باستكانة كمن يتحدث معَ نفسه، وبدأ وكأنه يهذي فقال:

ـ النجوم لا نراها إلا في اللَّيل!.

ثمَ أردفَ مباشرةً:

ـ لا، أنا غير مقتنع تمامًا بما قلته، ولكن عليك أن تعرف بأنَ الكلام الطيب الرحيم معَ الآخرين أجلّ وأكرم وأفضل من الصدقة! لا تشغل بالك بمثل هذهِ الأمور، سأقول لك شيئًا ذا بال: دلني على دار لا يئنُ فيها العراقي؟ وعندما يكون الإنسان في وطنه غريبًا فهو لاجئ في بلده!.
ثمَ بدا عليه الجدُّ فجأة وهو يبتسم:
ـ أنا أمقتكم لأنانيتكم المفرطة حتى النخاع، بل أكثر شيء أكرهه فيكم هو معدكم الممتلئة والشيطان وحده يعلم لماذا هي هكذا دائمًا شبعى!.

يضحكُ وليد كالمجنون بصوت مجلجل، ويهتز جسمه كله وكأنه يركض وهو يقول مستخفًا بما سمعه:
ـ أراك كالقرد التائه يا ولاء لا تعرف كيفَ ترجع إلى قفصك..
ثمَ يردف بصوت شبه مبحوح، متهدج:
ـ عليك أن تعلم يا صعلوك بأنَّ الصراخ والعويل بجانب الميت لن يوقظه، ولا يرجع الروح له مجددًا.
ويتغير سلوكه فجأة فيدق الطاولة التي أمامه بقبضته بقوة فتطير الأوراق ثم تهبط باستسلام ويضيف معلنًا:
ـ سأقلع لكَ عينيك، وأضع بدلاً منهما حجرين لتبدو كالهر المحنط!.
ثمَ يستزيد قائلاً:
ـ هل تعلم بأنك تثير حنقي وتتجاوز على كبريائي، وما أراك إلا حشرة بلا إرادة، ضعيف كمدمن مورفين، هيا اعترف ولا تجعلنا نقوم معك بالواجب الذي تعرفه وحسب الأصول المتبعة

يقضم ولاء أظافره بسرعة وبشكل ملفت للنظر كالحيران الذي لا يستطيع أن يقرر، فيقول باكيًا:

ـ لقد سئمتُ الجلوس هنا، أريد أن أخرج حالاً، لا شيء هنا يبعث على الهدوء والسكينة، ثم أن يدك قوية وهي توجعني، أسئلتك مبهمة وكلامك غريب.

فيتقدم منه وليد وهو يزأر كالأسد:

ـ لقد وعدتني يا وضيع بأنك ستعترف بكل شيء بعد أن تأكل وها أنت قد التهمته كالكلب الجائع، اعترف الآن وأنا كُلي آذانٌ صاغية، ولكن كن حذرًا ولا تفكر بخداعي.

ينظر ولاء له ببراءة شديدة وكأن الشرَّ قد اختفي فجأة من الأرض! ثمَ يرفع رأسه إلى السقف وكأن السقف سينزل على رأسه، فيقول مدمدمًا كصخب الريح:

ـ إنكَ مملٌّ جدًا؛ وأنا لم أرَ في حياتي شخصًا غليظًا مثلك؛ إنكَ تبدو كالوسيلة التي يستعملها المرء عندما يشعر بالضجر، فيحاول اللعب بها كي يرّفه عن نفسه!.

ثم يسترسل بالحديث بعفوية طفولية:

ـ تبدو لي بأنك عشت حياتك كلها سجينًا في حبس انفرادي وتتصرف هكذا تصرخ، تهين، تضحك بلا تردد...

ـ ماذا؟... يصرخ به فجأة وبحدة، فيقول جازمًا:

ـ ماذا تعتقدُ نفسك؟! ومن تكون؟!.

ثمَ أردفَ بعدَ أن التقطَ أنفاسه فقال:

- إن من يقرأ تقاسيم وجهك الخالية، لا يرى فيها أي تعبير آدمي! ومن يركز في النظر إليك خمس دقائق فقط، سيهجره النوم في العشرة الأعوام القادمة!.

ثمَ يشرع دونَ تردد فيقول بحزم:

- وهل رأيتَ صورتك في المرآة من قبل؟! ما هذا؛ شيءٌ فظيع، مقرف ومقزز، الله يساعد عائلتك عليك، أيّ والله.

بينما يستمع إليه وليد والشرر يتطاير من عيونه كنار من فم تنين، فيصبح للحظة كالأعمى، لا يرى ما أمامه، فيتقدم برعب هائل نحوَ ولاء، وهو يقول:

- منْ يتدخل في شؤوني الخاصة أبعث به إلى الشيطان...

فيطوقه بيدٍ واحدة، كمن يعانق شخص لا يحبه! ويقول متهالكًا:

- سأقتلك إلا تصدقني؟.

ثمَ يقرِّبُ رأسه الكبير والثقيل، كرأس زنجي من رأس ولاء وكأنه يريد توديعه فيرتطم به بقوة، فتسقط أربعة أسنان شابة من فم ولاء، فتتدفق منه الدماء، ليسقط على الأرض كخرقة مبللة بالدماء، وهو يئن ويتوجع ويدمدم، فيقول متذرعًا:

- أريد رؤية أمي حالاً، أرجوك، أو أن ترجعوني من أين أتيتم بي، فأنا لا أعلم أينَ أنا الآن!.

ثمَ تغيرت لهجته فأصبحت صارمة وفيها شيء من الجد فأردفَ:

- أنا لا أخافُ أحدًا.

فيقاطعه وليد، ليأمر الحراس بصب الماء الساخن عليه، ليأخذ ولاء دوشًا إجباريًا ساخنًا، فينسلخ جلده وهو يصرخ ويتألم وفي حالة من الهلع والخوف، ثمَ يصرخ مجدِّدًا كالذي يغرق ويطلب النجدة:

- أنا أعترض على معاملتكم اللا إنسانية معي، إنها معاملة قاسية ويرفضها القانون المدني، وحسب تجاربي السابقة وخبرتي الكبيرة كنتُ دائمًا أندِّد بالعنف وخاصة ضد العُزّل، وأنا كما ترون عاريًا كما ولدتني أمي.

ويردف جادًا:

- اسمعوا ما سأقوله: سأحملكم المسؤولية كاملة.

بينما يتقدم وليد منه وهو يصرخ كالملدوغ، أو كمن غرزت في قلبه للتو شوكة، ففاضت في الغرفة الصرخات العالية فبدت وكأنها جاءت من تحت الأرض، فيصيح:

- إذا أردت قتل الأفعى فابدأ برأسها...

ثمَ يرفعه من شعره المبلل عاليًا كمن يرفع نخبًا وهو يدمدم:

- منْ أنت يا صعلوك كي تتجرأ وتخطبُ فينا، ها؟ قل منْ تكون؟ لتأخذك مصيبة إذن.

يطأطئ ولاء رأسه بخنوع فينبحُ كالكلب:

- اترك شعري أولاً، وأنا سأقول لكَ منْ أكون، إنكَ تؤلمني يا هذا أرجوك، أتوسل إليك، اترك شعري.

فيمسكه وليد بقوة أكبر ويشده بقسوة، فيصرخ ولاء معذبا:

- أنا شخصية معروفة، عامة، والجميع كانوا يعاملونني بكل كرم وإخاء، إلا أنتم، تضربونني دونَ رحمة، إنكم قساة القلوب، تضربونني بكل حنق وحقد، لذلك أريدُ أن أخرج من هنا... ثمَ يشير بسبابته نحو وليد بالتحديد، فيقول غاضبًا: هل تفهم؟ أريد الخروج.

لم يعد الضابط وليد يطيق الصبر، فهجمَ عليه وهو في حالة من الهياج وقال:

- يا مطعون أنكَ تبدو كشخص مصاب بالطاعون...

وهو يطوق عنقه بكلتا يديه، وقد أحمَّرَ وجهه فأصبحَ بلون سرطان البحر، ويردد بحنق:

- إنكَ تجعلني كالثور الهائج، بل جعلتني أجن، سأقتلك، أنا من يقرر ما عليك أن تفعله، لقد كنت كريمًا جدًا معك، لكنك شخص سفيه، ممل وغريب الأطوار...

بينما يحاول ولاء الإفلات من قبضته الحديدية، لكنَ وليد يزيد الخناق عليه وهو كالمجنون، فيرتجف ولاء بقوة ثمَ تستسلم قواه، لينهار فيصبح وجهه أزرق شاحبًا وفي عالم العدم.

يصرخُ وليد بالحُرَّاس آمرًا:

- خذوه، أحرقوة، أدفنوه، بل أرموه للكلاب، لقد كان دونَ فائدة كما هو الآن! خسارة فيه شكله!

ويصرخُ مجددًا بكل قوة كالغراب:

- قلت أبعدوه عني.

فيُسحب ولاء إلى خارج الغرفة كما تسحب الأشياء...

وفي هذه اللحظة تُسمع أصوات عالية يرددها الضابط أحمد وهو يتقدم نحوهم بسرعة:

- توقفوا، أرجوكم، أوقفوا الاستجواب، إنه رجل بريء، وهارب من مستشفى الأمراض العقلية، وما نبحث عنه شخصٌ آخر، وها هي البرقية من الوزارة في يدي... فيلوِّح بها عاليًا كالبيرق؛ بينما

يبقى وليد جامدًا كالحجر بلا حراك، يشعر بأنَ قواه قد خارت، وساقاه لم تعودا قادرتين على حمله، فيقول مدمدمًا وبصوتٍ باكٍ:

- كم أنا غبيّ، يا لي من حمار مارق، ماذا فعلت؟ كيفَ لم يتسن لي تمييزه... فيضربُ رأسه بقبضة يده ويدقُ صدره بقوة وجسمه كله يرتجف وكأنه يقف في قارب صغير وسط البحر!... لأذهب إلى داهية، لقد قتلته للتو... ويرفع رأسه نحو زميله الضابط أحمد فيقول بصوتٍ مخذول:

- لماذا تأخرت؟ لو كنت قبل دقيقة واحدة هنا، لتغير كل شيء... فيهذي كالمجنون:

- لقد قتلته توًا، إنه الآن جثة هامدة، لكنه إنسان بريء.

يتقدم أحمد منه ويمسك ذراعه بقوة، وهو يسخر من منظره، فيقول ببرود كالشخص المخدر:

- يا صاحبي، منْ يراك هكذا مصعوقًا، سيقول بأنك قد قتلت إنسانًا للتو!، ولو شاهدك رؤساءك وأنت على هذا الحال حتمًا سيفصلونك من وظيفتك!...

ثمَ يشرع بالقول دونَ تباطؤ:

- ما هذا القلب الذي تحمله؟ لم أكن أعرف بأنك رقيق وعاطفي إلى هذه الدرجة كالعذراء! أرجوك، ماذا يعني كل هذا، ها؟! إنك كنت تقوم بواجبك، بعملك وبكل إخلاص وتفان...

ويردف مسترسلاً وكأنه يبشّر بدينٍ جديد، فيقول:

- أهم ما في الأمر هو أن ولاء كان شخصًا مجنونًا، يعني إنسان غير عاقل، حاله حال أي قطة أو كلب أو بالكثير يمكن اعتباره

قردًا! لماذا تعملها قصة إذن؟! ثمَ يضيف مستطردا: ومن يراك الآن وأنت هكذا، يقول بأنك لم تقتل غيره من قبل! أستغفر الله، يا رجل لقد قتلت قبله مئة شخص، وليكن هذا مجرد رقم جديد في حياتك المهنية العريقة، رقم ١٠١؛ ماذا يعني؟! لن يضر أحدًا، إنه كان مجرد بهيمة، هل يعقل بأن تتألم لقتله؟!.

ويفرك يدًّا بيدٍّ وكأنه يصفِّق، بينما يسمعه وليد وهو ينحني على الطاولة كمن يعاني من قصر النظر، فيردد دونَ توقف ومنظره يدل على أنه منهك كالمهان، فيقول:

- لكنه بريء، إنسان، لم يفعل شيئًا، نحن الذين أخطأنا في حضوره وبمعاملته بشكل سيء، ومن ثمَّ قتله.

يقاطعه ضابط المخابرات أحمد وبصوت بدا صلبًا، لهُ رنة الحديد، فيقول وهو يبتسم ابتسامة بلا تعبير خرقاء: اذهب يا وليد وأشرب قهوة عربية مرة، لتعود كي تباشر عملك وبكل ثقلك معَ متهم جديد، أرجوك وانس رقم ١٠١ نهائيًا ولا تشغل بالك بتوافه الأمور والأرقام أبدًا، ثمَ يردف: انظر حولك إنه لم يعد هنا، ولا أثر له يا صاحبي، لقد اختفي كما يختفي الدخان

يهدأ الضجيج ويعمُّ المكان الهدوء والسكون من جديد، لتبدو بإضاءته الباهتة الحزينة كقبر...

وبعدَ دقائق يدبُ النشاط ثانية في الغرفة تحت الأرضية، بذبابها وصراصيرها والتي يعوزها النور والهواء والنوافذ، فيستعيد وليد حيويته فيصرخ وهو يبصق بوجه المتهم الجديد، ويقول باستهتار الساقطين:

- سأقلع عينيك يا صعلوك وأركب مكانها حجرين، لتبدو مضحكًا، كالهر المحنط؛ هيا اعترف...

ويدمدم بهوس كالمصاب بالحمى:

- كلكم من صنفٍ واحد، جبناء، صعاليك، خبثاء وتعضون الأيادي التي تمتد لكم.

ثَمَ يسمع وليد طنينًا قويًا في أذنيه، فيه حزن الأنين وألمه... تزداد الأصوات قوة كضربات السندان، فتتزاحم الأصوات شيئًا فشيئًا لتردد جملة واحدة:

- دلني يا وليد على دار لا يئن فيها العراقي!.

فيضع يده على أذنيه وكأنه يريد سدها...

ولكن هيهات له أن يخنق كل الأصوات أو أن يخفيها.



الشُهرة

في مساء ربيعي رائع، كالحلم، يرنُّ جرس الهاتف معلنًا عن نفسه، وكأنهُ يريد أن يقول: أنا هنا... يذهب إليه هيثم بتباطؤ، كمن لا رغبة له، فيرفع السماعة بتخاذل، وكأنه صحا من النوم لتوه، فقال بجزع كمن يريد بعدها الاختفاء:

ـ نعم من هناك؟

ـ أنا رئيس الجمهورية (ج) يا أستاذ هيثم!.

ثمَ يشرع قائلاً دونَ تردد (وكأنه رئيس جمهورية حقًا):

ـ أتصلُ بكَ، كي أهنئكَ على القصة القصيرة الأخيرة التي كتبتها والتي كانتْ تحت عنوان (رقم ١٠١)، فهي جديرة بالمدح والثناء، على الرغم من تحفظنا لبعض مشاهد التعذيب اللا إنسانية التي صورتها في القصة، وكما لا يخفي على أحد، لقد كنت واضحًا في التعرض للأنظمة الشمولية التي حكمت العراق لفترات طويلة؛ ومعَ ذلك نجد أنك قد عالجت هذا الموقف عندما قلت في بداية القصة: إنها حدثت في منتصف الثمانينات من القرن المنصرم...

ثمَ يردف وبصوت مجلجل، كالواثق من نفسه أو كمن يحكم دولة بالفعل! فيقول ضاحكًا:

ـ أحسنت يا أستاذ هيثم، نحنُ راضون عنك، ومما تكتب كثيرًا، إنها جهود يشار لها بالبنان... وهو يضحك ها ها.ها... أستودعكَ الله.

فيغلق الخط؛ كالذي فقدَ الإحساس والشعور بالآخرين!.. ودونَ أن يعطي لهيثم فرصة كي يرد أو حتى يعقِّب على كلامه أو يشكره على الأقل.. فظلَّ جامدًا في مكانة لدقائق، وكأنه فاقد للوعي.

وبعدَ لحظات فاقَ على نفسه وهو يدمدم:

- هل حدثت المكالمة حقًا؟ أم أنها حلم ضبابي كالسراب؟ ومن ثمَّ ما معنى كل هذا؟ يسأل نفسه كالعالم: رئيس الجمهورية شخصيًا يتصل بيّ ويحمل لي التهاني، عجبًا! لا لا يمكن أن يكون هو بالفعل...

ثم يردد على سمعه نفس المعاني والكلمات وكأنها الصدى فيقول:

- من الأسهل عليَّ أن أجد دجاجة خضراء على أن أصدِّق ما يحصل!.. ثمَ من أكون أنا كي يتنازل ويعطي من وقته لشخص معزول، غير معروف، يتخذ الغربة وطنًا له ويجهله الناس كما يجهل نفسه؟! ما هذا الكابوس الجميل اللذيذ... يتحدث معَ نفسه وهو يذرع الغرفة من ركنٍ إلى ركن، وكأنه يود قياسها؛ ثمَ ينظر من خلال النافذة الوحيدة التي تمتلكها الغرفة، فشاهدَ ما هو أفظع، فسرحَ إلى حد السهو والنسيان، كمن يشاهد حريقًا هائلاً مرعبًا أمامَ منزله، هناك مجموعات كثيرة من الشباب والفتيات الذين يحملون آلات التصوير وهم يتزاحمون أمام البوابة ينظر إليهم هيثم بذهول وبعينين واسعتين، كمن ينظر إلى شخص أمامه وهو يأتي بشيء خارق أو معجزة، فتراجع إلى الوراء كالمهزوم ودقَّ الأرض بحذائه، وكأنه يرقص، وباتَ يردد كلمات لا معنى لها، كالتي يرددها المرء دائمًا دونَ شعور عندما تقع مصيبة: آه يا إلهي، ما

الذي يحدث، شيءٌ لا يصدق... يقولها حتى وأن كان لا يؤمن بها!!.. ثمَ يقيس حرارة جبينه براحة يده، ليجدها ساخنة جدًا، وكأنه تعرض للتو إلى ضربة شمس، فقال هامسًا:

- أنا في وضع لا يعلم به سوى الله!، ومن يراني هكذا سيظن حتمًا بأنني قد جننت.

ثمَ يعيد ما قاله منذ قليل: - آه يا إلهي منْ هؤلاء؟.. وماذا يريدون؟.. ولماذا يتجمعون بصخب هكذا؟!.

في هذه الأثناء رنَّ جرس الباب بقوة، فهرع لها فزعًا، خائفًا وهو يصرخ كالوثني عندما يصلي!

- منْ هناك؟

فيسمع صوتًا متذمرًا يقول:

- بريد خاص.

يجيبهُ هيثم حائرًا، مستغربًا:

- ماذا؟ وكأنه لم يسمع جيدًا: بريد خاص، وعند المساء، ماذا يعني هذا؟

- (الصوت من الخارج): يعني رسائل جاءت إليك عن طريق البريد، ومسؤوليتي وعملي وواجبي يحتم عليَّ تسليمها لكَ شخصيًا.

ثمَ يردف بتهالك: أرجوك افتح الباب وخذ رسائلك، فالزحمة هنا خانقة ولا أستطيع الوقوف هكذا مضغوطًا لمدة أطول، افتح الباب، أتوسل إليك... ويشرع قائلاً كالذي يريد أن يبتاعَ شيئًا ويتعامل حول السعر: ما هذا المساء المزدحم، إنه لا يريد أن ينتهي على سلام...

ثمَ يعود فيكرر توسلاته كالشحاذ:

- أرجوك افتح لي الباب وخذ رسائلك، بالله عليك، خذها وأغلق الباب وراءك؛ أنا لا أطلب منك أكثر من هذا...
ثمَ يشتم نفسه بحنق فيقول:
- لتهاجمني الشياطين بعد ذلك، لا يهم، ولكن خذ رسائلك أولاً، ولتلاحقني الدببة الوحشية، ولتلتهمني نار جهنم، أرجوك...
ثمَ يغيِّر من لهجته الباكية فيقول مسترسلاً بالحديث من وراء الباب:
- يعني عفوًا، لماذا تريد العزلة هكذا، وكأنكَ تعيش كالعنكبوت.

ينظر هيثم إلى الاتجاه الذي يصدر منه الصوت دونَ أن تطرف عينيه وكأنه ينظر إلى قطعة من الحلوى التي لا تشبع منها العين!..
فقالَ بصوت خافت وكأنه لا يريد أن يعرف الآخرين بقراره:
- انتظر لحظة واحدة.
يفتح هيثم الباب بحذرٍ شديدٍ وكأنه يفتح أسلاك لُغم موقوت، ليخطف الرسائل بسرعة، ويعود ويغلق الباب بوجه الصحفيين والمصورين بعدَ أن تخيل نفسه (لو استمرَ الحال هكذا) سيقاد إلى ساحة الإعدام بعدَ قليل، فقد تجمعَ المارة وعدد من الجيران، ليبدو المكان وكأنه سوق عكاظ!.

يجلسُ هيثم متهالكًا من التعب والإرهاق وكأنه رجعَ للتو بعد أن قطعَ عشرة كيلو مترات راكضًا، وهو يلهث وقلبهُ يدق سريعًا يفض الرسالة الأولى دونَ تعين بيد مرتعشة كالمريض بمرض عصبي، فيقرأ بانفعال غير معهود الكلمات الأولى:
الفنان الكبير هيثم، نحنُ من المعجبين بفنكم الراقي الذي...

ثمَ يدفع الرسالة بعيدًا وكأنها عقرب يحاول أن يلدغه! ثمَ فضَ الرسالة التالية بعدَ أن سقطت نظراته عليها دونَ قصد، والأصوات في الخارج تعلو فيقرأ:

- أنا الكاتب العربي السوري (ح. م) أحب أن أسجِّل لكم كلمة نراها...

فيمزق الرسالة إلى قطع صغيرة جدًا، وكأنه يريد بها إطعام أسماك في بحيرة، ليقف وسط الغرفة صارخًا:

- ما الذي يحصل؟ أرجوكم، قولوا لي، أجيبوني ولا تجعلوني أكلم نفسي كالمجنون.

ارتفعَ ضغطه، اختلَ توازنه، فسقطَ على الأرض وفي اللحظة التي ارتطم فيها على الأرض يجفل بقوة كالذي وُخِزَ بإبرة ليصحو على نفسه وهو يجلس خلف الطاولة وأمامه مجموعة من الأوراق البيضاء التي لم تمسها يد بعد، فتذكر ما كان عازمًا عليه قبلَ نصف ساعة، عندما أرادَ أن يكتب قصة قصيرة جديدة، فسرحَ خياله، ليوصله إلى عالم الشهرة البعيد كالنجوم، والذي لا يصله أيّ إنسان بسهولة... ينظر إلى الأوراق التي أمامه فيجدها ما زالت بعد عذراء لم يلطخها الحبر! فانحنى على الطاولة كمن يعاني من قصر النظر، فكتبَ:

- قصة قصيرة بعنوان (الشهرة): في مساءٍ ربيعيٍّ رائعٍ كالحلم، يرنُّ جرس الهاتف معلنًا عن نفسه.



▪ **تنويه :**

(لا تصدقوا كل ما هو جاد ، على أنه حقيقة لا خيال

ولا كل الهزل خداعٌ واحتيال

ولا كل من صفقَ مسرور ،

ولا كل من ذرفَ الدموع مهموم)

المؤلف

هتفَ كريم البالغ من العمر الثالثة عشر، ذو القوام النحيف، كعمود النور، في سره بغضب جامح وبحماس يداري به ارتباكه، بعدَ بان على محياه الوجوم، فتلون وجهه بلون داكن يقطرُ يأسًا كالموت عضَ شفتيه بقوة، فأدماها وهو يردد بتحدٍ:

- سألقنه درسًا لا يمكن له أن ينساه! ماذا يظن نفسه؟ سأجعله عرضه للسخرية والضحك، سيكون عبرة تُذكر في كل مناسبة.

سمعته أمه وهو يخاطب نفسه، وكأنه يهذي، فذهلت وهي تتقدم نحوه ببطء وبدقة، كالسائر في منامه! فسألته بخوف وبرهبة:

- ماذا دهاك يا بني؟

كريم يحادث نفسه وكأنه يداعبها، دونَ أن يعير أذنًا صاغية وهو يصك على قبضة يده الصغيرة بقوة، وكأنه يريد ملاكمة أحدهم، وهتفَ بجسارة:

- تقدم نحوي يا جبان هيا، ماذا؟ أراكَ مترددًا وخائفًا، كالفأر المطارد...

ثمَ علا صوته بشكل مريب وهو يصرخ كمن قطعت يده للتو:

- ها، هل خانتك شجاعتك؟ فأنا لا أسمع صوتك ولا حتى ضربات قلبك، الذي كان يرن في أذني كصوت الناقوس...

ثمَ استطردَ وهو يكافح من أجل أن يبقى متماسكًا:

- إنكَ لم تعد ترهبني منذُ الساعة، فأنا أتجاهلك كما أتجاهل قوة ذبابة! بل أكثر من ذلك؛ أبصق عليك.

وظلَّ يدمدم، كالمحموم ويقطب حاجبيه كالطفل الجائع؛ بينما بقيت نظراته الزائغة، وكأنها تبحث عن شيء ضائع، كنظرات لص وهو يسرق؛ تروم في الغرفة العارية الجدران، كبئر فارغ؛ يدور حولَ نفسه، وكأنه يلعب ويتنهد بصوت خافت كالصفير.

ارتعبت الأم قلقًا وهي تنظر إلى ابنها بعينين واسعتين، كالصقر، وهو يحاور نفسه بشكل صارخ، كالمجنون. عذَّبها منظرهُ وقطعَ أوصال قلبها، وكأنها ماتت بحياتها، فتراجعت إلى الوراء، كالمصعوقة، وهي تهمس بصوت خافت:

- اللعنة على الشيطان ماذا أصابه؟! لقد جن بكل تأكيد، وإلا ما كان يبدر منه كل ذلك!.

ثمَ دقّت صدرها بيدها وصرخت بتذمر واستياء، كالمعترضة وقالت وهي تتنهد:

- اللهم أن يكون لنا الجنة بغير حساب!.

فقد شلَّ منظر ابنها كل تفكيرها ولم تعد ترى أمامها سوى سحابة سوداء من الضعف والهوان والخوف والقصر، فتراجعت نحو الجدار، وكأنه يحميها... عندها خرجت صرخة مدوية شقت الآفاق، مجلجلة، كالرعد وصاحت بحزن لا يوصف:

- ابني قد مسَّه الشيطان!.

وفي هذه اللحظة الحاسمة، وسط الدوامة، بينَ الجنون وهو يصارع يد القدر، تقدم كريم من أمه وهو راكع على ركبتيه، وكأنه ينوي الصلاة، وكادَ صدره يمس الأرض والدموع كانتْ قد فاضت على خده، همسَ بكل وجل، وكأنه أمام الله في يوم الحساب:

- نحنُ يا أماه نصلح أن نكون ممثلين عالميين وبكل جدارة.. أليس كذلك؟!

فنهضَ الأب من مكانه وكأنه مخرج المسرحية بثبات وعزيمة بعدَ أن رنَّت من بينَ كفوفه صفقة فرح واعتزاز وهو يثني على قابلية زوجته وابنه في التمثيل، فقالَ مهنئًا، وكأنه يبارك في زواج:

- لقد اقتنعت اليوم بعمق لا يعرفه سوى البحر وهو يشير بيده نحو الأفق، وكأنه شاعر على منبر...

ثمَ استطرد بحزم:

- إنكم وكما قالَ كريم تستحقان أن تكونا ممثلين عالميين!.

بينما ظلَّت الأم باهتة، غارقة في دموعها دونَ صوت وهي تلهث بكدر، وكأنها تقمصت الشخصية التي تمثلها بجد! فعلت من وجهها نظرة عابسة، مليئة بالعناء كمن يستحضر خيالاً لا يرام أو روحًا لشيطان لا ينام.



من يراه يشك في أنه يعرف غاية الحياة، لتبقى الشكوك تلتف حوله كالأفعى، لتهتف بكلمة واحدة: إما أنه عبقري أو مجنون...

بينما يتردد صديقه سنان في الحكم عليه، فيعلن له بوضوح وهو يجلس معه في المقهى:

- أنا لستُ بنبيٍّ كي أتنبأ بما ستقوله، لكنني مستعدٌ الآن لأن أدفع الغالي الذي أملكه كي أعرف ما تريده!.

يعدل جمال من جلسته، وهو يحتسي القهوة العربية المرة، ببطء كالعجوز، وهو يدمدم دون انقطاع:

- ما أريد أن أقوله لك يا صديقي، إن السعادة التي أتمتع بها الآن تجعلني كالطائر الذي لا يريد أن يحطَّ على الأرض مرةً أخرى.

يقاطعه سنان مستفسرًا:

- لابد أن هناك سبب يجعلك متفائلاً وسعيدًا إلى هذا الحد!.

يردُ عليه مبتسمًا:

- وماذا تعتقد، هل أنا مجنون كي أكون سعيدًا بلا سبب؟! سامحك الله...

ويستمر في ثرثرته، فيرتشف القهوة سريعًا هذه المرة؛ يدفع لسانه بعيدًا عن فمه كالثعبان، وكأنه يريد أن يبصق، ليقول:

- لتنزل على رأسي الآن صاعقة إذا كنت أكذب.

ثم يردف بخفة دم:

- سأقصُ عليك حادثة، عشت تفاصيلها قبل لحظات، بل قبل أن ألقاك هنا، لكن عليك أن تعدني بأن لا تخبر أحدًا بتفاصيلها أبدًا.

- نعم، أعدك، قل ولا تخاف، فسرك سيموت في بئر عميق القاع، لا تصله يد أطلاقًا.

- لا أعلم من أينَ أبدأ... يجيبه بخبث الثعلب.. ولكني سأقصُّ عليك الحكاية على الرغم من أني لا أستطيع أن أمسك نفسي من الضحك والسعادة!.

- أراك لا تملك شيئًا تقوله، أنت تلعب معي بالكلمات أو على أعصابي التي باتت ساخنة وتكاد تحترق، قل ما عندك يا أخي واعتقني ما هذا أعوذُ بالله.

- لا تثور ولا تتهور يا صديقي، فما سأقوله، قد يجعلك تسقط على الأرض مغشيًا عليك ولا يستطيع أحد أن يسعفك، لأنك ستموت حتمًا من المفاجأة مباشرةً، وأنا أخاف عليك وأنت أعز صديق أعرفه، كما أني أحبك كثيرًا وأحترمك وأقدرك وأنت تعلم بكل هذا، ها، أخبرك بما حصل أم أصمت؟

- قلت لك، لم أعد السيطرة على أعصابي، وتوقع بأني سأجهز عليك بأسناني

- تريث يا عزيزي وأعطني فرصة لكي ألتقط أنفاسي، إلا يكفي ما رأيته قبل لحظات، ما هذا، اللعنة على الشيطان، أنك لا ترحم أحدًا أبدًا، فما تعودت من طبعك كل هذا اللؤم والجحود!.

يجيبه سنان حائرًا:

- لو كنت أعلم بأني سألقاك هكذا رائقًا، لجمدت أعصابي، كي أتحمل ما ألاقيه من ثرثرة على ما يبدو لا نهاية لها!.

- حسنًا حسنًا، سأخبرك، ولكن قل لي أولاً، ماذا تفعل أنت إذا صادفك ما صادفني اليوم؟!...ها أجبني!.

- أستغفر الله، أجيبك على ماذا؟ هل قلت شيئًا حتى أجيبك عليه... (يقول سنان ذلك صارخًا بعد أن فقد توازنه في التحدث، ضرب الطاولة التي أمامه بقبضة يده بقوة، فرقصت فناجين القهوة رعبًا).

- هدئ من روعك يا صديقي، فنحنُ في مكان عام، والجميع هنا تقريبًا يعرفوننا، ماذا سيقولون عنا؟! ها، جننا أم أننا نتشاجر في توزيع الميراث؟ اسمح لي أن أقول بأنك مندفعٌ جدًا، وصبرك يابس ويكسر بسهولة، تحلَ يا رجل بالإيمان ولا تكفر، ماذا أقول، انظر فصاحب المقهى يشاهدنا مستغربًا وتبدو علامات الحيرة واضحة على وجهه، وكأنه يسألنا ما الذي أصابنا، انظر إليه بإمعان، إنه يقول في سره، بأننا لم نترب جيدًا، بل فقدنا رشدنا المعهود وأصابنا الخبل! أرجوك كن متزنًا، هادئًا ووديعًا، لاحظ يا عزيزي بأن من يراك في هذه اللحظة سيقول بأن هذا الرجل سوف لن يعيشَ طويلاً؛ انصت لما سأقوله لكن عدني بأن لا تقاطعني عندما أتحدث.

يجيبه سنان وهو يصر على أسنانه غاضبًا والشرر يتطاير من عينيه كعاصفة من الغبار:

- نعم أعدك ولكن قص عليَّ حكايتك أو السر كما تدعي دفعة واحدة دونَ تردد وبلا لفٍّ ودوران!.

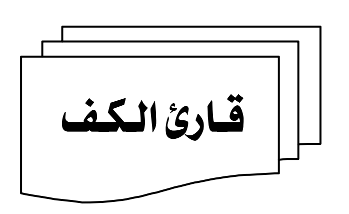
- إذن اسمع ما سأقوله جيدًا ولا تقاطعني...
ثم يرتشف ما تبقى في الفنجان من قهوة بعد أن أصبحت باردة فيردفُ قائلاً:
- جلسَ أحدهم على خشبة المسرح يحتسي الشاي ببطء شديد مع مجموعة من أصدقائه وهم يتسامرون كالمنافقين، بأمور تافهة جدًا، ويستمر الحال بهم هكذا، ثم يضجر المشاهدون مما يرون أمامهم، فليس هناك من مسرحية أو حوار أو تبادل أدوار ولا شيء على الإطلاق، سوى الملل والضجر الذي انتابهم من متابعة هذا اللغو غير المجدي، فبدأ المشاهدون برميهم بقصاصات الورق وهم يشتمونهم ويلعنونهم، وتعالت الأصوات شيئًا فشيئًا لتصل حد أن أحدهم رفع أحد الكراسي عليهم وهو يصرخ كفاكم جنونًا واستهتارًا بنا، هيا اغربوا عن وجوهنا حالاً وإلا سترون ما لا ترغبون!.
عندها فقط، نهض أحدهم وعلى ما يبدو كان البطل فقال، لماذا كل هذا التذمر، فنحنُ لم نمثل إلا دورًا واحدًا مختصرًا جدًا، بل جزءًا يسيرًا وجانبًا ضيقًا من حياتكم التي تحيونها، فاعلموا إذن بأننا لم نمثل سوى حياتكم الروتينية التي تنقصها الحياة أصلاً... فنهض الجمهور مصفقًا له وقالوا بصوت واحد: إنكم جادون في التغيير .

إذن عليك يا صديقي أن تعلم، بأننا نحيا في غالبية الوقت دون هدف واضح، ولا نعلم من أسرار الحياة إلا النزر القليل، حتى إيماننا ومعتقداتنا جاءت إلينا عن طريق السمع وليست عبر الرؤيا أو المعاشرة، وأن حياة الإنسان لا ينقصها الجد يومًا، وما نفعله وما قمنا به إلا حوادث مملة ومعادة لضروب مختلفة ولصور شهدناها

مرارًا، حتى أننا نكاد نتقيأ لو مارسناها ثانيةً لتكرارها، فقد اجتهدنا بممارستها اجتهاد الموسوسين.

ثمَ استطرد بتأثر دون ارتباك:

- عزيزي أن يكون في حياتنا شيء جديد أو حدث يجعلنا نشعر بالسعادة أو الانعتاق أو التحرر من القيود التي باتت تخنقنا حتى في نومنا، وسرعان ما نحاول بكل ما أوتينا من قوة أن نجهز عليه، لماذا؟ ألا يكفينا ما رأيناه منذ ولادتنا وحتى هذه الساعة؟! هل رأيت شيئًا مغايرًا أو مختلفًا مما نحياه دونَ رتابة أو ملل؟ وها أنا أراك تجلس أمامي كالمصعوق تريد التهامي نيئًا، لتعرف الحكاية على الرغم من أني لا أملك ما أقوله، سوى أني أريد أن أكون للحظة مجنونًا لا أنتمي إلى الواقع الذي نحياه، أصنع اللحظة هذه بنفسي لأعيشها كما أريد ولو لمرة واحدة... هل هذا كثير أو غريب أو مريب يا صديقي؟! وها أنت قد عرفت الآن سري، فلا تخبر أحدًا أرجوك بتفاصيله، كما وعدتني، كي لا تقع عليك اللعنة!.



- ليتني لم أعطِ له يدي اليسرى!.

لقد تحولتْ حياتي بسببه إلى جحيم لا يطاق، تبًا لي ماذا فعلت بنفسي؟! ليأخذني الشيطان.

بهذه الكلمات القاسية، المتشائمة المليئة بالحسرة والندم؛ سجَّلَ "ستار" في دفتر مذكراته ما كان يعاني من ألم وحرقة وعذاب قبلَ أن يهجره العقل وقبل أن يستسلم للضياع والبؤس.

تعرفتُ عليه بالصدفة في ميونخ؛ عندما كنتُ أجلس في مطعم عربي بائس، فقير يتناسب وحالتي المادية، خاصة وأنا كنت حينها طالبًا أدرس الهندسة الزراعة في جامعة المدينة وعلى نفقة أهلي الخاصة!... أعجبتني هيئته المتواضعة، وحرصه في النطق، وهدوءه الذي ينسجم ووقاره الحكيم... ابتسمتُ له وأنا أرحِّب به ضيفًا على طاولتي التي سبقته إليها وأنا أتناول غدائي، عند ذلك النهار اللطيف، الذي يذكرني بأجواء الخريف البغدادي الظريف والذي لا يخلو من تناقض، كطبيعة وقدر الأشياء التي نحياها!

ردَّ على ابتسامتي ودعوتي بالتحية وهمَّ بالجلوس وهو يقول بهمس، كالغزل: شكرًا لكَ... ثمَ أردفَ: أنا ستار، أعيش هنا منذ سبع سنوات، وسألني مباغتًا: وأنت؟

ـ أنا سامي، أدرس في جامعة ميونخ منذ سنتين.

ثم تبادلنا المعلومات وأصبحنا معَ الوقت، صديقين لا يستغني عن بعضنا البعض، إلا ما ندر.

لم ألحظ عليه في البداية أي أعراض قهر أو هوس أو ميول تسترع انتباهي، وفي كل مرة أراه فيها أجده منتظمًا، دقيقًا، صادقًا وحقيقيًا، كالذهب الخالص؛ لا يحب التزلف أو الكذب أو المحاباة، ولم أجده يعتنق أي مذهب من مذاهب الشرور!.. جادا في منطقه، حريصًا على وقته... لكن بدأ يتمتم في الفترة الأخيرة برنة (فهمتها على أنها رنة اعتراف منهزمة) في حين كانتْ نظراته أو كادت تنطق بصدى حزين جهلت أسبابه، نظرات لها طعم الهلاك، ممصوصة وكأنها لميت؛ أو على أقل تقدير نظرات لم تعد تهتم لرؤية العالم، وكأن مذاق الحياة أصبح بالنسبة له، كالتراب! وهو يزداد نحافة وهزالاً، وشعره انقلب بينَ ليلة وضحاها أبيض بلون القطن؛ وهو دائم الإسهاب والسرحان وكأنه في حلم أبدي لا يريد أن يستيقظ منه أو ينتهي.

لاذ بالصمت وكأنه الفردوس؛ ومعَ ذلك لم أتجرأ أن أسأله عن أمر لا يحب هو الإفصاح عنه، فبقيت حزينًا كحزن نظراته، وأراقبه بقلب ملتهب، كشعلة؛ وتمنيت أن يأتي اليوم الذي يصارحني فيه، عن ما تخزنه ذاكرته، وما يقلقه... ولم أفز بذلك اليوم حتى قابلت أستاذ علم النفس والاجتماع في الجامعة لأستشيره في أمر صديقي فرويت له وبنفس مقطوع، مذكراته التي خطّها بنفسه، كنقش على

الحجر؛ بالحرف كما دقها على الورق، بعد أن تركها بين يدي ورحل إلى مكان مجهول، لم أعثر عليه طوال سنة كاملة؛ رحل ستار بعد أن فاض فيه حنين موجع وحسرة آسرة، جعلته سجينًا خلف قضبانها وهو يودُّ أن يصرخ حُزنًا، ليهز كيان وأركان الأرض لكنه رحلَ وهو صامت، وكأنه يقلد الموت في صمته! أو يريد بذلك الاقتراب من صميم الآخرة.

ما زالت كلماته الأخيرة ترن في أذني كالصدى عندما كان يردد بريبة وحذر شديدين:

- لابد أن الجحيم يتسع لأكثر من شخص؛ فلا خوفَ عليَّ إذن!

هرب ستار من سجانه الوهمي المحتوم، وهو يرنو دربًا آخر جديدًا، لعله يلهيه عن مأساته أو يجعله يحيا على غير ما تنبأ به قارئ الكف، وكأنه يطلب من الندم أن يرحمه!.

يئست من العثور عليه أو الاهتداء إلى طريقه، قرَّرتُ أن أسأل في شأن ما خلفه من مذكرات، أستاذي في الجامعة، ورحَّب الأخير بصدر واسع وهو يردد بوقار:

- أنا أعلم بأنكم يا معشر الشرق، تخبئون أحزانكم كما سعادتكم في قلوبكم كالأسرار وما أكثر أسراركم وما أعظمها!!.

ثمَ ابتسم بصدق وأردفَ:

- سأصدِّق كل ما كتبه صديقك، كما صدقت تاريخكم المليء بالمعجزات من قبل!...

ثمَ قال وهو يعدل من جلسته، وكأنه يتهيأ للأكل:

- هات ما عندك وأنا كُلي آذان صاغية.

ابتسمتُ له مجاملاً، كعادة الإنسان الشرقي في التملق والمحاباة!
وأنا أفتح دفتر ستار... ثمَ بدأتُ أقرأ بحذر ورهبة وحرص:
(ليتني لم أعطِ له يدي اليسرى!.
لقد تحولتْ حياتي بسببه إلى جحيم لا يطاق، تبًا لي ماذا فعلت بنفسي؟! ليأخذني الشيطان.
الكتابة، كالكلام فن لا يتقنه إلا فئة قليلة من أصحاب المواهب والميول الأدبية والفنية؛ وأنا أعرف نفسي جيدًا، لا أنتمي إلى حظيرتهم، ولم أكتب يومًا شيئًا ذا بال؛ ولا أعلم السبب الحقيقي الذي يدعوني للكتابة الآن وبهذه الطريقة المكشوفة! قد يكون الألم هو السبب أو الحسرة والحيرة وقد يكون الندم والاستغاثة؟! وقد يكون لا هذا ولا ذاك؛ وقد يكون قارئ الكف أو الشيطان نفسه هو الذي يغريني ويدعوني للمضي في تسجيل هذه المذكرات، وما حدث قبل تسع سنوات تقريبًا وبالتحديد في تلكَ الجلسة التي أمقتها، والتي من خلالها وقفَ بجانبي وبعوده الرفيع قارئ الكف الذي ظهر علينا كالقضاء، ونحن (أنا وزوجتي وصهري وأخته) جالسون في المقهى، نتباحث بهمس وبصوت لا يكاد يسمع لخوفنا من رجال الأمن ونحن نخطِّط للهروب من العراق بشكلٍ غير قانوني، جراء الحرب والحصار الذي ضرب وطننا كالزلزال...
سألني قارئ الكف (الذي له شارب مميز، أبيض ويبدو كهلال مقلوب) دونَ غيري، بقوله: اسمح لي أن أقرأ لك كفك، وسأخبرك بما يخبئه لك قدرك.. ثمَ أردفَ بتأكيد، وكأنه سمعنا: خاصة وأنتم تخططون للهرب والعيش خارج العراق!!.

تجمدت أطرافي، جفَّ حلقي فجأة، وصمت الجميع، وكأننا نمثل دور الأصنام.. وبعد أن أفقنا من نوبة الصمت التي انتابتنا، أجبته بحزم: ليكن، وبسطت له يدي اليمنى، فرفض وقال بتصميم:

- اليسرى من فضلك!

- ولماذا؟

- لأنها بريئة لم تأت بإثم أو خطيئة..

ثمَ أردفَ مختصرًا، مقتضبًا:

- ولم تثر حنق أو غضب ربك!.

وصمت وكأنه ينتظر.

زاد قوله من حيرتنا واستغرابنا وقلقنا، ونحن ننظر له ببلاهة، مشفقين على أنفسنا من هول الموقف؛ فصرختُ هاتفًا بجزع: خذ. فغرق كفي الأيسر في يده وهو يتفحصه بمهل، كما يتفحص الصائغ الذهب! وقال بعدَ أن جلس بجانبي دون دعوة:

ما أخطر حظك وأتعسه!!... ثمَ أردفَ بنبرة غريبة، ثقيلة، ومخيفة وكأنه ساحر أو مشعوذ، وهو يدقق بنظراته على زوجتي وصهري وأخته (تلك النظرات التي أوحت لي بأن نصفها كان إغراء)، قال وكفي ما زال رهينة في يده: ستغادرون العراق دون مشاكل... ثمَ استطرد بتشاؤم عجيب: ستقيمون هناك بعيدًا، سعداء لوقت قصير فقط!... ثمَ فرك كف يدي بقوة وهو يهمس: خاصةً أنت، ستعيش لحظات موتك ببطء معذب، أما الآخرون وهو يقصفهم ببصره: سيموتون جميعًا وهم ما زالوا شبابًا.. ثم صمت، وكأنه فارق الحياة.

بهتُ كما بهت الجميع؛ تحولنا فجأة إلى تماثيل من الشموع وسط دوامة من الذهول ونحن لا نصدق شيئًا مما نرى ونسمع؛ فقام صهري من مجلسه وصاح به آمرًا: أغرب من هنا حالاً يا إبليس وإلا سترى ما لا يرضيك (وهو يلوح بيده غاضبًا ممتعضًا).

- ساذهب يا سيدي، لكنك ستموت بعد أن ترى موت أختك...

وهمَّ واقفًا ينوي المغادرة؛ فاستوقفه صهري وهو يسأله مستغربًا:

- كيف عرفت بأنَ الجالسة بجانبي هي أختي؟! ها انطق وإلا...

فقاطعه قارئ الكف بهدوء الحكماء قائلاً:

- ستدفنها وتبكي عليها ومن ثمَّ تموت.

فصرخت به دون وعي، بعد أن حول جلستنا إلى كابوس لا يطاق: أنت يا وجه الغراب، اذهب من هنا حالاً... وأنا أبلع ريقي بصعوبة بالغة، وكأن في حلقي نواة لخوخ بري كبيرة أبت أن تدخل أو تخرج.

لم أكن إلا ضحية؛ وما زلت، على الرغم من معرفتي المسبقة بأن هناك ثلاث أشخاص سيلقون حتفهم قريبًا، وسأشهد لحظات موتهم وسأعيش موتي وكأنه الحياة نفسها، وأبقى صامتًا كالأخرس! يا له من رهان خاسر ومدمر كيف لا وأنا الشاهد على المأساة وناقلها!!. ولم يدم بقاؤنا في العراق بعد تلك الجلسة المشؤومة سوى بضعة أسابيع ثم غادرنا بلد الرافدين دونَ رجعة ونحن لا نحمل معنا سوى بعض من أمتعتنا وذكرياتنا بما فيها تنبؤات قارئ الكف الملعون؛ وأقمنا في الغرب، حيث الحرية والأمان؛ حيث الحضارة والحياة التي تبهر وتخدع وتوهم أكثر مما تقنع وتسعد وتفرح من الأعمَّاق!

في خضم الحياة الجديدة السريعة البراقة التي لا يتغير في روتينها شيء سوى الكلمات الجديدة التي نتعلمها بصعوبة بالغة ورضينا بقدرنا، وقد توهمت بأن القدر هو الآخر رضي بنا وقبلنا في حظيرة الغرب دون امتحان لنفسية أو امتهان لكرامة؛ وسررت لهذا الاتفاق غير المبرم! ونسيت تمامًا ما قاله لنا في حينه قارئ الكف، ولم يزورني طيفه أبدًا.

انقضت سبع سنوات ونحن نتمتع بسعادة وهمية، فالاتصال الهاتفي الذي وصلنا من صهري (ج) معلنًا فيه موت أخته (س) نتيجة أزمة قلبية مفاجئة؛ جعلتني كما جعلت زوجتي نتذكر قارئ الكف،وكأنه ماثل أمامنا للتو يشاركنا أحزاننا ويعزينا في موت أخت زوجتي، وعلى هذا النحو المفجع.
صدمنا من الأعمَّاق وفي الصميم، كشوكة غرست في القلب وخفنا من مصيرنا، وكأن الموت يركض وراءنا سريعًا، أسرع من الضوء؛ كما أخبرنا ذلك الوغد، الذي له وجه الغراب، وفي رنة صوته التي مازلت أتذكرها جيدًا، لها رنة الأفاعي وهي تتوثب للدفاع عن نفسها؛ ولنظراته سموم يذرها على العيون، كالسحر لا يشعر فيها المرء إلا بعد فوات الأوان. فبدأتْ حياتنا تنزلق نحو المأساة بسرعة البرق، ونحن ننتظر رحيلنا عن الحياة في كل لحظة، بل عند كل صرخة أو انفعال أو حركة نأتي بها فتحولت حياتنا سلسلة من الفزع والخوف والرهبة؛ أصبحنا نحذر كل شيء، ونشك حتى في أنفسنا... يا لها من مأساة لا تريد أن تنقضي.

لم تمض سوى ثلاثة أشهر من موت (س) حتى فاجأنا صهري بأنه يعاني من آلام حادة في معدته؛ صعقنا بالخبر في الوهلة الأولى، وسرعان ما سرى في جسدنا شعور غريب بالراحة، فتحولت نظراتنا الخائفة الزائغة إلى نظرات تنطق بابتسامات لا ندرك لها أي معنى، وتذكرت قول الشاعر المراني، عندما قال:

يسير الناس تدفعهم مناهم ... وقد بسطت لسيرتهم دروب
فمنهم مّنْ يسير على هُداه ... ومنهم مّنْ يسيّره غريب

لم يقاوم صهري المرض طويلاً، فارق الحياة وهو يهزأ من قدره مات بعد أن دفن أخته!.. فصدق قارئ الكف، ويا ليته كان كاذبًا أو حاسدًا أو حتى منافقًا ،لكنه للأسف كان صادقًا... وهذه هي مأساتنا التي نعيشها وعلينا تحملها كما هي، والقادم هي زوجتي!!.

اعتكفت بالمنزل، ولم أود كما كنت من قبل أن ألتقي بصديقي سامي؛ أبكي عذابي بصمت وماذا عسى أن أفعل، فزوجتي لم تعد تهتم للقضية كلها، وغالبًا ما كانتْ تردد بإيمان حقيقي: الأمور التي واجهتنا كلها حدثت بمشيئة الله، ولا دخل للمشعوذ ذاك من دخل فيها.. ثم تردف بحزم وتصميم خارق عن العادة وحتى عن طبيعتها التي أعرفها جيدًا: إنهم أخوتي، وهذا كان عهدهم في الحياة، وهكذا كتب الله لهم.. وتابعت بشغف: هذا قدرهم ومن الجنون والكفر لو صدَّقنا قول قارئ الكف، وبأننا سنموت أيضًا... فقاطعتها قائلاً، وأنا أردِّد كلام الساحر: ليس تمامًا فالتالي هو أنتِ، وأنا سأرى موتي وأعيشه ببطء كما قال وتنبأ!!... فتضحك زوجتي مني هازئة وهي تردد: ما عاد يهم أو يلهمني شيء بعد أن رحلوا عني أخوتي

وتركوني أحيا الغربة من دونهم؛ ثم قالت باستخفاف شديد: لن أهاب أو أخاف الموت، وليأتي إن أراد فأنا جاهزة ومستعدة.
انقطعتُ عن العالم أجمع والحياة، وباتت عزلتي كميت في قبر، أقضم أفكاري وأداري وهمي الذي هو كحقيقتي، وكأنني أخطط للمستقبل!

لم يحدث أي شيء مما كنت أخافه، طوال سنتين كاملتين، وكدت أصدق قول زوجتي، لولا وفاتها المفاجئة وهي نائمة بجانبي كالملاك، أصبحتْ جثة هامدة في لحظة منسية، تناساها الله فيها ولم يتذكر إيمانها به، فتركها للقدر الذي كشفه قبل أكثر من تسع سنوات ذلك الذي له وجه الغراب قارئ الكف.

احترقتُ لوعةً وألمًا وانهارت قواي، كسهمٍ أصاب القلب بالحقيقة التي كان يقصدها: سأعيش لحظات موتي ببطء معذب في الحياة، فيا له من موت مقدر ومكتوب، ووعدتُ نفسي وأنا في حالة إعياء تام، يائس بلا رحمة، قاس كالموت نفسه: سوف لن أسمح لقارئ كفٍّ ثانية أن يقترب مني أو يقرأ كفي الأيسر أبدًا... ثم غرقت في موجة من الضحك الهستيري الذي جعلني أتوقف عن الكتابة عند هذه الحدود وأستعد لمقابلة صديقي سامي، ولأعطيه هذا الدفتر الذي ماتت في حناياه أجمل وأروع وأعز الذكريات في حياتي وما صادفت ولأودعه دون رجعة سأمضي بعيدًا، أهيم على وجهي لا ألوي على شيء، كمجنون هارب من قدره... ولكن هل هناك مفر من القضاء؟! الذي له سلطان وجبروت على الجميع كالزمن.

رجل من الشرق

قد ينسى الإنسان أغراض الوجود، ويتجاوز على الكرامة الإنسانية، عندها فقط سيعيش كالصخب والضجيج، بلا توجيه أو إرادة، فيصبح شيئًا في عالم غريب غير جدير بالحياة، أقرب إلى الدناءة والابتذال، وأبعد ما فيه الجمال والرضا والقناعة!

"حاتم اليتيم"، هكذا عُرفَ في منطقته التي يقطنها، لقد كان يتمتع بقوى جسمانية كبيرة كالرياضي، وسيمًا ولون عينه مأخوذٌ من زرقة البحر، ودودًا وطيب القلب ومن السهولة اقناعه، كالذي يسكر بكأس واحد من النبيذ، فيدور رأسه وتنتابه الهستيريا سريعًا وكأنه يتضايق من متابعة ظلهِ له ويعتبر بعض الأمور وكأنها تدخل في شؤون حياتهِ الخاصة.. يتأثر بالأشياء التي تحيطه بسرعة كعلاقة الزيت والنار، وسرعان ما نجده بعدَ فترة يرّوج لتلك الأفكار بنفسه وكأنه داعيةٌ يريد أن ينشر دينًا جديدا، بحماس وصبر لا يضاهى، ومعَ ذلكَ المظهر كان رقيقًا جدًا وحساسًا بدرجة مفرطة وعاطفيًا بشكل يُثير دهشة من حوله وتراه كالذي لا تطاوعه نفسه لأن يأكل من ثمَّار بستانه.. رجل قليل الحظ، هزيل الثقافة، بسيط التعليم، لكنهُ يتمتع بطيبة فذة كالراهب، يعمل في مصلحة البريد؛ عاشَ يتيمًا، وحيدًا منذُ ولادته، ولا يعلم عن ذويه شيئًا ولا من كنيته حرفًا ولا

من ديانته اسمًا، وبمرور الزمن أحبَ لقبهَ جدًا حد العبادة "اليتيم" وأصبحت هويته التي بها يُعرف، فلقد كان يشعر بالحنق والضيق والإهانة ومن عدم الرضا حينَ لا ينادونه باليتيم. وذات مرة استنكر ذلك واعتبرها سبًا علنيًا على كنيته، لأنَّ أحدهم ناداه بحاتم فقط.

ولكن ما أن يقع حاتم تحت تأثير هواجس جديدة من تلك التي نجدها منتشرة في حياتنا الشرقية المبعثرة والتي لا تعترفُ بالزمن كعامل يقوِّم الحياة ويصلحها، لذا نجده يلغي ما كان يدعو له بسرعة تفوق سرعة الضوء، فيشتمها ويبصق عليها، ويُعظِّم ما هو جديد ليبدأ من جديد بهمة لا تُقارن ولا تبُارى بالتبشير للأفكار التي يدافع عنها صارخًا مصرحًا بها كالرعد: هي الأصل في كل شيء!.

وبدلاً من أن يعيش الوحدة، قرَّرَ الزواج كي يشعر بالسعادة من امرأة مسيحية، بعدَ أن كادَ يقتل نفسه لروعتها وجمالها، فهامَ بها عشقًا، كالمجنون إلى أن سنحت الفرصة المواتية له فتزوجها. في حين تلاشت الأفكار الإسلامية التي كانتْ تعشش في رأسه، فاختفت بسرعة كما يختفي الدخان! وبطبعه الغريب الذي جُبلَ عليه، كان يحب أن يعيش تجربة كل ما هو جديد وبمتعة كالطفل، ولا يفكر بما كان يحمله أو يعتنقه أو ما ينتمي إليه... ارتبطَ بمريم وعاشَ معها أجمل سنوات حياته (كما كان يقول أو يدعي) لكنهُ لم ينجب منها طفلاً، وخلال فترة زواجه التي دامت ثلاث سنوات، ظلَ ينادي ويقول في كل مجالسه وأينما يكون: بأنَ الديانة المسيحية هي السلام، هي نكران الذات والانسجام معَ النفس وترك الآثام، هي كالماء والطعام وبدونها سيهلك البشر لا محال وبلا جدال... ثمَ يعلو

صوته عندما كان يناقش أحدهم كمن ينسى نفسه، ليدخل الفزع والرعب في قلوب سامعيه فيقول مدافعًا عن وجهة نظره: انظروا إلى أصحاب هذهِ الديانة العظيمة، إنهم يكوِّنون أكثر من نصف سكان الأرض، ولولا وفاء الدعوة وصفاء الدين ونبله لما آمن كل هذا العدد من الناس!... لقد كان يصرخ كالذي بترَ أصبعهُ للتو، ويدق الأرض بقدميه بقوة وكأنهُ يعني لو لم يكن يؤمن بهذا الدين لماتَ قبلَ يومه.

رحلتْ مريم زوجته بعدَ السنة الثالثة من زواجهما بمرض مجهول لدى أطباء الشرق، وموتها غيّرَ مجرى حياته الصاخبة تلك، ليرجع ثانية يعاني من قسوة وشقاء الوحدة، بيد أنه ظلَّ طوال أربع سنوات كاملة وفيًا للمرحومة ولذكراها فلم يخرج من المنزل كثيرًا، واعتلَ مزاجه وهجرَ معظم أصحابه تركَ الجميع ليعيش على ذكرى حبه لزوجته، إنه حقًا رجلٌ شرقي شريفٌ وعظيم!.

في أحد أيام الصيف الحارقة كنار جهنم، زارته في العمل امرأة شابة، جميلة تدعى بلقيس اليهودية، ذات شعر أسود طويل، له لون اللَّيل، وسمرتها الخلابة، بلون البندق، وكما يقال (لقد كان جمالها يهوديًا حقًا) لم يُشاهد له مثيل من قبل.. طلبتْ منه بعض الطوابع البريدية لتحرِّر رسائل إلى أهلها الذين يقطنون إسرائيل، ومن أول نظرة تعلقَ بها كما يتعلق العنكبوت بخيوط بيته... ولم تمضِ سوى بضعة أيام، إلا وكانتْ بلقيس الزوجة المبجلة والأميرة التي جلست على عرشها وهي سيدة بيت حاتم اليتيم!.. بينما كانتْ الفرحة تملأ كلَّ كيانه، حتى باتَ يردد كلماتها بسرعة كالببغاء! بعدَ أن علقَ

صور أنبياء الله اليهود وشجرة العائلة النبوية اليهودية الطويلة على جدران غرفة الجلوس بدءًا من إبراهيم ويعقوب وأولاده وحتى آخر سلالتهم، ثمَ اقتنى التوراة ومزامير داود وحفظَ أمثالهم وحكمهم ومعَ الوقت ذهبَ يدعو إلى اليهودية بصوتٍ مبحوح، عنيف وكأنهُ يشتم! ثمَ يصرخُ مستنكرًا لكل من يجادله فيقول غاضبًا:

- يا لكَ من جاهل، متخلف أنتَ تبقى شرقيًا لا تفهم شيئًا في الحياة سوى حلب الأبقار وسرقة الدجاج... ثمَ يلوح بيديه وكأنهُ يجدف، فيبصق على الأرض ويقول: يا لكَ من رجل متغطرس، متكبر اذهب، أمشِ من أمامي وليأخذنك الشيطان في داهية... ثمَ يردف شارحًا وهو يطلق ليديه العنان على الحركة ليبدو وكأنهُ يعوم:

- انظروا إلى الطرف الآخر من العالم، لقد تحولت الخيام إلى مدّنية إلى حضارة.. هؤلاء هم الذين يستحقون الحياة وليس نحن...

فيشتم الجميع دونَ تردد ثمَ يردف مصرحًا كالواعظ:

- إنهم الأصل والله، وهم أول من عرفوا التوحيد وبشَّروا به.

ثمَ يعود فيسبُّ متشنجًا كالمريض ويصرخ قائلاً:

- يا جهلة أينَ عقلكم؟ يا عديمي الفطنة، فلولاهم لكنا في ظلام دامس، ونأكل لحوم إخواننا البشر، أعوذُ بالله منكم، اتعظوا أيها الجهلة... وهو يصيح بكل من يلاقيه في طريقه: امشِ بعيدا عني، ثمَ يشير إلى الآخر: اذهب لعنكَ الشيطان، ويردف متسائلاً كمن يبحث عن شيء: ما هذهِ الحياة القرفة التي يحيونها؟! ويردد بأعلى صوته كالديك عندَ الصباح: انظروا ورائكم إلى هؤلاء... ثمَ يشير إلى قِبلة بيت المقدس.

ولكن وكما يقول المتنبي: تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن... فقد وصلت يومًا رسالة إلى زوجته، تطلب منها مغادرة الوطن بسبب أصولها اليهودية ولتواجد ذويها في إسرائيل...

ولم تمضِ إلا بضعة أسابيع، ليعود حاتم يتيمًا، وحيدًا كما كان يعاني من ألم الوحدة والقنوط والغربة الروحية والنفسية القاسية من جديد، فعاشَ معزولاً مرةً أخرى عن العالم بحزنٍ صامت عميق وكأن مُتع الحياة ما عادت تستهويه، أو كالذي يلبس الأسود حدادًا على نفسه!. فلم يعد يهتم كثيرًا بالأشياء الجديدة، ولا يستمع إلى الأفكار التي يسمعها وكأنهُ أصم؛ وأصبحَ فجأة لا يتأثر بها، وكان ذاك ليس طبعه، فشاخَ سريعًا وكأنهُ قد تجاوز الثمانين عامًا...

في أثناء ذلك بدأ أصدقاؤه القدامى يسألون عنه بعدَ أن انشغلوا عليه وقلقوا، فهم لم يعودوا يرونه إطلاقًا وكأنه مات، فتأثروا جدًا لما آلَ له حاله من بؤس وشقاء ووحده وخيبة... عندها قررَ المقربون منه أن يجدوا طريقة تحاول أن تكسر طوق الوحدة الذي بناه بإرادته حولَ نفسه، ففاتحوه بموضوع يخص عائلة مسلمة تتكون من أربعة أفراد (رياض وليلى وأطفالهم الصغار أحمد وعلي) إذ كانتْ ظروفهم صعبة ولم يعثروا على سكن يناسبهم... وما أن سمع بالفكرة الجديدة حتى طارَ لبَّ عقله، فقامَ بتنظيف المنزل وجدد دهانه واستقبلَ العائلة الجديدة ورحَّبَ بهم على أكمل وجه بعدَ أن طفرت الدموع من عينيه دونَ وعي... ومن يراه وهو على هذا الحال لقال: بأنه كان يمثل دور الباكي حتمًا.

استعاد حاتم اليتيم نشاطه وحيويته بسرعة مذهله، فعادَ شابًا، قويًا، مرحًا، وباتَ يلعب مع أطفالهم كثيرًا وكأنه أبوهم! حتى كان يجلس معَ رياض في المساء، يشرب الشاي ويتسامر معه وينظر لهم وهم يصلون مساء، صلاة الجماعة، فسرعان ما دبَّ فيه الحنين إلى ديانته السابقة التي وعى عليها في صغره!.

وفي إحدى الأمسيات كان الجميع بما فيهم حاتم يصلي معهم وهو يبتسم كالطفل، ثمَ بدأ يقول فيما بعد حينَ يتحدث معَ الآخرين:
- آه الإسلام يا جماعة حياة، بل خلود في الحياة!.

ولكن للقدر ذاكرة واسعة وكبيرة ونشطة ولا تنسى أحدًا فسببت الأسباب، لتجد لأسرة رياض مسكنًا جديدًا، لينتقلوا إليه سريعًا كما دخلوا بيت حاتم سريعًا، ليبدو المنظر كالحلم، سرعانَ ما تبدد وكأنهُ غيمة صيف... ليعود حاتم إلى حالة العزلة من جديد، ينظر إلى الجدران فيراها وكأنها تتحرك!. ينظر إلى الأرض فيعتقد أنها تهتز تحتَ قدميه!... فيقفُ مذعورًا وهو يلوح بيده عاليًا ويدمدم:
- ما هذا الملل الذي يغلفُ حياتي؟ ما هذه البرودة التي أشعرُ بها؟ لا شيء يستحق العيش من أجله! وليس هناك من ثمَّة أفكار يمكن تصديقها أو العمل لأجلها ثمَ يشرع قائلاً كالمعاتب: ما هذه الرتابة؟ كل شيء ساكن إلا الجماد أراه يتحرك! أعوذُ بالله، أنا لم أتعود أن أحيا هكذا دونَ أمر جديد، يرجعني شابًا، قويًا، فعالاً...

ثمَ تخور قواه وهو يرتعش، يرتجف كلهب الشمعة، فيقول جازمًا كالذي سيموت بعدَ لحظات:

ـ أنا أرفض الحياة، أنبذها لو استمرت على هذه الوتيرة الجامدة التي لا تحرِّك فيَّ عرقًا!.

ثمَ يتمدد على سريره فتقل خفقات قلبه لتصل به إلى الحد الذي تبقيه فقط على قيد الحياة دونَ أن يأتي بجهد أو حركة.

تجاوز عمر حاتم التسعين، بعدَ أن هزلَ كثيرًا ونحف وأصبحَ كالقصبة الجافة التي يمكن كسرها بسهولة وباتَ نظره ضعيفًا جدًا، وبالكاد يرى ما أمامه، ونشاطه أصبحَ معدومًا بلا حيوية تذكر، يئن في النهار ويسعل طوال اللَّيل، وهو دائم القول:

ـ آه ليخطفني الشيطان، إنها حياة بلا هدف كالتائه، بلا أمل كالخراب، بلا جدوى كالموت، وليس هناك ما نفعله أو ندافع عنه أو نحميه أو ننشره!.

ثمَ يردف بوجل كالذي يصلي:

ـ ما هذا الملل.

ويلتقط أنفاسه كمن يعاند نفسه ويريد أن يبقى على قيد الحياة! فيقول مبتسمًا بحزن:

ـ آه الله يرحم أيام زمان، عندما كنا نجبر السماء على المطر، والبحر على النوم، ثمَ يتحسر بعمق وكأنه يبكي، لقد غادرت فينا القوة دونَ رجعة وكأنها ماتت!.. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يتغلب على قدره أو حكمة الله؟

وفي إحدى ليالي الشتاء الآسيوية الحزينة، الرتيبة، جلسَ حاتم اليتيم يتحدث معَ نفسه كمن يعاقب أحدًا بصرامة وبصراحة:

ـ ماذا فعلت في حياتك يا يتيم؟ لقد حرقت نفسك طوال سنوات عمرك كعود ثقاب، وبعدها لم يعد لكَ نفعٌ؛ لقد بتَ خشبًا محروقًا لا فائدة منك، انظر إلى روحك، إلى أفكارك التي ركضت ورائها، إنك تعاني الآن من المهانة.

ثمَ يتحدث ببطء وكأنه يجلد نفسه بالسوط:

ـ يا لكَ من رجل بليد، ككرة من الثلج سرعان ما تذوب لترجع إلى طبيعتها التي أتت منها إلى ماء، وسترجع أنت أيضًا إلى تراب كما خلقت من تراب.

فيغفو وهو جالس ولم يستطع النهوض، فظلَ جالسًا، نائمًا كما هو بلا حراك، دونَ روح، بعدَ أن فارقته الرغبة في الحياة والدعوة إليها يتيمًا ووحيدًا، كما جاء.

وعندَ الصباح لم ينهض اليتيم أبدًا.



دخلَ شقتنا مساءً عندما كنا نقيم في ميونخ، فجأة كالقضاء والقدر وهو يضحك بتقزز كريه، لتظهر أسنانه الصفراء بلون الذرة من كثرة التدخين، يهز كتفيه بحرية وبحركة بهلوانية، وهو يقدِّم لنا فريقه المكون من ثلاث بنات وولدين وزوجته التي لا تنقطع عن إسقاط نظراتها على الأشياء بريبة عجيبة وبحدة ظاهرة، لتوحي للمرء ومن اللحظة الأولى أنها تقوم بتسجيل كل شيء في ذاكرتها، لتحسدها فيما بعد بخبث وعداء بهدوء وروية!.. بينما كان أولاده - ما شاء الله - أعمدة كالتي تقف عليها كنيسة الفاتيكان!، عابسي الوجوه وكأنهم جاءوا للتعزية لا للزيارة، أعوذُ بالله من تشاؤمي هذا غير المبرر (ماذا أفعل وقد كان هذا انطباعي الصريح)... كانوا ثقيلي الظل، لا يبتسمون، ويذكرونني - ولا أعرف لماذا - برجال الأمن العراقي سابقًا!.

للأسف وبلا محاباة، لقد خدشوا هدوء معبدنا بلا ذنب نقترفه؛ وما شدَّ انتباهي وعظمَ استغرابي وعقدَ لساني فزادَ الموقف ارتباكًا هو إثارة حفيظتنا عندما صعقنا لدخولهم بأحذيتهم دونَ خجل أو وجل شقتنا النظيفة الجميلة التي نعتبرها ونردد اسمها على شفاهنا بفخر: معبدنا الروحي.

جنَّ جنوننا، تبادلنا النظرات الملتهبة أنا وزوجتي المسكينة التي شعرتُ بمصيبتها التي تعاني منها، فضغطتُ على يدها الصغيرة وأنا أشتعل حرقة وأذوب مرارة!.. وهمست بصوت غير مسموع: سأقوم بتنظيف الشقة فور مغادرتهم، لا تقلقي...

ثمَ أردفَت دونَ أن أجعل أحدًا يشعر بنا:

- نعم إنها مصيبة وسقطت علينا كالصاعقة، ولكننا ما زلنا أصحاب المعبد وعلينا استقبال مصليه بكل حفاوة، أليس كذلك؟!

ردَّتْ دونَ تردد باستياء:

- مصلون!.

قلت وأنا أتلعثم في الكلام بعدَ أن خانني الحزم وييسَ حلقي وجف ريقي:

- نعم، إنهم ضيوفنا على أية حال.

لكن وبصدق أقول: لقد كان سمير صاحب رجال الأمن هؤلاء! أقصد رب الأسرة؛ ودودًا ويحاول أن ينقي كلماته بحذر شديد مغالي فيه! كي تخرج الجُملة من فمه جميلة وذكية قدر المستطاع، وقد خمنت بأن له قلب ملائكة، لكن حركاته التي يقوم بها تذكرني برقص الشياطين؛ لذا ظلَّ انطباعي غير واضح المعالم وكأنني أمام لغز.. بينما ظلت زوجتي صامتة وهي تقرض غيظها بهدوء غير معهود وكأنها تدعو الشيطان أن يأخذهم، ولكن في سرها.

ما أن قدَّمنا لهم العصير الطبيعي وبعض قطع الكيك الذي تفننت في صناعته زوجتي، ولم تمضِ إلا لحظات من الهدوء النسبي والسلام

الحذر حتى بدأت أصواتهم تعلو في الآفاق، كزئير الأسود، ثمَ تلاسن الأخوة وكأنهم سيدخلون في معركة غير معروفة العواقب... نظرنا إلى السيد رئيس الفريق وقلبنا مقبوض وكأن الشقاء ينتظرنا على الباب!... لكنه تسارع مستدركًا:

- لا تقلقوا فهم على هذه الحياة الصاخبة متعودون!.

وأردتُ أن أقول له: (وما ذنبنا نحن يا هذا). ولكنني غرقت في بحر خجلي كالحجر وبقيت ساهيًا صامتًا، أنتظرُ المعجزة أو رحمة الله!.

وبحركة يد سحرية، سريعة وخاطفة أخرجَ سمير علبة السجائر التي كان يحتفظ بها في جيبٍ بداخل الجاكت العريض والطويل الذي يغطيه حتى ركبتيه، كالجاكت التركي؛ ثمَ أشعلَ سيجارة بكل وقاحة وكأنه في بيته... وهنا لم نتمالك أعصابنا، كالمرء الذي يشاهد أمه أمام عينيه وهي تُقتل... نهضت زوجتي من مكانها وكأن عقربًا سامًا قد قرصها وهي في حالة لا يعلم بها الشيطان نفسه؛ غادرت غرفة الجلوس بصمت قاتل، كالظل.. بينما اشتعلَ الغضب في رأسي كالنار، وقلتُ ماسكًا أعصابي قدر المستطاع وأنا أقول له برجاء غاضب:

- أرجوك يا سيد سمير، نحن لا ندخن ولا نشرب الكحول.

ثمَ تغيرت لهجتي لتصبح متوسلة وساخرة:

- حتى علاقاتنا التي تربطنا بالآخرين لا تتعدى إلا الذين يحملون طباعنا، وكما ترى لا نقدم لزائرينا إلا ما هو صحي ولذيذ.

ثمَ أردفَتُ بتأثر واضح:

- يمكن لك أن تقول بأننا أصدقاء البيئة!.

واستطردتُ أقول بحماس حقيقي:

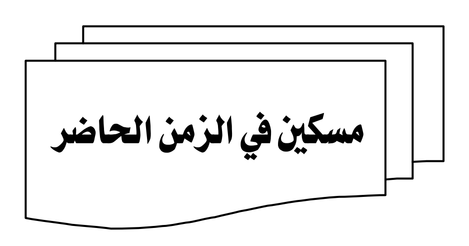
- ناهيك عن مرض الربو الذي تعانيه زوجتي منذُ ولادتها.

وقفَ كالنخلة وهو يشعر بأنه قد أهين؛ ثمَ طوي نظارته الطبية السوداء بعصبية حتى كادَ يحطمها، وصاحَ صارخًا بفريقه بعنجهية متوحشة:

- هيا بنا، سنطرق باب عمكم أبو قاسم وهو لا يبعد من هنا كثيرًا.

ثمَ دمدمَ قائلاً:

- سنذهب إلى الذي يقدرنا ويعرفُ قيمتنا لا إلى غاندي وملته ومن لفَ لفهم، أصدقاء البيئة... قال ثمَ بصقَ على الأرض بتقزز دونَ احترام بعدَ أن طغى اللون الأحمر على عينيه لتبدوان وكأنهما جمرتان كعيني وحش، وهم يغادرون الشقة سريعًا، وكأن الشقة تحترق وألسنة النيران فيها تستعر وهي تركض وراءهم!.



لم ينم الطبيب النفساني "إحسان العربي" منذُ عدة أيام أبدًا، ومعَ ذلك، كان سعيدًا ومغتبطًا جدًا حدَّ السُّكْر، وكأنهُ وُلِدَ من جديد.. لكنهُ لم يكن يعلم بأنَ الجنون قد أصبحَ إليه أقرب من عصى الأعمى!.

• • • •

اعتادَ البروفسور العربي الشهير "جليل" في الأيام الأخيرة الاعتقاد بأنه يستطيع الإمساك بالنجوم بيده والتقاطها من كبد السماء بسهولة ودونَ عسر وكأنها الملعقة التي يأكلُ بها!. حتى مرضَ دونَ أن يعلم بأنهُ قد أصيبَ بغرور داء العظمة!؛ الذي هو أشد فتكًا من السم.

• • • •

باتَ شيخ المؤمنين الدكتور "عزيز العربي" لا يتكلم أبدًا، فأصبحَ يصدق نفسه، على أن الناس لم يعودوا يرونه حتى في وضح النهار وكأنه الشبح!.. فاستسلم لقدره بقوة على أنه الله فعلاً! فكلفه ذلك بيض السّمام[1].

---

(١) السّمام: هي النملة الحمراء، ويقال أيضًا إنها طير فريد النوع كالخطاف، الذي لا يقدر على جمع بيضه.

• • • •

مرَّت ثلاثة عقود، وأنا غائب عن الوطن والأهل والأصحاب، رنَّ جرس الهاتف مصرحًا عن مكالمة آتية، عرفت من خلالها أنَ ابن بنت خالتي القادم من العراق حلَّ ضيفًا جديدًا على وطن الغربة، فقررتُ زيارته، وأنا لم أره من قبل إلا صبيًا.

تمَّ اللقاء ولم يعجبني كثيرًا، فقد كان فقير الثقافةِ والحياء وغني النفس، وأولاده الثلاثة في بداية طريق الضياع في عالمهم الجديد الذي يلمع، كالفضة!...
سجَّلتُ في محفظتي رقم هاتفهُ خجلاً من العيب!.. وقفلتُ راجعًا إلى داري أنشد الراحة والنظام وأنا أكثر حزنًا... وتمنيت من كل قلبي وفي سري بأني لو لم ألتق به، فقد أوحى لي بأنه سيكون وأولاده وقودًا سهلاً لنار مستعرة في حياة لا ترحم الأغبياء!.

وما أن زحفَ اللَّيل علينا كالسارق، كما هي العادة هنا، وسكنتْ الأشياء ليبدو كل شيء قد ماتَ بسبب الهدوء!.. رنَ جرس الهاتف مجددًا وكانتْ له في الحقيقة نفس رنة الصباح، فقلت بخوف: اللهم أجعلهُ خيرًا وسلامًا... فظهرَ لي صوتٌ قبيح وكريهة، ضاحكًا ويشرق ريقه برعشة وغصة السكران، فقالَ مستهترًا كالقوَّاد:

من معي على الخط؟

ثَمَ أردفَ باستخفاف:

- هل أنت مجددًا؟

أجبته بذهول:

- يوحى لي بأنك الذي كنت عنده قبل ساعة

فقالَ متردِدًا ـ بعدَ أن سمعتُ صوت أقداحٍ تكسر:

- نعم، ومن يكون غيري يسأل عنك؟ ها ها ها... ثمَ قهقه بجلف كعاهرة وهي تمارس عملها هههههه واستطرد:

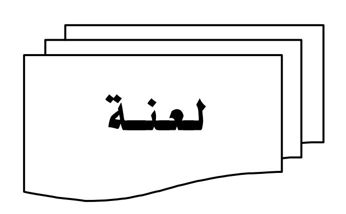
لماذا لا ترد عليَّ؟ إنكَ تتجاهلني وأنا أعلم ذلك؛ بل داخلك يحتقرني.

فبصق بقوة: تفو وهو يضيف: يا لك من خبيث وحقود...

ثمَ أغلق الخط!

ضربتُ كفًّا بكف، وكأني أصفِّق مستغفرًا ربي، وقلت بصوتٍ مرتجف مبحوح: أي نوع من الرجال هذا الذي يدّعي أنه ابن بنت خالتي، ليقصفهُ الشيطان، ما هذا !.

أردفَت بهذه الكلمات والدموع كانتْ قد طفرت من عيني لتسبح على خدي المتوقد كالجمر غيظًا بعدَ أن غرقت كالحجر في بحر خجلى ومن كل شيء!.. وتمنيت في تلك اللحظة ومن أعمَّاقي، بأنَ أكون وحيدًا وإلى الأبد، وكأني أحسد الذي يقف مذلولاً، مقهورًا خلفَ أسوار السجون لعزلته!.



ظلَّ "حميد العراقي" البالغ من العمر السادسة والخمسين، يعاني من صداع حاد في رأسه، جعله عرضة للقلق والإرهاق، بعدَ أن تواطأ ألم الرأس معَ وجع الظهر ضده!.. فيقفز من مكانه صارخًا بأعلى صوته وكأنه لدغ من أفعى للتو، محدثًا جلبة رنانة، عميقة وقوية كالرنة التي يحدثها الناقوس الكبير عندما يقرع!، فتنهال كلماته دونَ انتظام:

- أرجوكم أنقذوني، فرأسي يكاد ينفجر وهناك ألمٌ يقطع أحشائي كأسنان الذئب وهي تنهش في لحم ضحيته.

ثمَ يدمدم:

- ربنا لطفك وعطفك.

ويواصل:

- ما هذا الألم الذي يصهر قلبي ويجعله لا يقوى على النبض؟

فيعود ليصرَّ على أسنانه بقوة وكأنه يحدها كما تحد السكاكين وهو يستطرد قائلاً بتذمر وبحالة من الهستيريا:

- عليَّ أن أكتبَ وصيتي، فيومي باتَ قريبًا ويعلم به حتى الشيطان!

ثمَ يردف مهتاجًا:

- آه ها أنا في الغربة وسأموت وحيدًا بلا رحمة.

ثمَ تغوص روحه بقلق في قلبه وهو يتلوى كالثعبان وهو يزحف، بعدَ أن اغرورقت عيناه بالدموع وتألقت كالفضة! ليبدو وكأنه انفصل للتو عن الحياة كما تُفصل السكين الحادة غصن شجرة!.

دخلَ عليه جاره الألماني العجوز سيد "ماير" بعدَ أن طرقَ الباب لفترة طويلة، وقد فتحَ له حميد بشق النفس وهو متذمر واتسعت عيناه رعبًا، ثمَ رطن معه باللغة الألمانية التي يتقنها بشكل مقبول قائلاً بتوسل كالشحاذ:

- أرجوك يا سيد ماير، اتصل بالدكتور فأنا أشعر بأني سأموت قريبًا.

- هوِّن عليك الأمر يا سيد هميد (وهو يلفظ حرف ال ح، بالهاء) فإنك ما زلتَ شابًا ولم تتجاوز الستين (حسب علمي) لماذا تقول إذن بأنك ستموت وأنت بهذا العمر؟!.

ثمَ أردفَ بصدق وبعصبية دونَ أن ينظر له:

- أرجوك أنت يا سيد هميد، إنكم الشرقيون غريبو الأطوار حقًا!، فما أن يصل عمر الإنسان فيكم إلى الخمسين حتى يقول بتضرع وهو يبكي: لقد شختُ وأصبحتُ عجوزًا، ولا أقوى على الحركة أو العمل!.

ينظر له حميد بعينين واسعتين، ذابلتين وهو يهمس خافتًا وبصوت يكاد يكون غير مسموع: دعك من الشرقيين ومن أحكامهم ولعناتهم الآن وأطلب لي الدكتور حالاً.

ثمَ علا صوته فجأة كالمستنكر يشرح وجهة نظرته بكل حزم واعتداد وكأنه تناسى الألم فقال:

- ومن ثمَّ ماذا تقول؟ ها، وهل هناك عمر بعدَ الخمسين يا رجل؟!.
واستطرد:
- أرجوك قل كلامًا آخر قد أصدقه!.
فيصرخ بسيد ماير دونَ وعي كالمجنون وكأن روحه ستزهق:
- آه رأسي يكاد ينفجر، فأنا لم أذق طعم النوم منذ أيام.
ثم دعا بعتاب:
- يا رب ما هذا العذاب الذي تمتحنني فيه؟! وما هذه الحياة التي يحيياها الرجل منا بعد الخمسين؟!.
ثمَ ينظر إلى سيد ماير بدقة دونَ أن تطرف عينه، فيسأله فجأة:
- ماذا يريد أو ينتظر الإنسان أكثر وهو في الخمسين؟!...
فيجيب على تساؤله كعادة الرجل العربي دائمًا:
- قريبًا سيقول الوداع ومعَ السلامة!.
ثم أردفَ وهو ما زال يحدِّق بعينيه ويقطب حاجبيه:
يا سيد ماير، هل نأخذ زمننا وزمن أولادنا؟!.. أرجوك اطلب لي الدكتور يرحمك الله.

دخلَ الدكتور هانس بوقار كالنبي وسط قومه، ونظراته تسقط على حميد كالمطر النازل من السماء! وهو يقول:
- ها يا سيد هميد ماذا تشعر؟
أجابه حميد وهو يلهث ونفسه مقطوع، كالذي يركض وقال:
- الصداع الذي يقرع في رأسي كالمطرقة على السندان، أرجوك يا دكتور ساعدني وأنقذني من حافة الموت الأكيد.

- آه منكم أنتم الشرقيون، يا أصحاب الحضارة والأنبياء والسحر والتناقض الصارخ؛ تحبون الشيء وتمقتونه في نفس الوقت، ترغبون في الحياة وتتحدثون عن الموت، تحلمون بالرفاهية والغنى وتقولون: يدخل المؤمن الغني إلى الجنة زحفًا!...

ثمَ يسألهُ بخبث:

- ها قل لي إذن وبحق الأبالسة والشياطين ما الذي يؤلمك؟

يقاطعه حميد بعصبية وهو يئن:

- يا دكتور أرجوك، قل كلاما آخر.

ثمَ أردفَ مستنكرًا:

- ماذا تنتظر من رجل قد تجاوزَ الخمسين عامًا؟ انظر لي جيدًا (وهو يهز رأسه يمينًا وشمالاً) فأنا عاجز عن الحركة ولا أقوى على أداء أي عمل.

يتجاهل الدكتور ما سمعه ويسأله بحدة واضحة:

- هل تمارس الرياضة الصباحية؟..

ثمَ يستمر باستجوابه كالقاضي في قاعة المحكمة:

- هل أنت مدمن على التدخين وشرب الكحول؟

ويستطرد بانفعال وكأنه قد تلقى الأجوبة، ثمَ واصل بنفس الرنة الجدية الحازمة:

- آه من لعنات أفكاركم الغريبة، فإنكم تحتسون الكحول بغية السُكْر، ونحن نبتغي المتعة وشتان بين الأمرين!...

واستمر يلقي الأسئلة دونَ هوادة وهو ممتعض:

- هل لديك علاقات صداقة، وتذهب إلى الأندية في المساء؟ وهل تقرأ كثيرًا؟ فالقراءة تجعل الذاكرة نشطة ومتحفزة دائمًا وتبعد عنك مرض النسيان!.

حميد ينظر له باستياء، ثنى شفتيه، وبدا وجهه متعبًا، شاحبًا بعدَ أن أضناه السهر فقالَ وهو يحاول الابتسام جاهدًا:

- دكتور أي رياضة تتحدث عنها؟ وهل أنا في العشرين كي تقول لي ذلك؟!.

ثمَ دمدمَ بصوت منخفض مستغربًا وكأنه يخجل:

أمارس الرياضة قال، واستطرد ساخرًا: أما أمركم عجيب أنتم الأوربيون!.

احمّر وجه الدكتور غيظًا كمن يشعر بالإهانة، فرفعَ درجة صوته وهو يدقُّ على الطاولة بقوة بقبضة يده وهو يلوِّح بسماعة الفحص عاليًا وكأنها بيرقًا! وقال:

- ماذا تريد أن تقول؟

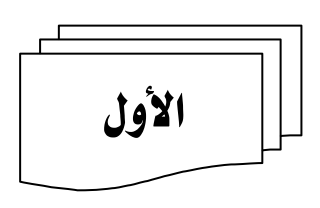
يجيبه حميد متفائلاً:

- الحقيقة، أقصد، في الواقع أريد أن أقول، إنَّ الإنسان لا يتوجب عليه أن يأخذ زمنه وزمن أولاده! وها أنا أمامك، أقول للحياة معَ السلامة... ثمَ يتغير صوته فجأة ليصدر توسلات مخجلة كالتي يطلقها في بعض الأحيان الشحاذ الذي لم يرزق بشيء طوال النهار! فأردفَ قائلاً:

- ساعدني أرجوك، بالله عليك، خفف آلامي أولاً.

يفقد الدكتور أعصابه بعدَ أن طاف كيل صبره، وهو يحاول أن يقنع مريضه بأنَ الحياة لا تعرف عمرًا كي يعيشها الإنسان بزهو وراحة وسعادة وهمة ومتعة، فقالَ وهو يهز كتفه وكأنه يضحك:

- انظر يا عزيزي سيد هميد: أنا في السابعة والسبعين، وما زلتُ أمارس عملي، وأذهب مساءً بعد العمل لممارسة لعبة التنس، وألتقي معَ أصحابي في النادي وأتسامر معهم وأحتسي كأسًا من الجعة، ثمَ أرجعُ قافلاً لمنزلي لأقرأ فصلاً من كتاب قبل النوم، كي أنهض عند الفجر في السادسة، باكرًا، نشطًا، كي أمارس السير على أقدامي ساعة وبعض الساعة، لأخذ حمامًا ينعشني ويجعلني أتوق لأنَ أعيشَ يومي متفائلاً، فرحًا، سعيدًا ومغتبطًا!.
ثمَ صوَّبَ نظره بقسوة نحو حميد واستطرد قائلاً:
- وأنت وبهذا العمر المليء بالحيوية والنشاط وتبكي وتصرخ: سأودِّع الحياة هكذا لمجرد صداع يضربُ رأسك؟!، يا رجل... وهو يلوِّح بيده ويقول صاخبًا: امش امض ابتعد عني أرجوك، لأذهب لمن هو أحق لي بزيارتي له.
ثمَ أردفَ بكل وقار وصدق:
- علاجك يا سيدي بينَ يديك وليس عندي!..
وهو يدمدم:
- إنها لعنة حلَّت عند الشرقيين دونَ استثناء! أستودعك الله...
ثم مضى.



جاءَ سرحان إلى قومه يسعى كالثعبان، بخيلاء وتعالٍ عجيب، وهو يهتف بكبرياء لا يعود له ولم يحسن تمثيله!.. فصاح بأعلى صوته وبغرور دونَ مناسبة، كالسكران، فقال:

- أنا الأول في كل شيء، أنا العارف والعالم والصادق والزاهد والحكيم الذي لم يتخذ من الشرور أي مذهب في حياته...

ثم توقف للحظة ليسترد أنفاسه الضائعة وتابع بنفس الرنة المجنونة قائلاً:

- أنا الريح فوق البحر، والمطر حين يدر، والقمر عندما تغرب الشمس، والشمس عندما يختفي القمر، وأنا السميع البصير العليم.

لقد كان سرحان المغرور المتكبر غارقًا في صياحه، وكأنه قضاءٌ محتوم، والذي بدا ليس له من نهاية، والزبد يخرج من فمه أكوامًا...

عندها قاطعه قومه وهم خافضو البصر في حياءٍ وأدب، ورددوا جميعهم بصوتٍ واحد، وكأنهم يصلون:

- نحن نعلم يا هذا من أنت وما تكون، ولا نحتاج لمن يقول لنا ذلك!!.

ثم واصلوا دعاءهم (أقصد كلامهم) قائلين باستخفاف:

- أنت الذي ولدت قبل أن يكون الله، لأنك الأول في كل شيء!!..

ثم رددوا في تسليم، وكأنهم يستغفرون ربهم:

- اللهم لطفك وعطفك، اللهم أبعدنا عن زلات اللسان، ولا تصبنا مما أصبت به الشيطان من غرور أخرق وتكبر أجلف، واقضِ بما أنت قاضٍ..

ثم رددوا بجرأة غير متكلفة:

- انظروا له لا أحد يصدقه، وكأنه يمثل دور الخرافة علينا.. أثقل الله رأسه بالهموم.



دعا محمد صديقه عدنان الذي يشاركه الصف في المدرسة، بعد أن أنهيا واجباتهما المدرسية على أكمل وجه؛ فرحَّب عدنان بالعرض المقدم له وقبِل الدعوة، خاصة بعد أن اعتدل الجو وانخفضت الحرارة قليلاً.

رحَّب محمد بصديقة بابتسامة صادقة وهو يقول له:

- هيا لنستمتع بوقتنا ولنلعب كما نشاء، وهذه هي فرصتنا، والدار كما ترى ليس فيها سوانا وأختي سمر التي تراها أمامك.

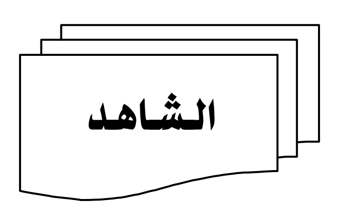
لم يلق عدنان بالاً لأخته، وركَّز جُلَّ اهتمامه باللعب مع صديقه الحميم... وسرعان ما نسوا أنفسهم تحت وطأة سحر اللهو الطفولي البريء الرائع، وهما اللذان لم تتجاوز أعمَّارهما الثانية عشر بعد.

توسطت سمر التي تجاوزت الرابعة عشر من عمرها باحة الدار وهي في كامل زينتها البراقة، بعد أن جلست على كرسي خشبي عريض، يسع لشخصين على الأقل! واضعة رجلاً على رجل وكأنها في مقهى؛ ولم يكن لها من همٍّ أو شاغلٍ سوى قصف صديق أخيها بنظرات إغراء ذات مغزى واضح، وبقيت هكذا لا يزوغ نظرها ولا يهن أو يتعب! حتى دخل عليهم أخوها الكبير "علاوي" كالأسد وهو يزمجر بأعلى صوته وبأقصى قوة تملكها حنجرته:

ـ ما هذا الذي أراه أمامي؟! لتأخذكم مصيبة ولتلتهمكم العفاريت الزرق التي لا ترحم... اغربوا عن وجهي، هيا... وهو يقذف بكيس الفاكهة الذي كان يحمله بيده نحو أخته بعد أن طفرت الشتائم من فمه كالرذاذ.

جفل عدنان من منظر علاوي الغريب وجعله يتراجع إلى الوراء خائفًا وأطرافه ترتجف، وإذا به ينسحب بهدوء كالسارق من دار صديقه دون أن يودِّعه... ثم أطلق ساقيه للريح وهرب دون أن يأتي بجناية أو يفهم الموقف، ليبدو كالأعمى الذي لا يرى ما بين يديه!!.

وعندما تذكر عدنان الموقف وهو في الحلقة الرابعة، ضحك بملء فمه ما كان يعنيه علاوي وما الذي جعله يغضب هكذا كالثور المجروح، ولماذا كانتْ أخته تجلس كالتمثال في حينها وهي في كامل زينتها التي لم تثر فيه وقتها أي شعور أو رغبه نحو الجنس الآخر.. وهو يلعب مع صديقه ببراءة في ذلك العمر.



يقول ابن المعتز :

إن للمكروه لذعة همٍّ ، فإذا دام على المرء هانا

كان الحرُّ يقصف ساعات الصباح الباكر دونَ هوادة أو رحمة؛ والجلسة التي كانتْ تنتظرها "نضال" بصبرٍ نافدٍ جاء أوانها.. وها هي معَ زوج أختها الكبرى يجلسان في مقدمة قاعة المحكمة، في حين انتظر أخوها رعد في الخارج (نصف نائم وهو ما يزال يتثاءب بملل).

صرخَ حاجب المحكمة، كعادته بصوت رنان: محكمة... فوقف كل من كان موجودًا في القاعة، ودخل القضاة بزيهم الرسمي الوقور، ثم جلسوا، فجلس الآخرون وكأنهم يقلِّدون حركاتهم!.

نظر القاضي الذي كان يتوسط طاولة القضاة المرتفعة شبه المستديرة، إلى الأوراق التي أمامه، وطلب من الحاجب أن ينادي على الشاهد "رعد جبار"... ولبى الحاجب الطلب ونادي بأعلى صوته: الشاهد رعد جبار...

دخل رعد بخطى ثقيلة وكأنه خائف، تثاءب مجددًا وهو ينظر لما حوله، ثم استقر نظره إلى صهره جاسم الذي ما أن رآه حتى أحسَّ بشيءٍ من الطمأنينة...

خاطبه القاضي بنبرة حازمة:

- قل والله العظيم أقول الحق.

تلفت رعد بريبة وذهول، ثم نطق:

- سأقول الحق والله!.

- قلت لك جملة واضحة، وما عليك إلا أن تعيد ترديدها كما سمعتها إن كنت صادقًا، ولا تريد إلا أن تُدلي بغير الحقيقة!.

- ثم قال مكررًا: قل والله العظيم أقول الحق.

- والله العظيم أقول الحق... (قالها بشجاعة كاذبة)

ثَم بدأ القاضي بسرد قصة نضال وما جاء في طلبها بحق زوجها التي تريد الانفصال عنه... وما أن انتهى من السرد، باغت رعد بسؤاله:

- اسمك وسنك؟

ضحك رعد في داخلة من طريقة السؤال، وهاله ما رآه من منظر لا يحمل في طياته سوى الجدية والخشوع، وأجاب مترددًا:

- أنا رعد جبار، وعمري ثمانية عشر عامًا.

- قل ما تعرفه بهذا الخصوص... (وهو ينظر إليه من وراء عدسات نظارته الطبية السوداء).

نظر رعد إليه باستغراب وحيرة، ولم ينبس بكلمة.. وطال الانتظار والصمت، كأنما أجهده تعب الحديث!!.

- قلتُ لك يا بني أن تذكر لي وللسادة أعضاء المحكمة كل ما تعرفه بشأن قضية أختك...

وردَّد بصوتٍ لا يسمعه سواه:

- متعني الله بنعمة الصبر، خشية من الغضب والانفعال الذي قد يصيبني، وأنا استمع لشخص لا حول له ولا فطنة!.

زاده قول القاضي سوءًا وذهولا، وهو يمعن النظر إلى أخته التي تنظر له برجاء مفرط صامت وتحثه على الكلام دون أن تنبس، وكأنها تريد أن توقظ فيه الحنان الأخوي المستكين والقابع في داخله!... ثم رمق صهرهم بنظرة مستفسرة، وجاءه الرد حاسمًا:

- اشرح يا رعد لسيادة القاضي المأساة التي تعيشها أختك تحت وطأة ظلم وقهر زوجها السكير المعربد (س.ح)..

- ثم أمره مقتضبًا: قل ولا تخف أو تتردد.

- نعم، سأقول ما أعرفه...

ثم تردد قليلاً، وكأنه نسى ما يريد قوله، تثاءب قصيرًا ثم قال باستخفاف عجيب:

- يا سيادة القاضي، أنا أكون الأخ الصغير لنضال، وهي تعيش منذ مدة قصيرة في دارنا بعد أن غضبت من زوجها وعادت لنا كما هو الحال في كل مرة...

ثم صمت وهو ينظر لأخته بوجوم.

انتفض جاسم من مكانه، وتدخل محامي نضال مباشرةً بقوله:

- ما هذا يا رعد، يا رجل قل كلامًا أكثر واقعية وصدقًا، فنضال هي بالتالي أختك، ويجب أن تحميها من شرور زوجها، لا أن...

ولم يمهله القاضي الوقت لإتمام جملته، فقاطعه بصرامة قائلاً:
- لا تؤثر على شهادة الشاهد.
ثم أردفَ بحزمٍ قاسٍ:
- اجلس، كي نكمل...
وأشار لرعد بيده الطويلة التي تشبه مجداف زورق:
- تابع يا ولدي ما تريد قوله.
عبس رعد وهو يهم بالكلام، ثم هتف دون خوف أو تردد، وكأن الوحي نزل عليه فجأة، بعد أن نفض عن نفسه الارتباك والحياء:
- سيدي القاضي، أنا ما زلتُ في المرحلة الإعدادية من دراستي المتعثرة!.. كنتُ غارقًا في النوم رغم موجة الحر اللعينة القاسية، لكنني لم أتأثر كثيرًا ولم ألق بالاً لحرارة الجو، وبقيتُ أستمتع بنوم هادئ عميق؛ وكأنني في الفردوس!...
توقف للحظة (خطف فيها النظر لأخته القاطبة المتوترة) ثم استطرد دون مبالاة:
أفقتُ على صوت صهرنا جاسم وهو يهدر بقوله: انهض يا بليد، يا عديم الإحساس بالآخرين استفق فأختك بحاجة لمساعدتك انهض ولا تجعلنا نتأخر أكثر.
أفقتُ يا سيادة القاضي ولم أستيقظ!.. وكما ترى فأنا مازلت أتثاءب، وكأني سأذهب للنوم مجددًا؛ لم يخبروني إلى أين، ولا حتى الموضوع الذي من أجله سقت، لقد حضرت كما يحضر الأسير للاستجواب! فأنا لم أعلم لماذا أنا هنا، ولم أدخل من قبل قاعة محكمة ولك أن تقدر ظرفي وحرجي وخجلي...

ثم توقف للحظة، كأنه يقيس تأثير كلماته على القاضي.. بعدها استطرد بانفعال حقيقي قائلاً:

- ليغفر الله لي سوء تصرفي وليعاقبني على بلادتي الخائبة!!

قاطعه القاضي موضحًا:

- أنت هنا مجرد شاهد، نريد منك فقط أن تقول ما تعرفه عن علاقة أختك بزوجها وكيف كانتْ...

ثم أردفَ بوضوح:

لا نطلب منك شيئًا كثيرًا أو مستحيلاً.. هيا يا بني، قل لنا ما تعرفه، وسوف لن يقاطعك أحد.

نظر رعد له بحيرة وتساءل بجدية:

- أنا شاب لم أهتم يومًا بشؤون غير شؤوني! ولم أتدخل في أمور غير أموري الشخصية، ولم أستشر أحدًا في قضية.. وهكذا أنا، وما زلتُ، فلماذا تطلبون مني أن أكون على غير ما طبعت وجبلت؟.. إنه شيء عسير وصعب، فأنا أُتهمتُ كثيرًا من قبل أهلي باللا مبالاة والآن تطلبون مني أن أكون واضحًا، مختصرًا، شارحًا ودقيقًا.. وهذه كلها أمور ومزايا لا أتمتع بها ولا أتخذها مذهبًا لي!.. فكيف أستطيع مساعدة أختي وأنا على هذا الحال؟!.

ثم بكى وتراجع إلى الوراء متعثرًا بخجله وحيائه، وكأنه ينوي الاختفاء أو الهرب!!

ضرب القاضي الطاولة التي أمامه بمطرقته بقوة، كما يطرق الحداد بمطرقته على السندان! بعد أن تغلب الحنق على غروره وفطنته وخبرته، وصاح بصوت جهوري، وكأنه في ساحة قتال:

- نظرًا لعدم كفاءة الشاهد في إدلاء الشهادة.. تؤجل الجلسة إلى يوم التاسع عشر من الشهر القادم، لحين الاستماع إلى شهادة الشهود في هذه القضية، على أن لا يكون هذا الشاهد والمدعو رعد جبار أحدهم!!.

ثم صرخ:

- تُرفع الجلسة.



قارئة الفنجان

لم تكن "سناء" قبل هذا الوقت حزينة أو متألمة بهذا القدر الرهيب الذي تعاني منه اليوم، وهي تحت وطأة ذلك الشعور القاسي الذي تغلَّب عليها وملأ كل كيانها شعور غريب، كالخرافة لا تعلم من أين أتاها، كان أثقل من المرض عليها وأقسى من الموت نفسه!.. مفاده بأن هناك من يتربص بها أو بزوجها!.. فعاشت الصمت والتأمل وغرقت في هواجس شيطانية مريرة... فنصحتها زميلتها في العمل وهي تقول لها كصديقة:

- سوف لن تخسري شيئًا، بل العكس تمامًا، ستفوزين بمعرفة سر قلقك وما يخبئه لكِ المستقبل.

ثم أردفَت متابعة:

- اسمعي كلامي وخذي بنصيحتي واذهبي إليها وبعدها ستشكرينني وتكافئينني على معروفي هذا!.. جربي زيارتها فهي ذائعة الصيت في المنطقة الشرقية من بغداد، إنها سيدة كريمة وعليمة وتفقه ما تخبئة القلوب وما يدور في النفوس من نوازع وشعور.. إنها قارئة الفنجان.

تزوجت سناء من فرحان (المهندس الزراعي) منذ فترة لم تتجاوز السنة، بعد علاقة حب طاهرة كلفتها سيلاً من الدموع والأرق وأيام

من السهد والحيرة... كان زوجها يتمتع بجمال الشكل وطيبة الأخلاق، فارع الطول، عريض الصدر، واضح الملامح، مهيب الطلعة، يتقدمه شارب قروي غليظ، تنطق عيناه بنظرات يملؤها الوقار والحزم وكأنها تعود لقائد، يحب النظام حدَّ الإدمان، طموح وله هوس في الموسيقى، على الرغم من أنه لا يجيد العزف على أية آله موسيقية، لكنه كان يتمتع بذوق وحس وثقافة موسيقية عالية الجودة، وكأنها تعود لملحن قدير محترف!.

تذكرت سناء الأيام التي تلت زواجها والسعادة، التي كانتْ تغطِّي كل ركن من أركان حياتها، حتى غزاها ذلك الشعور مجددًا وهي جالسة في مكتبها بوزارة التربية حيث تعمل، متفكرة بهدوء وعمق في كلام زميلتها... وفي لحظة شاردة خرقت صمتها الذليل المهين، الذي طال، فقرَّرتْ بانفعال مكتوم وغيظ طائش؛ بعد أن تنفست بعمق وقالت محاورة نفسها: سأذهب لمقابلتها دون تردد، ولأموت بعد ذلك فلن أخسر شيئًا ولن أندم، وهذا هو قراري ولن أعدل عنه. لكنها لم تظن في تلك اللحظة الحاسمة عندما قررت فيها زيارتها، بأنها ستنزلق إلى محنة أتعس وأشقى من محنة شعورها ذاك الذي تعاني منه.

بدت سناء وهي على هذا الحال كمن يرمى بالجنون؛ فهمست في سرها مختنقة: أحتاج إلى قدرة خارقة للسيطرة على نفسي الآن فيما يبدو؟! تبًا لي على هذه الأفكار المحبطة التي تنتابني والتي تروم حولي وترقص في داخلي رقص العفاريت!.

ثمَ حزمت أمرها وحقيبتها وغادرت الوزارة على عجل ودون أن تبلغ أحدًا، وكأنها سرقت شيئًا وتحاول إخفاءه! وهي تردد مع نفسها: لما كانتْ المعجزة إذن.

توجهت إلى المنطقة الشرقية من بغداد التي تقطنها العرافة تلك السيدة التي لقبت بالعرافة عن جدارة بعد أن فاقت شهرتها أركان محلتها وذاع صيتها في قراءة الفنجان والتنبؤ للمستقبل حتى بات روادها من كبار الموظفين والتجار الميسورين، وقد كتبت عنها الصحافة مقالات عده تمجد بطولاتها! فأصبحت بمرور الوقت أكثر شهرة من الدينار العراقي نفسه، ليس في اقتنائه بل في صحبته، وبات سعر أتعابها يفوق سعر معاينة أفضل الأطباء علمًا وشهرة!!.

دخلت منزل العرافة بعد توسلات عديدة بالخادم، وبعد أن نقدته مبلغًا محترمًا، سمح لها بالانتظار... لقد كانتْ صالة الانتظار شبه مظلمة، وكأنها كهف بأضواء باهتة؛ جلست على مقعد عريض، مريح الوسادة وغاصت فيه.. ثم قدَّم لها الخادم القهوة المُرة في فنجان تركي مزخرف الحافة بلونين الأزرق والأبيض، وقال لها قبل أن ينسحب:

- احتسي القهوة كلها، ومن ثمَّ أطلبي ما تتمنين وما جعلكِ من أجله تأتين، ثم اقلبي الفنجان دورة كاملة بدءًا من جهة اليسار، واحذري من قلبه بالاتجاه المعاكس وإلا ستحل علينا اللعنة جميعًا.

انتظر وقع كلماته عليها ثم تابع مستطردًا:

- وضعيه على الصحن مقلوبًا لينعم بالهدوء والسكينة لتجف رواسب القهوة وستناديك العرافة بنفسها متى فرغت.

ثم تركها تعاني الوحدة في خلوتها مجددًا.. وغادر الغرفة، بصمت كالظل.

قالت والفنجان بين أصابعها يرتجف بارتجاف يدها هامسة تحدث نفسها: يوحى لي بأن الإذعان لمطالبهم في حالتي هذه منجٍ من الكدر الذي أعاني منه!.

ثم رفعت الفنجان نحو فمها وارتشفت القهوة بنهم غريب وكأن فيها يكمن سرُّ حياتها أو شيطان شفائها!.. ولم يبق فيه سوى الرواسب، وفعلتْ ما طُلب منها، ثم سلمته إلى الخادم ثانيةً، وبقيت تنتظر بقلب ملتهب، متمرد وبروح منهارة، حائرة وبعقل خاوٍ لا يعلم من أمر صاحبته شيئًا... وامتد فيها الزمن ليصبح دهرًا بالنسبة لها وهي تنتظر دخولها إلى العرافة.. شعرت بالغثيان وتسلل الاكتئاب إليها بطيئًا كعمر الدقائق التي تمر عليها، فأخذتها هواجسها بعيدًا فسرحت في خيال كثيف، كالضباب وهي تستعجل اللقاء.

فجأة سمعت من خلف الباب الذي يفصلها عن الغرفة الأخرى (تلك التي تخرج منها روائح عطرة ساحرة):

- تفضلي بالدخول.

جفلت للحظة لدى سماعها صوت امرأة وهي تناديها وتسمح لها بالدخول إليها، لقد شعرت برجفة خفية في جسدها من الرنة التي ذكرتها بصوت صفير الريح نهضت بتثاقل شديد وكأنها تساق للإعدام.. ودخلت متعثرة في خوفها الغرفة التي رأت فيها امرأة لها وجه غامق موسوم بالدهاء والحيلة، وعيناها تنطق بنظرات يحتار في تفسيرها كل من يراها، وكأنها لساحرة، متربعة وتتوسط

وسادتين كبيرتين على الأرض، وأمامها طاولة نظيفة تلمع، فكأنها معروضة للبيع! قصيرة الأقدام، كتلك التي يتناول المصريون البسطاء عليها طعامهم؛ زاهدة السطح، إلا من مبخرة كثيفة الدخان، عالية السحب والفنجان الذي احتست منه قهوتها قبل قليل.

أشارت لها العرافة بيد طويلة كقصبة مكنسة، بالجلوس وهي تقصفها بنظرها دون رحمة أو هوادة، مما جعل سناء تنهار تمامًا لتلعن في سرها اللحظة التي قررت فيها مقابلتها، ولكن استعادت هدوءها ونشاطها بعد أن سمعت مجددًا نبرة صفير الريح وهي تردد بعطف كاذب:

- هلا جلستِ هادئة لتصغين لما سأقوله لكِ.

ثم أردفَت بحزم صادق:

- هناك من يتمنى جلستي هذه ويدفع لقاءها الغالي الذي يملكه.. إنك محظوظة في مقابلتي، لا تنسي ذلك أبدًا.

ثم أدارت الفنجان وهو غارق بين يدها اليمنى... وفجأة قطبت وتغيرت لهجتها من مسالمة وادعة إلى متشنجة مباغته، وصاحت كصراخ قطة دون أن تطرف:

- إنكِ فتاة متزوجة... (قالتها وكأنها بقولها هذا استوفت مزاجها).

فقاطعتها سناء بغباء وهي تغمز بعد أن ضحكت على رغمها:

- هذا واضح من الخاتم الذي في أصبعي.

فرفعت العرافة درجة صوتها، ليخرج الكلام من فمها هادرًا كصوت الموج وهي تقول بلا مبالاة لما قالته سناء للتو:

- إنه يستغفلك ويلعب بمشاعرك، ولم يكن يومًا صادقًا معك.

ثم غرقت في النظر نحو الفنجان الذي يتمتع بدفء كف يدها اليمنى.

جفَّ حلق سناء فجأة وغصت بريقها وهي تشهق وصاحت دون وعي وفي تسليم:

- ماذا تقولين؟! يستغفلني!!

- نعم، يستغفلك... (أجابتها العرافة بإصرار وبنبرة ملأتها المرارة المصطنعة)... ثم أردفَت بحزم: إنه يخونك وأنتِ لا تعلمين!!

ضربها الذهول كالإعصار، فضربت صدرها بيدها بقوة وهي تصرخ باستهانة وجنون:

- ماذا؟! يخونني!! لقد توقعت ذلك وحدسي لم يكذب.. لقد كانتْ الرؤيا والشعور بالنفور من الناس والحياة كلها لم يأت عن فراغ، وها أنتِ تؤكدين ظني، ويا ليتك كنتِ خاطئة، أو قراءتك لفنجاني ليست صحيحة.

وبدت وهي تتكلم وكأنها تهذي، كالمصاب بالحمى، والدموع كانتْ قد غزتها بكرم مفرط، ثم استولت عليها ضحكة حادة غير متوقعة كفرقعة السوط في الهواء.

- هوني عليك يا ابنتي... (قالتها العرافة بحنكة توهم المرء الذي يحادثها بأنها صادقة وكأنها أم تحث ابنتها على الصلاح)... ثم استطردت بتأثر زائف:

- انتظار وقوع المصيبة أقسى من المصيبة ذاتها، وأحمدي الله على أنكِ عرفت هذا اليوم قبل الغد كي تقررين ما ستفعلين.

ثم صمتت وكأن الخرس أصابها فجأة.

ندبت سناء حظها العاثر بغضب وحنق جنوني والشرر يتطاير من عينيها اللتان أثقلتهما الدموع، ثم دمدمت بكلمات لا معنى لها وقالت متسائلة بحزنٍ قاسٍ:

- هل أنتِ متأكدة؟!

ثم واصلت بنفس الرنة:

- أقصد هل عنيتِ حقًا ما تقولين؟! إنه كلام خطير ويمكن له أن يهدم كيان أسرة آمنة!.

ثم دعت على زوجها بحرارة قائلة:

- يا رب ليكن جزاؤه من جنس أعمَّاله، أنت السميع البصير.

وبكت بمرارة لا تقاس ولا توصف بالكلمات.. والعرافة تنظر لها تارة، وللفنجان المستقر بين أصابعها تارةً أخرى، دون أن تنبس.

نقدت سناء العرافة أجرتها المرتفعة وهي شاردة الذهن، متوترة الأعصاب وأطرافها بالكاد تستطيعان حمل جسدها وفرَّت هاربة، وهي لا تلوي إلا على شيء واحد: ضبط الزوج الخائن الملاك الذي تحول فجأة إلى شيطان وهو متلبس بجرمه.

سارت في الشوارع دون وعي، كالحالمة بشقاء مميت ومندفعة بقوة طائشة وبنسيان تام للعواقب؛ وهي تلعن زوجها الخائن في عُرفها وعُرف العرافة، ثمَ توجهت إلى مكان المشروع الزراعي في المنطقة الغربية من بغداد - حيث يعمل زوجها- وهناك لاحظها زميل زوجها المهندس جعفر وعرفها مباشرة (لأنه سبق له وأن رآها في حفلة زفافها، بعد أن دعاه زميله فرحان عن طيب خاطر) فرحَّب بها وسألها إن كانتْ لا تمانع من شرب الشاي معه لحين

عودة زوجها من حملته التفتيشية اليومية لمفاصل المشروع الذي يعمل فيه مهندسًا.

وافقت دون تردد وهي شاردة الذهن.. ثم جلسا متقابلين حول طاولة مستطيلة يعلوها التراب والطين وتظللهما خيمة حمتهما من أشعة الشمس المباشرة... وتحدثا بأشياء كثيرة وخرجا، من المكان وهما يقولان في سرهما: ما أجمل الوقت الذي قضيناه وما أقصره!!.

ثم حضر زوجها وهو يبتسم بصدق لزوجته التي فاجأته بحضورها غير المعلن؛ فسألها مستفسرًا:

- ما الذي أتى بكِ يا سناء؟! هل هناك مشكلة؟!

- كلا، لقد شعرتُ بالحاجة إلى أن أتنفس هواءً منعشًا خارج الوزارة وقد وجدتُ هذا المكان هو الأنسب لي!.

ثم بادرته بسؤال خبيث:

- ألم تعجبك المفاجأة؟!

وتابعت دون أن تتلقى الجواب:

- من ناحيتي لقد أعجبني المكان جدًا، وحتى زملاؤك كانوا معي طيبين وكرماء!.

نظر لها فرحان باستغراب من طريقتها في الحديث وتلهفها من المجيء إلى مكان عمله، وإطرائها الغريب على زملائه، فقال لها كالمعاتب:

- لقد أنهيتُ حملتي المعتادة ويمكننا الذهاب الآن.

وأمرها بلطف:

- هيا لنخرج من هنا.

لم ترَ على زوجها أي علامات توحي أو تشير إلى الخيانة!، لكنها كانتْ مقتنعة تمامًا بأن زوجها كان يستغفلها ويلعب بمشاعرها، فلم تتراجع ولم تفكر إلا بالرد الحاسم الذي يثأر لكرامتها التي أُغتصبت... في حين كانتْ كلمات زميله جعفر ترن في أذنيها كالطنين وهي تردد: ما أجملك من فتاة، رائعة ورقيقة وتشبهين الفراشة إلى حدٍ بعيد.. وقد استقبلت كلماته بعفوية وبرضا لم يتوقعه جعفر أبدًا، خاصة بعد أن ضربا موعدًا أخر للقاء خارج أسوار أرض المشروع... فانغرست أرجل سناء في وحل الخيانة، وتناست بسرعة عجيبة وكأن ذاكرتها فقدت مزايا كثيرة لا يستهان بها!.. ما كانتْ تعاني منه من ألم وقسوة شعور مزعوم من قبل قارئة الفنجان التي لا تحب إلا الدينار، وهي تحذرها وتندد بخطر وقدر خيانة الزوج لها.

أفاقت سناء فجأة، وكأنها استيقظت للتو من كابوس ملأ عليها حياتها غمًّا وكمدًّا (وهي ما زالت جالسة تنتظر دورها للمثول بين أيدي قارئة الفنجان) على صوت الخادم وهو يرجوها ويحثها على الدخول...

نظرت له باستغراب، وكأنها تراه لأول مرة!.. وبقيت ساهية، مترددة لا تقوى على الحركة، خائفة لما قد تؤل لها حياتها من سقوط لو لم ترجح حكمة العقل ومنطقه.

كرَّر الخادم توسلاته وهو يدعوها للدخول بقوله:

- أستاذة سناء، ست سناء، لقد جاء دورك، أرجوكِ، فهي في انتظارك، ولا تجعليها تغضب أو تثور

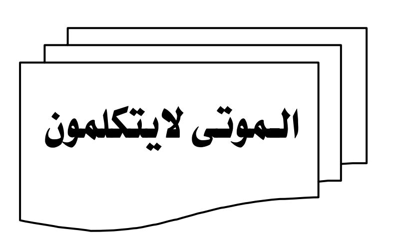
رفعت رأسها إلى الخادم وهي في حالة ذعر وذهول، وهمست بصوت مخنوق لا يكاد يسمع، وكأنها تحاور الهواء:

- كيف سمحتُ لنفسي أن أحضر إلى هنا؟! تبًا لي من امرأة حمقاء، لا عقل لها!!.

ثمَ تابعت على نفس الوتيرة المتشنجة، النادمة:

- لقد بالغتُ في تصور شعوري الذي جعلته مأساة حتى تهيأ لي بأن هناك من يتربص بي أو بزوجي... آه، أفسدت على نفسي نعمة الحب والحياة، وفرحان يحبني، وأنا كذلك.. إذن يجب أن أستدرك نفسي قبل أن أتمادى أو أنهار.

نظرت حولها بخفة ساحر، ثم اندفعت سريعًا نحو الخارج، كأسير أفلت من أسره! وهي تلهث بحنق وغضب، وقلبها مفعم بالسخط على سفاهتها التي أوصلتها إلى قارئة الفنجان... والخادم يتابعها بنظرات استغراب حائرة، ثم تختفي من أنظاره دون أن تنظر وراءها، فالزيارة ستكون بعد ثوانٍ ماضيًا لا تحب أن يتكرر لها.



"عبد الأمير التقي"، ذلك الشاب الوسيم الذي خُلق بوجه امرأة رائعة، فاتنة الجمال، في صوته رنة تشبه رنة الذهب، وفي ضحكته جاذبية غريبة لا تُقاوم، كسحر العرافين؛ عيونه الزرقاء بلون السماء، تفيض حبًّا وسماحةً وأمانًا، يغرق كل من يراها في بحر هادئ بلا شطآن، حاجباه سيفان من الفولاذ المصقول... متفائل طوال الوقت، ولم نعرف عنه يومًا، بأنه تذمَّرَ من شيء، متفوق دراسيًا بشكل يثير الحسد والإعجاب، يتمتع بأخلاق عالية، تقي ومؤمن وكأنه من أولياء الله الصالحين... ببساطة شديدة لقد كان متألقًا كالماس، ساحرًا كالشذى، ذائعًا كالهواء، رقيقًا كالزهرة، خجولاً كالنبض، حكيمًا كالنبي، وخارقًا كالطبيعة.

غالبًا ما كان يردد كلامًا مؤثرًا يبقى في النفوس كالوشم على اليد فيقول بتواضع ساخر:

- ملعون من يلعن الدنيا.

ثمَ يهتف بفرح كالطفل:

- الحياة فيها الكثير من الجمال والفتنة، وعلى المرء أن يتمتع بهذه النعمة مادامَ حيًا يرزق.

لم يتجاوز بعد ربيعه التاسع عشر، الوحيد لأمه التي تزوجت قبلَ سنة بعدَ وفاة أبيه الذي ظلَّ يصارع المرض لسنوات طوال، حتى وافاه الأجل.. وتعرقلت حياتها فيما بعد بسبب أصولها الإيرانية التي انحدرت منها، فلاقت ما لاقت من جراء قانون التبعية والهجرة القسرية التعسفية الذائعة الصيت في العراق حينذاك.

ظلَّ عبد الأمير محطَّ أنظار أهل محلته، وقد تعلقت قلوب العذارى به جميعًا لفتنته وحسن سلوكه، لكنه لم يكن يعاملهن إلا بالحسنى دونَ أن يفرق بينَ أحداهن، لم يكن يفكر بمكر، ولم يسرح خياله بخداع، كأنه واعظ.. لم يحب إحداهن، بل عشقهن جميعًا، كعشقهِ للرب.

في أحد الأيام الصيفية الجافة القاتلة الحرارة، وحين كانتْ المحلة غارقة في صمت مطبق لتبدو وكأنها مقبرة، غاصة في نوم عميق، وكأن الناس سكروا ثمَ ناموا، أثناء الظهيرة، سمعنا أصواتًا تقصف بعنف كالقذائف؛ تهتف وتنادي:

- أسرعوا يا رجال، لقد شبَّ حريق في دار عبد الأمير التقي.

وأصوات أخرى مجلجلة تصدر عن رجال يصرخون وكأنهم في مظاهرة:

- اتصلوا بسيارات الحريق والإسعاف.

ثمَ علت الأصوات شيئًا فشيئًا وكأنهم يشحذون همتهم، وهم يصرخون:

- اعملوا شيئًا يا رجال، فالدار ستستعر حتى أعمَّاقها في النار.

بينما ارتفعَ اللهب وتصاعدَ الدخان، وانقلبت المحلة التي كانتْ منذ قليل في عداد الموتى، إلى حركة ونشاط وحيوية، بالإضافة إلى الصراخ والعويل والبكاء والنواح شيءٌ غريب كيوم الحساب؛ فالناس يتزاحمون ويتراكضون ويطلبون النجدة والمساعدة وكأن زلزالاً قد ضربَ أرضهم.

شاعَ الحزن كسحابة داكنة، وحلَّ وجوم كئيب مشحون بالسخط الصامت، وخيّمَ السكون الذي له صوت الصمت، والذهول على وجوه الناس وكأنهم مخمورين، سُدَ الطريق وصوّبت الجموع أنظارها الثاقبة، كالسهام وهي تتجه نحو هدفها وهم يتابعون منظر النار التي التهمت دار عبد الأمير كالجراد وأتت على آخره؛ وكأنه لم يكن موجودًا من قبل.. ثمَ دخل بعض الرجال وهم يتحزمون بالعزم والحماس إلى داخل الدار التي لم يبقَ منها سوى جدرانها القائمة السوداء.

فجأة خرجَ الرجال وهم يهتفون بضراوة، كالغربان يتنهدون بصوتٍ قاس، وكأنهم يتلوون من الألم:

- ارفعوه، بل سارعوا إلى لفه بغطاء، فالنار قد شوته تمامًا.

عندها ارتفع الصخب مجددًا، وكأن الحياة قد دبَّت في أجسادهم من جديد، وتعالت الأصوات متأوهة، مترددة وصارخة، ينقبض لها القلب ويشعر المرء بالشقاء والشفقة، وكان أجله قد دنا.

مُدِّد عبد الأمير التقي على الأرض جثة هامدة، مشوهة، وكأنها لا تعود إليه؛ واجتاحت الجموع التي خرجت من منازلها، كما تخرج الثعابين من كهوفها، موجة من الحزن والرهبة القاسية وهي

مسهبة، مكفهرة الوجوه كالغمامة تتنهد وتتجادل، وبدا غضبهم قويًا كالنار التي أكلت عبد الأمير في جو خانق ملوث، كبركان انفجرَ للتو؛ وهي تعلن عن انتحار عبد الأمير التقي!: ماتَ الملاك والنبي والحكيم، وانتحرت الأخلاق.

لكن الأصوات كانتْ تردد كلمة واحدة: لماذا؟ لماذا انتحرَ وجه الخير وتعبير البراءة؟.

ثمَ انتشرت الشائعات بسرعة الشُهب؛ كما هي العادة المتأصلة في الشرق، تعلن وتقول بكل وضوح وكأنها الصدق والحقيقة، جاءت حاسمة كالرصاص قاطعة كضربات الفأس، وكأن الذي مات تكلم!.

فرجال الدين المتدينون قالوا وهم يسبِّحون:

- إنه بالتأكيد قد تعرضَ لأزمة نفسية شديدة الوطأة، كالوباء، وقاسية كرعب الموت، وماكرة كخبث الشيطان؛ نتيجة ابتعاده عن سيرة الإيمان واتخاذه من الشيطان وإبليس مكانًا آمنًا له؛ بعدَ أن سبَّ الدين وتجاوزَ على سمعة الله علنًا وجهارا، ونحن قد سمعناه!! فأخذَ عقابه، عندها سبب الله الأسباب وجعله يدًا تنفذ، ليتخذ طريقه إلى الموت بإرادته.. لقد قتلَ نفسه بعدَ أن قتل روح الإيمان فيه.

ثمَ يشرحون وجهة نظرهم وهم يقولون بارتياب:

- كان شابًا خشن الطباع، سريع النفور، جامد الإحساس وبلا قلب؛ نعوذ بالله منه ومن أمثاله الفاسقين، لقد أنقذنا الله منه ومن شروره.

ثمَ يهتفون من أعمَّاقهم وكأنهم مطربون:

- كان يعيشُ بوجهين: عندَ النهار يبدو وكأنه شمس الصباح، وفي اللَّيل يجنُّ مجونه ويصبح من الفاسدين، كآفة المرض والعياذ بالله.
ثمَ يهدأون وهم يصرحون، وكأنهم يصلون:
- الله على كل شيء قدير!.

بينما صرحَ العلمانيون بحكمتهم المعهودة على مرِّ التاريخ بقولهم:
- لقد كان عبد الأمير التقي رجلاً متعصبًا، متعجرفًا، ولا يعرف في الحياة سوى جهة القبلة الإلهية التي يتخذ منها سبيلاً إلى تسريب أفكاره الخبيثة، فتنتشر بسرعة عجيبة في عقول الناس، كالنار، فتسمِّم حياتهم دونَ أن يفقهوا...
ثمَ يدمدمون بصخب يشبه الضجيج، كصوت انكسار الزجاج، مفسرين حالة عبد الأمير قبيل انتحاره بشكل علماني (كما يدّعون) ونفسي كأنهم أطباء:
- تعصبه الغريب غير المبرر ذاك، أوصله إلى حالة من الانفصام في الشخصية، فتحول من مؤمن واعٍ إلى مجرم متعصب لا يفقه من سر الحياة سوى ظلها، لذلك شعرَ بالتأكيد في الفترة الأخيرة، بحيادية مفرطة، وانعزالية قاتلة.. أدَّت كل هذه العوامل إلى اتخاذ قراره بالانتحار.
ثمَ هتفوا بصوتٍ واحد، وكأنهم يتغنون:
- لا كل من نطق فهو ناطق، ولا كل من تغنى بالجمال هو شاعر.

في حين تردد المحافظون من إبداء آرائهم في مسألة انتحار عبد الأمير، وطال فيهم الأمد، ثمَ خرجوا من صمتهم، وكأن الوحي نزلَ عليهم فجأة فصرحوا بتفاؤل:

ـ لقد كان عبد الأمير التقي تقدميًا ويدعو إلى الإصلاح والتغيير ونبذ الماضي وعدم الاعتراف بالتاريخ، بعدَ أن انفصل عن الحاضر ولم يستطع مجاراته هو الآخر، فلم يفلح بالماضي، ولم يعش الحاضر، فأضرمت نيران العجز في عينيه فانتحر!.

ظلَّ السؤال ولا يزال يتردد على الشفاه، كاللغز، كأنه سرٌّ الحياة والموت: لماذا انتحرَ عبد الأمير التقي؟ ترى هل تعلمون؟ أم أنكم مثلي، الجواب تجهلون، والموتى لا يتكلمون.



المؤلف في سطور

- كاتب وقاص عراقي، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.
- هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.
- أسس مجلة ناطقة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونخ عام ١٩٩٩م، وترّأس تحريرها.
- نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها: مجلة آفاق مندائية، مجلة العهد، مجلة أقلام الثقافية، مجلة أصوات الشمال، الناس، أدب، شبكة حنين، وطيور دجلة، وغيرها الكثير.
- له محاولات عديدة في الرسم.
- أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.

- الإصدارات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٥م
- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٧م
- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠١٠م
- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- ملح العيون : مجموعة قصصية (تحت الطبع).

- البريد الإلكتروني: haitham65@hotmail.de

الفهـرس



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net